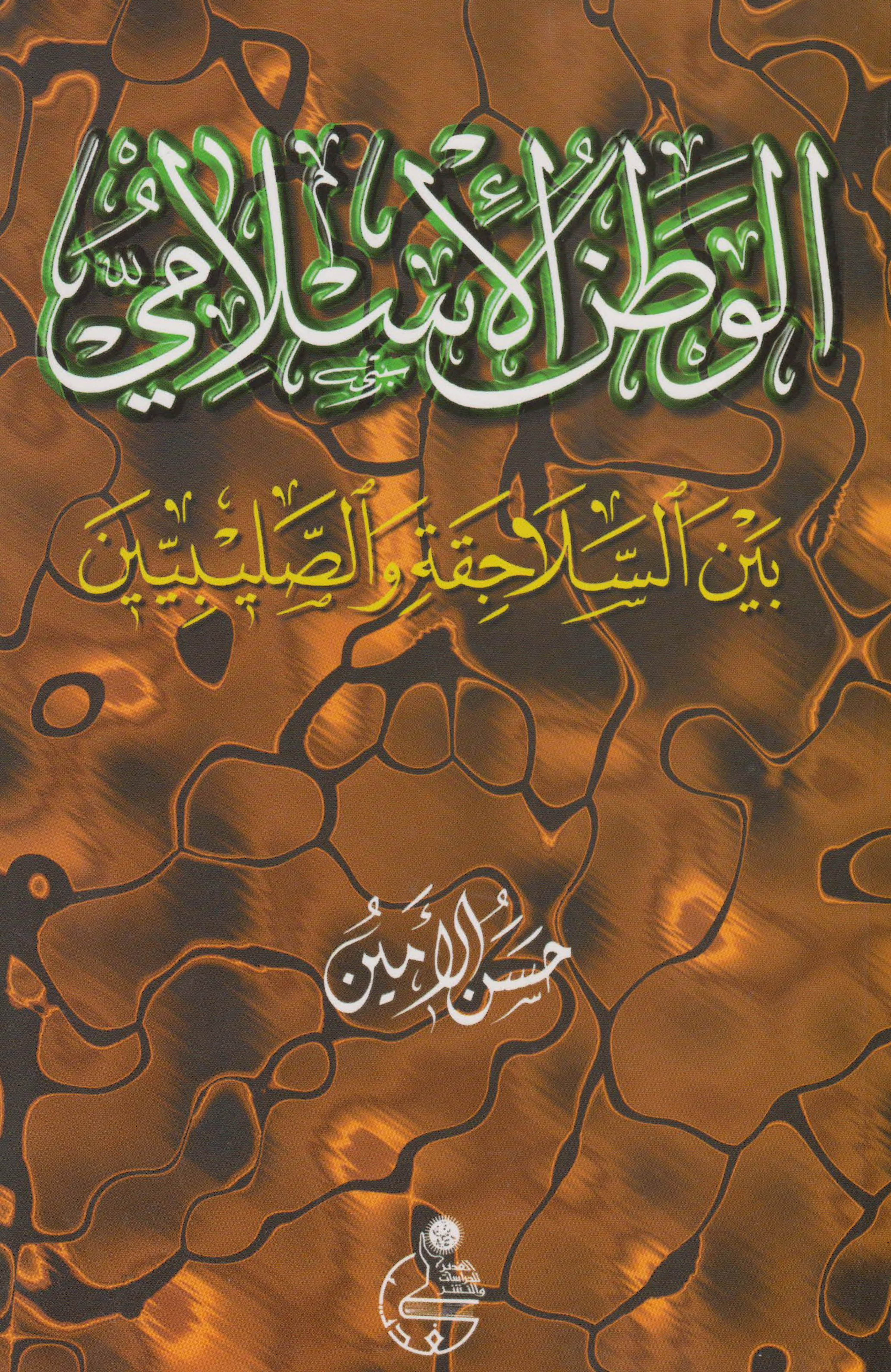
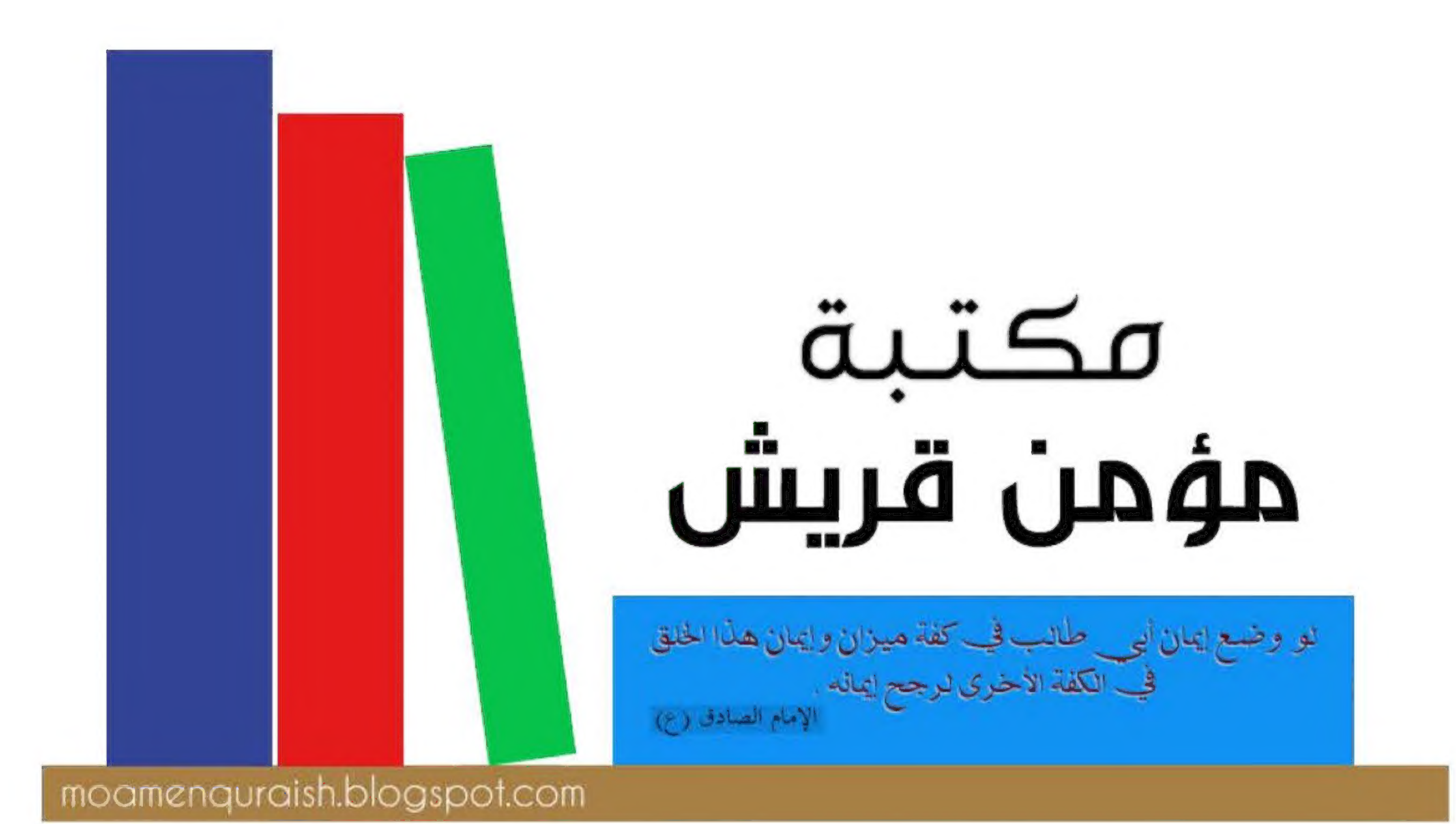
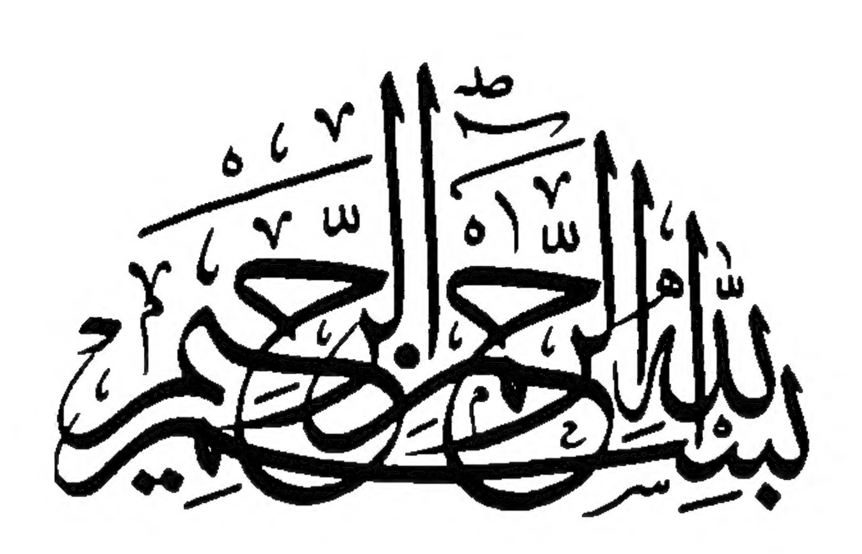

الوطن الإسلامي
بين السلاجقة والصليبيين
حسن الأمين
الغدير للدراسات والنشر


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


الوطن الإسلامي
بين السلاجقة والصليبيين

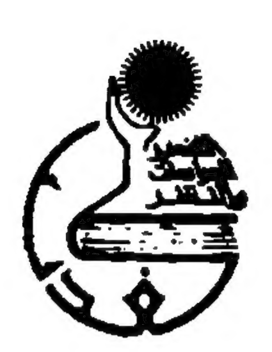

بسم الله الرحمن الرحيم


الوطن الإسلامي
بين السلاجقة والصليبيين

حسن الأمين


الغدير
بيروت - لبنان

الطبعة الأولىٰ
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م



حارة حريك - شارع دكاش - بناية فضل اللّه ورضا - بلوك (ب) - ط٢
هاتف: ٦٤٤٦٦٢(٠٣) ، فاكس: ٦٠٣٤٨٣ - ص.ب: ٢٤/٥٠ بيروت - لبنان

كلمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

يعيد المؤرخ السيد حسن الأمين قراءة التاريخ، ويجيب عن أسئلة كثيرة، منها: من هم السلاجقة؟ ما أصلهم؟ وكيف جاءوا إلى العراق... ثم ما العلاقات التي كانت قائمة بينهم وبين الصليبيين من جهة، وبين الخوارزميين من جهة أخرى؟

وفي الجانب الآخر من العالم الإسلامي يجيب الباحث عن أسئلة أخرىٰ، منها: من هم الملثمون؟ وكيف تساقطت بلاد الأندلس؟وكيف تأسست وازدهرت دولة بني عمار في طرابلس؟ وما معالم الحركة الثقافية التي نشطت في بلاط أمرائها؟

تتصف إجابات الباحث في هذا الكتاب إضافة إلى الجرأة في قول ما يعتقده حقاً برصانة العالم المحقق وتجرّده.

ومركز الغدير للدراسات الإسلامية إذْ يسرّه أن يقدّم إلىٰ القارىء الكريم كتاب المؤرخ الكبير هذا يتوجه إليه بالتحية والشكر ويرجو له المزيد من التوفيق في إعادة قراءة تاريخنا الإسلامي وإضاءة زواياه المظلمة.

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

ما سموه (مؤتمر صلاح الدين الأيوبي) الذي جمعه جامعوه في بيروت في شهر آذار سنة ١٩٩٤ لم يكن ما قيل فيه إلا اجتراراً طالما أجتره أمثالهم على مدى العصور، وقد رددنا على ذلك المؤتمر بكتابنا الذي أسميناه (صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين).

ولما كان في الكثير مما قيل في ذلك المسمى بالمؤتمر ما يحتاج إلى تبيان الحقيقة والرد عليه رداً تفصيلياً لذلك أفردنا هذه الفصول في كتاب يجلو من الحقائق ما حاول الدكتور عمر تدمري الذي جعلوه وجه المؤتمر ـ حاول تزييفه، واغتنم فرصة المؤتمر ليعيد في أواخر القرن العشرين كتابة ما كتبه السفهاء في القرون المظلمة.

يقول الدكتور عمر تدمري في مفتتح حديثه: لقد جاءت الحملات الصليبية في وقت كان فيه العالم الإسلامي يعاني ـ بشكل عام ـ من الانقسامات السياسية والخلافات المذهبية، وكانت بلاد الشام التي استهدفتها تلك الحملات تعيش في وضع سياسي مفكك حيث توزعت مدنها بين حكام وأمراء يحذر كل منهم الآخر. وكان

الخلاف المذهبي بين العبيديين (الفاطمين)[1] الإسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة الأتراك والعباسيين السنة في العراق هو أشبه بالخلاف المذهبي بين الكنيستين اليونانية البيزنطية (الشرقية) واللاتينية الرومانية (الغربية)، بل؛ هو خلاف أشد وأدهى لطالما أدى إلى القتال، إذ كانت بلاد الشام مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم (انتهى).

الدكتور عمر تدمري الذي يبرز نفسه، ويبرزه المبرزون مؤرخاً إسلامياً متميزاً، يبرز هنا على حقيقته جاهلاً كل الجهل لتاريخ تلك الحقبة من حياة العالم الإسلامي. أو عارفاً بالحقائق مزيفاً لها.

وهذا الذي قاله ونقلناه فيما تقدم هو بعيد كل البعد عن الحقيقة، ولا صلة له من قريب أو بعيد بالصدق والتاريخ الصحيح.

وأول ما نقوله: أنه لم يكن هناك احتكاك بين الفاطميين الشيعة في مصر والسلاجقة السنة في العراق، لسبب واضح: هو

---

(١) الدكتور عمر تدمري يسمي الفاطميين باسم (العبيديين). بهذه الروح يكتب حملة الدكتوراه وأساتذة الجامعات في أواخر القرن العشرين ـ بهذه الروح يكتبون التاريخ!!

أنه عندما كان الفاطميون مسيطرين في مصر، كان البويهيون الشيعة هم المسيطرين في العراق لا السلاجقة.

كما أن بلاد الشام لم تكن أبداً مسرحاً للصراع العسكري، والسياسي، والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين. وعندما تقدم الفاطميون من مصر إلى بلاد الشام لم يكن السلاجقة هم الذين يحكمونها.

إن بلاد الشام يومذاك بحكم كونها منطقة نفوذ للأخشيديين آلت نظرياً، وعن طريق الإرث بعد تصفية نظامهم في مصر إلى الفاطميين، في نفس الوقت كانت منطقة هامة في حرب الثغور وأصبحت بعد فتح مصر ملجأ لفلول المنهزمين من الكافورية والإخشيدية الذين ضموا جهودهم إلى عناصر السلطة القديمة في بلاد الشام، وأصبح الخطر من جهتهم متوقعاً فقد بادر جوهر فاتح مصر الفاطمي بضمها إلى مصر، تأميناً للحدود وتوسيعاً للنفوذ الفاطمي، الذي امتدت خطوط دفاعه «فأصبحت في بلاد الشام وليست في مصر».

وكان نائبه في قيادة الحملة الكبرى جعفر بن فلاح هو الرجل الأول الذي عهد إليه بتصفية بقايا الأخشيدية والكافورية وضم بلاد الشام فعلياً إلى نفوذ الخلافة الفاطمية.

وكان يشرف على بلاد الشام كبير الأُسرة الأخشيدية، أبو محمد الحسن بن عبيدالله بن طغج الذي كان مركزه دمشق، وكان

على طبرية وحوران والبثنية[1] ولاة من عرب بني عقيل، ومنهم شبيب وظالم، وملهم، الذي كان يشرف عن طريق غلامه فاتك على طبرية، وكان على بيت المقدس عامل أخشيدي هو الصباحي، ولما كانت الرملة ودمشق أهم مدن الإقليم التابع للأخشيديين، فقد كان والي بلاد الشام يوصف أحياناً بصاحب دمشق، والرملة التي هي مدينة جنوب فلسطين العظمى، وقد ظفرت بمركز ممتاز فاق أهمية بيت المقدس بسبب موقعها الإستراتيجي وقربها من حدود مصر، وقد تعرضت أكثر من مرة لغارات قرامطة البحرين، وغدت بعد فتح مصر قاعدة حربية لمواجهة الغزو الفاطمي من جهة مصر، إذا استقر فيها الحسن بن عبيدالله بن طغج منذ شهر رمضان ٣٥٨ هـ/ يوليه ٩٦٨ م. ليخطط للمعركة القادمة مع جعفر بن فلاح، وترك دمشق في عهدة أحد موالي الأخشيديين، وهو شمول، ولأن الأخير، كان يحقد على الحسن مكانته السياسية وسعة سلطانه، وينتظر به فرصة قدوم طلائع الجيش الفاطمي ليخذله، ويظهر ما بيته له، فقد اتصل بجوهر سراً، وكشف له عورات البلاد وأبان عن وجهة نظره في الحسن بن عبيدالله، ثم تقاعد عنه ورفض مساعدته في الرملة، رغم إلحاحه عليه وعلى الصباحي وفاتك، في سرعة المجيء، بسبب قرب العسكر الفاطمي، وتركوه مع ثلة من مساعديه

(١) البَثَنِيَّة: من نواحي دمشق، معجم البلدان، ج١ ص ٤٠٢، دار الكتب العلمية (١٩٩٠ م) ط١.

يواجهون الهزيمة، ومحنة الأسر على يد جعفر بن فلاح، منذ منتصف رجب ٣٥٩ هـ/ ماي ٩٧٠ م وقد أرسلوا مقيدين إلى مصر، ومنها واصلوا الرحلة صحبة الهدية التي أنفذها جوهر إلى بلاد المغرب.

ويبدو أن حزم جعفر بن فلاح وسياسته ودعوته لولاة الأخشيديين لإعلان الولاء والطاعة للمعز لدين الله، هي التي صرفت كثيراً منهم عن مساعدة ابن طغج وأدته إلى الاستسلام لقوات جعفر دون مقاومة تذكر، إلا في مدينة طبرية، التي يبدو أن واليها فاتكاً غلام ملهم العقيلي، بيت على مقاومة قوات الفاطميين، ولذلك تحصن جعفر في نقطة استراتيجية تسيطر على الجسر وبنى معسكراً اتخذه منطلقاً لحرب فاتك، رغم أن ملهماً مال إلى الموادعة وتظاهر بالولاء والطاعة للفاطميين[1]. وعندما تم قتل فاتك غدراً، تظاهر جعفر بأنه فوجيء بالحدث الذي لم يكن له به علم، وتحفظ على عناصر التآمر من الأعراب، وقدمهم إلى ملهم، ليقتص منهم، فتحاشى الأخير قتلهم، وعفا عنهم، خوفاً من الإيقاع به أما سكان المدينة فقد استاءوا للحادث، والتحموا مع قوات جعفر، وشهدت طبرية فتنة كبرى، لم تقتصر آثارها على عناصر الخلاف، وإنما شملت من جاء إلى المدينة في

(١) كان رد ملهم على جعفر: هو غلامي وقد وهبته، ويلاحظ أن جعفراً ترك طبرية إلى دمشق لأن ملهماً أقام الدعوة باسم المعزلدين الله دون أن يشير إلى قتل فاتك.

هذا الظرف الدقيق، وهم ممثلو سكان مدينة دمشق، الذين غادرهم شمول الأخشيدي، وانضم إلى قوات جعفر بن فلاح في طبرية، فارتاع السكان وأرسلوا إلى جعفر، وفداً من شيوخهم لإعلان الولاء، ورغم أن القائد الكتامي استقبلهم بحفاوة وتبسط معهم في الحديث فإنهم تألموا من سوء المعاملة، وعندما رجعوا إلى دمشق «غير شاكرين، ولا راضين» عن قوم جفاة قباح المناظر والزي والكلام، ليس لهم عقول يرجعون إليها، «نقلوا إلى سكان المدينة صورة قاتمة وانطباعاً سيئاً أذى مشاعرهم، وأدخل الرعب في نفوسهم، وجعلهم يستعدون للمقاومة الجدية بتوجيه أشراف دمشق وبمساعدة بقايا الأخشيدية والكافورية الذين لم يرافقوا شمولاً، ثم عنصر الأحداث والشطار» الذين كانوا بمثابة قوة دفاعية مدنية من بين عامة السكان، وقد استغلوا حالة القلق في المدينة والفراغ السياسي بعد انسحاب شمول، وتفرق جنده، لكي يظهروا عنصراً فعالاً في حماية المدينة من الغزو الخارجي ويبرزوا إلى الحياة السياسية ويمثلوا دوراً هاماً في مدن الشام الأُخرى قبل وبعد الفتح الفاطمي.

ويبدو أن أوضاع دمشق، وحالة الاستعداد للمقاومة، هي التي أملت على ابن فلاح، خطة أساسها الانتقاص من أطراف دمشق، وكسر مقاومة بني عقيل في حوران، والبثنية، وسكان الغوطة، بجهد مشترك بين جزء من قواته، وأعراب مرة، وفزارة، وذلك قبل اقتحام المدينة بقوات الحملة الرئيسية. وعندما شعر بأنه أبعد بني عقيل عن الميدان إلى حمص، ونال رجاله من ضواحي

دمشق، بعد خسائر تكبدها، خف بكامل قواته، منذ يوم الخميس لثمان خلون من ذي الحجة ٣٥٩ هـ، وفرض حصاراً على المدينة، واتخذ من يوم السبت ١٠ ذي الحجة معسكره، ومقر قيادته بحي الشماسية، ومن هناك أشرف على المعركة ضد أحداث دمشق وأشرافها وجندها الذين قاوموا ضغط جند كتامة فترة ثم بدؤوا يميلون لإنهاء حالة الحرب والحصار في إطار الاعتراف بالسيادة الفاطمية، غير أن جعفراً بن فلاح، لم يستجب لهم بسهولة، قصداً لما عرفه من تقلب أهوائهم وسيطرة الشطار والأحداث، والأشراف، وسائر عملاء العباسيين على الوضع الداخلي، ولذلك لقي وفد سكان المدينة معاملة سيئة أثناء محاولتهم الاتصال به في حي الشماسية للحصول على الأمان، كما قوبلوا بالتهديد والوعيد من جانبه عندما قابلهم بنفسه وكان هدفه فيما يبدو أن يكون هؤلاء أداة تبليغ لسكان المدينة ولعناصر الشغب المتطرفين، ليشتد خوفهم وتزداد حيرتهم، عندما يعرفون مدى تصميم القائد على إخضاعهم بالقوة القاهرة، وربما كان يريد بهذا التشدد أن ينصرف السكان عن المشاغبين، ويتخلصوا منهم، وبذلك تتبلور اتجاهات السلام والصلح على أساس متين ويبدو أنه نجح في خطته إلى حد بعيد، لأن السكان وقد هالهم هذا التشدد واحتاروا في معالجة الوضع، لم يجدوا غير مشائخ البلد وأشرافها، وكان جعفر بن فلاح يميل إليهم ويقدرهم لأنهم من آل البيت، وقد نجحت وساطتهم لإنهاء حالة الحرب إنما بعد تشدد، وعندما عرف استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه، بدأ يتراجع عن

موقف الشدة الذي اصطنعه حتى هذا الوقت، وتبسط في الحديث مع الوفد، وقرر أن يشرف بنفسه على إقامة الدعوة للمعز لدين الله في الجامع الأُموي في يوم الجمعة ويتفقد شؤون المدينة تطييباً لخاطر السكان، ثم يرجع إلى معسكره بالشماسية.

وكان أعضاء الوفد قد بلغوا ذلك، ورغبوا من عنصر الشطار أن يلازموا بيوتهم، غير أن هؤلاء لم يستجيبوا لهذه الرغبة، واستغلوا فرصة انتشار عسكر كتامة في أحياء المدينة وأسواقها أثر الصلاة، وقتلوا منهم كثيرين بحجة الدفاع عن النفس وعن الأموال، فتأثرَ جعفر للحادث، واعتبر ما حصل حركة عدائية مقصودة لنقض عهد الأمان الذي تقرر مع وفد المدينة، وأنكر على المشائخ والأشراف ما حصل من الغدر برجال أمير المؤمنين وتهددهم، ولم تهدأ ثورته إلا عندما اعتذروا عن الحادث، ووافقوا على ما اقترحه من دفع ديات ضخمة، فدية (لمن قتل من عسكره) وتكلفوا بجمع المال من السكان.

وتشير النصوص إلى ثورة عامة شهدتها مدينة دمشق في الجمعة الثانية، أي بعد الاتفاق على مبدأ الصلح، وقد تزعمها عنصر الأشراف بقيادة أبي القاسم بن أبي يعلى، الذي كان بمثابة رئيس المدينة ينتهي السكان عند رأيه، ويطيعه الشطار، وقد انضم إليه عرب بني عقيل، ومنهم ظالم بن موهوب وأبناء عصودا، محمد، وإسحاق، وكان مظهر الثورة قطع الدعوة للمعز لدين الله وإزالة شعار الفاطميين، وإرجاع الدعوة للمطيع العباسي ولبس

شعار السواد، وكانت الثورة من الخطورة بحيث أن جعفراً واجهها بقوة، واجتهد في إخمادها وفي القبض على رؤوس الفتنة ومثيري الشغب، ويبدو أن جهوده أثمرت في النهاية، وفشلت الثورة وفر زعماؤها خارج دمشق، وبينما نجا محمد بن عصودا، وظالم بن موهوب العقيلي بالفرار إلى الإحساء حيث نجحا في الكيد للنفوذ الفاطمي بتأليب القرامطة وتشجيعهم على العودة إلى بلاد الشام وفشل الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى، في النجاة بنفسه إلى بغداد، فأدركه ابن عليان العدوي، في صحراء تدمر، وأرجعه إلى دمشق لكي ينال الجزاء من قائد الفاطميين، وقد قام جعفر بن فلاح بتشهيره في المدينة على جمل، ثم أودعه السجن وأخضعه لامتحان عسير حتى رق لحاله وتأثر من مصيره ووعده التوسط عند جوهر لتخفيف العقوبة عنه وحرم ابن عليان من المكافأة وخاطب رجاله مستنكراً عليهم بقوله: «غدرتم بالرجل» ثم صرفهم عنه بدون مال، وأرسل الشريف وبعض «الأحداث» إلى مصر، أما الباقون ومعهم إسحاق بن عصودا، فقد قتلوا وصلبوا واحتزت رؤوسهم وعلقت على أبواب المدينة، وفي الميادين الكبرى، وكان فشل هذه الثورة عاملاً هاماً في تشريد عنصر الأشراف والحد من تطرف الأحداث، وشغب السكان في دمشق التي استقرت أوضاعها مؤقتاً، وعادت الدعوة الفاطمية إليها، كما كانت من قبل.

وعندما بدا لجعفر بن فلاح أنه سيطر على الوضع الداخلي بتحطيم عناصر المقاومة، بدأ يرسي قواعد السيطرة الفاطمية

ويطبق مظاهر التحول الجديد، في الدعوة، وفي الآذان، والإقامة. وتصرف على نحو يشعر بأنه اطمأن على الوضع فانتقل من معسكره بحي الشماسية إلى الذكة فوق نهر يزيد، بظهر سور دمشق، وأشرف على حركة التعمير والبناء، فاتخذ لنفسه قصراً عجيباً بناه بالحجارة وتفنن في بنائه حتى جعله «شاهقاً في الهواء غريب البناء» وحوله بنى الجند مساكنهم ومعسكراتهم ونشطت حركة البيع والشراء في أسواقهم واتسعت خطتهم وانبثت الحياة بين أظهرهم حتى صارت خططهم «شبه المدينة»، وعني بالجبهة الشمالية، وبمنطقة الثغور، فأرسل بعوثاً عسكرية بقيادة بعض مساعديه ضد الروم البيزنطيين في الاسكندرونة وإنطاكية التي احتلوها منذ فترة سابقة (محرم ٣٥٩ هـ/ نوفمبر ٩٦٩ م). وبدءوا يضغطون بشدة على مدن شمال الشام وحلب خاصة، استضعافاً للحمدانيين، بعد وفاة سيف الدولة (٣٢٢) سنة ٣٥٦ هـ ـ ٩٦٧ م، وكان قد أرسل من قبل داعياً هو أبو طالب التنوخي إلى أبي تغلب ناصر الدولة بن حمدان في الموصل يعرفه بأنه في طريقه لإعلان الدعوة الفاطمية في بلاده، فرفض بشدة على أساس قرب المنطقة من بغداد، ومن ضغط القوات العباسية، ولخص رأيه في قوله: «هذا ما لا يتم، لأننا في دهليز بغداد والعساكر قريبة منا ولكن إذا قربت عساكركم من هذه الديار أمكن ما ذكرتم»[1].

---

(١) مصادر استيلاء الفاطميين على بلاد الشام هي: عمر كامل توفيق: مقدمات العدوان الصليبي على بلاد الشرق العربي ص ٦٦ ـ ٦٧، النويري: نهاية =

هكذا وصل الفاطميون إلى بلاد الشام. وصلوا إليها في أواسط القرن الرابع الهجري في حين أن أول ظهور للسلاجقة في العراق، كان في أواسط القرن الخامس، فكيف تكون الشام مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين، في حين أن السلاجقة لم يكونوا وجدوا بعد؟!!

وبعد ذلك عندما سيطر السلاجقة على العراق، كان حكم الفاطميين، قد تضعضع في مصر في أواخر عهد المستنصر، ثم تلاشى هذا الحكم نهائياً في حياة المستنصر باستيلاء الجماليين على الخلافة الفاطمية. فمتى كان هذا الصراع الذي يزعم عمر تدمري وجوده بين السلاجقة والفاطميين في بلاد الشام؟!.

= الأرب، عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ١٠٩ جمال سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ١٦و١٨ وما بعدها. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٧١. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٤ ص ٢٧، ٣٢ـ ٣٣، ابن أيبك الدواداري: الدرة المضية ج٦ ص ١٢٣ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣ ورقة ١٩٠، بيبرس الدواداري: زبدة الفكرة ج٦ ورقة ٢٠٤ ـ ٢٠٥، ابن الجوزي: مرأة الزمان ج١١ ورقات ٥، ١٥، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص١، ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٢١٢، المقريزي: إتعاظ الحنفا ج١ ص ١٢١، ١٢٣، ١٢٤ س١ـ٢ (عن الدكتور موسى إقبال بنصه)، ابن خلدون العبر: ج٤ ص ١٠٠، جمال سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ١٨ وما بعدها.

السلاجقة

أصل السلاجقة

أصولهم تعود إلى القبائل التركية التي عرفها العرب باسم (الغز) والتي استطاعت في القرن السادس الميلادي أن تقيم امبراطورية ذات طابع بدوي امتدت من الصين إلى البحر الأسود. وحين اصطدمت بالصينيين فضعضعوها.

هاجر (الغز) في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) متجهين إلى الغرب في الصحارى الواقعة شرق بحر قزوين دون أن يستطيعوا تحقيق وحدتهم، بل عادوا متقاتلين، وانتشرت فروعهم متمددة إلى البعيد حيث وصلت إلى فارياب على نهر سرداريا (سيحون). ومن هؤلاء تحدر السلاجقة[١].

وسبب تسميتهم بهذا الإسم هو انتسابهم إلى أحد أجدادهم سلجوق بن دقاق، ودقاق هذا ـ أو تقاق ـ كما يلقبه ابن الأثير ـ كان وجه الأتراك الغز، على جانب من الرأي والتدبير فأطاعه قومه

(١) السلاطين في الشرق العربي ص ١٧ ـ ١٨.

واتبعوه، وولد له سلجوق الذي تقدم عند ملوك الترك كأبيه، وشعر يوماً أن ملك الترك يتآمر عليه فاستنفر جماعته ومضى بهم إلى دار الإسلام فصار مسلماً بين المسلمين، واستقر في نواحي جَنْد[1] وراح يؤلب المسلمين على الترك ويغزوهم بهم. وبعد أن كان هؤلاء يأخذون الخراج من المسلمين، طردهم سلجوق وساد المسلمون في تلك الأرض[2] ومات سلجوق بجند بعد أن عمّر مئة سنة وسبع سنين وترك من الأولاد: أرسلان وميكائيل وموسى.

وقتل ميكائيل في غزواته لبلاد الأتراك، وترك من الأولاد: بيغو وطغرل بك محمد وجَفْري بك داود، فسارَ الثلاثة في عشائرهم وتقدموا فنزلوا على بعد عشرين فرسخاً من بخارى، فتوجس الشر منهم أمير بخارى فلم يسالمهم فتركوه إلى بُغراخان ملك تركستان وأقاموا في بلاده ولكنهم ظلوا في ريبة من أمره فتقرر بين طغرل بك وأخيه داود أن لا يلتقيا معاً في مجلس بغراخان، بل ينفرد كل واحد منهما بالمجيء إليه ويبقى الثاني بين قومه خوفاً من أن يغدر بهما مجتمعين.

ولما فشل بغراخان في الجمع بينهما في مجلس واحد قبض على طغرل بك، فاستنفر داود قومه ومشى إلى مقاتلة بغراخان

---

(١) جَنْد: كما يقول في معجم البلدان: بالفتح ثم السكون، اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر، قريب من نهر سيحون.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٩ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤.

لاستنقاذ أخيه، فاصطدم بقوى بغراخان الزاحفة إليه فهزمها واستطاع تخليص أخيه. فرأيا أن يعودا بقومهما إلى قاعدتهما الأولى جند غير البعيدة عن بخارى فيقيما فيها.

وبانقراض الدولة السامانية وتملك ايلك الخان بخارى استفحل أمر إرسلان بن سلجوق عم داود وطغرل بك فيما وراء النهر[1] وكان علي تكين أخو إيلك الخان، في سجن أرسلان خان فهرب واستطاع الاستيلاء على بخارى وتحالف من أرسلان بن سلجوق حيث سادا قويين، فمشى إليهما ايلك خان أخو أرسلان خان فهزماه وظلا في بخارى.

وكان علي تكين يقلق محمود بن سبكتكين فيما تجاورا به من بلاد، ولا يبالي أن يقطع الطريق على رسله المترددين إلى ملوك الترك[2].

وكان محمود بن سبكتكين قد أوقع بجماعة أرسلان بن سلجوق في مغازة بخارى، فلما عبر محمود النهر إلى بخارى، هرب علي تكين صاحبها منها، وحضر أرسلان بن سلجوق عند محمود فقبض عليه وأرسله سجيناً إلى الهند. وهاجم جماعته فأكثر القتل فيهم، ومن سلم منهم فر إلى خراسان فعاثوا فيها

---

(١) ما وراء النهر: هو الإسم الذي أطلقه العرب على المنطقة الواقعة في حوض نهري أمودريا (جيحون) وسيردريا (سيحون).

(٢) الكامل ج٩، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٥.

فساداً، فطاردهم فيها وأجلاهم عنها، فلح قسم بأصبهان فأمر محمود نائبه فيها أن يحتال في قتلهم أو إرسالهم إليه، فاصطدم بهم يعاونه أهل أصبهان فهزمهم فانطلقوا ينهبون القرى في طريقهم حتى بلغوا أذربيجان.

على أنه كان بقي أكثرهم في خراسان فراحوا ينهبون ويخربون ويقتلون، فأرسل محمود من يطاردهم، فلبثوا في ذلك نحو سنتين إلى أن اضطر محمود إلى أن يقصد خراسان بنفسه وراح يطلبهم من نيسابور إلى دهستان فساروا إلى جرجان، ثم عاد عنهم مستخلفاً ابنه مسعود بالري فاستخدم بعضهم. فلما مات محمود سار ابنه مسعود وهم معه إلى خراسان.

ثم أن مسعوداً مضى إلى الهند لإخماد عصيان فيها، فعاودوا العيث في البلاد، وكان قد أرسل أحد قواده إلى الري فلما بلغ نيسابور ورأى ما هم عليه من العبث، قتل منهم من قتل، ولما بلغت أخبارهم مسعوداً عاقتهم أسوأ عقاب من قطع الأيدي والأرجل والقتل واستصفاء الأموال[1].

هذا ما يتعلق بأرسلان بن سلجوق وعشيرته، وأما أولاد أخوته فإن علي تكين صاحب بخارى راح يحاول الظفر بهم فقرب إليه يوسف بن موسى بن سلجوق، وهو ابن عم طغرل بك محمد، وجفرى بك داود وقدمه على جميع الأتراك الذين في ولايتها

---

(١) الكامل ج٩، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٩.

واقطعه أقطاعاً كثيرة، ولقبه بلقب الأمير.

وكان يهدف من وراء ذلك إلى أن يضرب به ابني عمه طغرل بك وداود، ولكن يوسف تأبى عليه ولم يماشه في هذا فأمر بقتله.

فعظم قتله على طغرل بك وأخيه داود وعلى عشائرهما، فلبسوا عليه الحداد وجمعوا من استطاعوا جمعه من الأتراك للثأر له. وجمع علي تكين جيوشه وبعث بها لقتالهم فهزموها. وفي سنة ٤٢١ هـ سار طغرل بك وداود إلى (ألب قدا) الذي تولى قتل ابن عمهما يوسف فقتلاه.

فأثار ذلك علي تكين فقصدهم على من تبعه من جموع أهل البلاد وناوشوهم من كل جانب، فأوقعوا بهم موقعة عظيمة قتل فيها منهم العدد الكثير وسبوا نساءهم وذراريهم، فاضطروا إلى العبور إلى خراسان. فلما عبروا جيحون كتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتاش يدعوهم إليه ليتحالفوا معاً.

فلبى طغرل بك وأخواه داود وبَيْغود عونه، وخيموا بظاهر خوارزم سنة ٤٢٦ فغدر بهم ووجه إليهم أحد أمرائه ففاجأهم وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي، فتركوا خوارزم بجموعهم إلى مغازة(نسا)، وقصدوا مروا دون أن يتعرضوا لأحد بشر، مخلفين أولادهم وذراريهم في الأسر.

وكان مسعود به محمود بن سبكتكين قد سيطر على طبرستان وأقام فيها، فكاتبوه مستأمنين، واعدين إياه بأن يكونوا أعواناً له يتوجهون لقتال من يفسد في بلاده.

ولكن مسعوداً قبض على رسلهم وبعث عليهم جيشاً جراراً التقى بهم عند (نسا) فانهزموا بعد قتال عنيف وغنمت أموالهم، فاختلف المنتصرون على اقتسام الغنائم اختلافاً أدى إلى التقاتل بينهم.

وكان داود قد قال لقومه: إن القوم قد اطمأنوا لهزيمتنا وليس في ذهنهم أننا نعود إليهم، فأرى أن نباغتهم وهم قارون مطمئنون. فعادوا إليهم وهم يتقاتلون فأوقعوا بهم وقتلوا منهم وأسروا واستردوا أموالهم ورجالهم.

وعاد المنهزمون إلى الملك مسعود في نيسابور يقصون عليه ما جرى، فندم على ما كان منه من رفض استئمانهم وصداقتهم، ورأى أن هيبتهم قد ملأت قلوب رجاله، وأنهم بعد هزيمتهم لجيشه قد طمعوا به بعد خوفهم منه، وخشي من معاودتهم قتاله، فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم.

فطلب طغرل بك من إمام صلاته أن يكتب إلى مسعود هذه الآية ولا يزيد عليها شيئاً: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير).

فكتب ما أمره به، وتلقى مسعود الرسالة فكان صداها في نفسه إن كتب إليهم كتاباً يمنيهم فيه الأماني الطيبة، وأرسل لهم مع الكتاب خلعاً نفيسة، وطلب إليهم الرحيل إلى آمل الشط، ـ وهي مدينة على نهر جيحون ـ، كما نصحهم بترك الشرك والفساد، واقطع (دهستان) لداود، و(نسا) لطغرل بك، و(فراوة) لبيغو،

ومنح كل واحد منهم لقب (الدهقان).

ولكنهم استخفوا بالرسول وبالخلع، وأظهروا عدم ثقتهم بالسلطان، وقالوا للرسول: لو علمنا أن السلطان يبقي علينا إذا قدر لأطعناه، ولكنا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكنا لما عملناه وأسلفناه، فنحن لا نطيعه ولا نثق به.

ثم راحوا يفسدون في الأرض، وبعد فترة تركوا ذلك وقالوا: إذا لم نستطع الانتصاف من مسعود فلا داعي للإساءة إلى الناس ونهب أموالهم.

ثم فكروا بمخادعة مسعود والتظاهر بالخضوع له، ويطلبون منه أن يطلق عمهم أرسلان بن سلجوق من الحبس.

فاستجاب لطلبهم هذا، وأطلق أرسلان، واحضره إليه في بلخ، وأمره أن يكتب إلى بني أخيه طغرل بك وبيغو وداود بأن يكفوا عن الشر ويستقيموا في حياتهم.

فأرسل إليهم رسولاً يأمرهم بذلك.

يقول ابن الأثير[١] وأرسل معه (إشفى) وأمره بتسليمه إليهم. فلما وصل الرسول وأدى الرسالة وسلم إليهم (الإشفى) نفروا واستوحشوا وعادوا إلى أمرهم الأول في الغارة والشر، فأعاده مسعود إلى محبسه وسار إلى غزنه.

---

(١) ابن الأثير، ج٩، ص ٤٧٩.

وبرجوعي إلى معجم لسان العرب رأيته يفسر (الإشفى) بهذه التفاسير:

الإشفى: المثقب.

الإشفىْ: ما كان للأساقي والمزاود والقرب وأشباهها.

الإشفى: المخصف للنعال.

الإشفى: السِّراد الذي يخرز به.

أما السلاجقة فصدوا بلخ ونيسابور وطوس والجوزجان، فأفسدوا ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا[1] فتصدى لهم الملك مسعود بن محمود، وأرسل جيشاً في ثلاثين ألفاً بقيادة حاجبه (سباشي) من غزنة. فلما وصل خراسان خرّب ما سلم من تخريب السلاجقة، وظل طيلة سنة يدافع ويطاول حذراً من الاصطدام بهم، فإذا ابتعدوا تتبعهم، وإذا أقبلوا رجع عنهم.

وفي سنة ٤٢٩ هـ كان هو في قرية بظاهر سرخس، والسلاجقة بظاهر مرو مع طغرل بك ـ وقد بلغهم خبره ـ فساروا إليه وباشراوا قتاله، فلما جاء الليل أخذ سباشي ما خف من مال وهرب في خواصه وترك خيامه ونيرانه على حالها، وقيل أنه فعل ذلك بالاتفاق معهم وفي الصباح عرف من بقي من عسكره خبره فانهزموا[2].

---

(١) ابن الأثير، ج٩، ص ٤٥٧.

(٢) م.ن./ ٤٥٨.

وتقدم داود أخو طغرل بك وهو والد السلطان ألب أرسلان إلى نيسابور فدخلها بغير قتال، ووصل بعدهم طغرل بك. ثم وصلت رسل الخليفة حاملة رسالته في وعظهم ونهيهم عن النهب والقتل والتخريب، فأكرموا رسل الخليفة وعظّموهم وخدموهم.

ومال داود إلى نهب المدينة فنهاه طغرل بك فتجاهله داود وبعد جدال طويل تحول عن النهب الصريح إلى النهب المغلف ففرض على أهل نيسابور ثلاثين ألف دينار.

ومضى طغرل بك إلى دار الإمارة وجلس على سرير الملك مسعود وسيّر أخاه داود إلى سرخس فملكها، ثم استولوا على خراسان كلها عدا بلخ.

وكانوا ثلاثة أخوة: طغرل بك، وداود، وبَيْغُو. أما يَنّال واسمه ابراهيم فهو أخو طغرل بك وداود لأمهما.

أما الملك مسعود فقد خرج من غزنة إلى بلخ أول سنة ٤٢٨ هـ وسبب خروجه منها ما كان يبلغه من أخبار السلاجقة وما ارتكبوه من الاستيلاء على البلاد والقتل والسبي والتخريب.

وأقام فترة في بلخ يتهيأ لمطاردة السلاجقة ثم قصد سرخس فتجنب السلاجقة الاصطدام به وتظاهروا بأنهم سيدخلون المغازة التي بين مرو وخوارزم، وكان جيش مسعود يتعقبهم، فما لبثوا أن اصطدموا بإحدى قطعه العسكرية فظفرت بهم. ثم واجههم بنفسه فانتصر عليهم مما أدى إلى ابتعادهم عنه، ثم رجعوا إلى نواحي

مرو، قريباً منه، فقابلهم وقتل منهم عدداً كبيراً وهرب الآخرون لاجئين إلى البرية التي اعتادوا الاحتماء بها.

أما في نيسابور فقد ثار الناس بهم فقتلوا من قتلوا منهم وانهزم من بقي إلى البرية ملتحقين بجماعتهم. ومضى مسعود إلى هرات ليعد عدته مطارداً لهم. فابتعد طغرل بك ما قدر على الابتعاد عن طريق مسعود، ناهباً كل ما يمر به من بلاد مثخناً فيها.

وراح مسعود يطارده فلما صار قريباً منه مضى طغرل بك ممعناً في السير إلى (أُستُوا)[1] واستقر بها، فمضى إليه مسعود، فرحل إلى طوس محتمياً بجبالها المنيعة ومضايقها العسيرة العبور، فسيّر إليه مسعود أحد قواده في عساكر كثيرة، فلما قرب منه ارتحل طغرل بك نواحي ابيورد. وكان مسعود قد سار بنفسه إليه فاصطدم طغرل بك بمقدمة جيشه فهزمته واستسلم عدد كبير من جنوده، فلما رأى ذلك وعلم أنه مطارد من كل جانب دخل المفازة إلى خُوارزم وأوغل فيها. ومضى مسعود إلى نيسابور منتظراً حلول الربيع ليعاود مطاردة السلاجقة.

وأقام داود في مدينة مرو، وتعددت انهزامات عساكر السلطان مسعود في لقاءاتهما مع السلاجقة وتضعضعت معنويات جنوده رهبة منهم، لا سيما بعد ابتعاده هو إلى (غزنة)، فراح نوابه

---

(١) استوا: كما في معجم البلدان: كورة من نواحي نيسابور تشتمل على ثلاث وتسعين قرية وقصبتها خبوشان، وحدودها متصلة بحدود نسا.

وولاته يستغيثون به ويذكرون له عيث السلاجقة في البلاد. ولكنه كان لا يجيب، ولا يبالي مشغولاً بقضايا الهند ومشاكلها، صارفاً النظر عن السلاجقة وعن خراسان.

وباشتداد أمر السلاجقة في خراسان، صمم وزراء مسعود وأصحاب الرأي في دولته، على إستنهاضه لملافاة خطر السلاجقة وبينوا له أن السلاجقة إذا تمت لهم السيطرة على خراسان فهم سائرون إلى غزنة حتماً.

فتنبه للخطر وأعد جيشاً كثير العدد بقيادة حاجبه (سباشي) وأرفقه بأحد كبراء أمرائه (مرداويج بن بشو). ولم يكن في سباشي من الشجاعة ما تقتضيه هذه القيادة، بل كان جباناً، فأقام بهرات ونيسابور، ثم باغت (مرو) وبها داود، فانهزم داود ولحقته العساكر، فأدركه أحد الأمراء فقاتله داود فقتل الأمير وانهزم جنوده وتضعضعوا وارتفعت معنويات السلاجقة.

وعاد داود إلى مرو وأحسن السيرة في أهلها، وفي أول جمعة من شهر رجب سنة ٤٢٨ هـ خطب باسمه ولقب بملك الملوك.

ثم التقى داود وسباشي في شعبان سنة ٤٢٨ على باب سرخس، فانهزم سباشي وسار ومن معه إلى هرات، فتبعهم داود إلى طوس وغنم أموالهم، فكانت نتيجة هذه المعركة أن ملك السلاجقة خراسان ودخل طغرل بك نيسابور وخطب له فيها في شعبان باسم السلطان الأعظم، وأرسل الحكام إلى النواحي.

وسار داود إلى هرات، واضطر مسعود إلى الذهاب بنفسه إلى خراسان بجيش كبير فيه عدد كثير من الفيلة ووصل إلى بلخ فزحف إليه داود ونزل قريباً منها.

ثم سار مسعود من بلخ يقود مئة ألف فارس فوصل الجوزجان وقبض على واليها السلجوقي فصلبه، ثم واصل سيره إلى مرو الشاهجان. ومشى داود إلى سرخس والتقى بأخويه طغرل بك وبَيْغُو، فأرسل إليهم مسعود عارضاً الصلح، فذهب إليه بيغو بالجواب فتلقاه مسعود بحفاوة بالغة، ولكن الجواب كان بأننا لا نثق بمصالحتك بعد الذي كان بيننا.

وبهذا الجواب انقطع أمل مسعود بالصلح فسار من مرو إلى هرات، فقصد داود مرو فقاومته وحاصرها سبعة أشهر مواصلاً قتالها حتى سلمت.

وكان لتسليم مرو وقع الصاعقة على مسعود، فترك هرات إلى نيسابور ثم إلى سرخس، وكلما تبع السلاجقة إلى مكان تركوه إلى غيره، حتى كان الشتاء فأقاموا بنيسابور ينتظرون الربيع. فلما جاء الربيع كان مسعود مشغولاً بلهوه وشربه، وانقضى الربيع والأمر كذلك، فلما جاء الصيف نبهه خواصه إلى ما هو مستفزين له على التصدي لأعدائه السلاجقة، فاستجاب لهم وسار من نيسابور إلى مرو لمطاردة السلاجقة، فدخلوا البرية فدخلها وراءهم في مرحلتين، وكان جنوده قد ضجروا من طول السفر وسئموا الترحل طيلة ثلاث سنين، بعضها مع سباشي وبعضها معه.

فلما دخل البرية اضطر لنزول منزل قليل الماء في حر شديد. . وكان داود ومعه جل السلاجقة بإزائه، والآخرون مقابل ساقة عساكره يتخطفون من تخلف منهم.

وزاد أمر مسعود بلاء أن حواشيه اختصموا وجمع من عسكره على الماء وازدحموا وقامت الفتنة بينهم وأدى الحال إلى الاقتتال والتناهب، مما أدى إلى تخلخل معنويات الجند وراحوا يتذاكرون في التخلي عن مسعود.

ووصلت أخبار ما هم فيه إلى داود فباغتهم وهم في هذه الحال فولوا منهزمين وكثر القتل فيهم وتمت الهزيمة. . .

ومضى مسعود في نحو مئة فارس حتى أتى غَرْشِستان[١].

وكانت غنائم السلاجقة لا حصر لها، ونزل داود في سرادق مسعود وقعد على كرسيه. وسار طغرل بك إلى نيسابور فدخلها آخر سنة ٤٣١ ونهب أصحابه الناس.

وانتهى الأمر باستيلاء السلاجقة على جميع البلاد، فسار بيغو إلى هرات فدخلها، وسار داود إلى بلخ فثبت فيها والي مسعود وقاوم وأرسل إلى مسعود في غزنة يستمده، فأرسل إليه

---

(١) غرشستان: يقول في معجم البلدان: هي ولاية برأسها، هرات في غربيها، والغور في شرقيها، ومرو الروذ عن شماليها، وغزنة عن جنوبيها. وهي ناحية واسعة كثيرة القرى.

مسعود مدداً قوياً، فقصد قسم منهم الرُّخَّج[1] وفيها جمع من السلاجقة فقاتلوهم فانهزم السلاحقة وخلت تلك الأماكن منهم.

ومضى الآخرون إلى هرات، وفيها بيغو فقاتلوه ودفعوه عنها. ثم أرسل مسعود ولده مودوداً في جيش كبير مدداً لمقاتليه هناك. ولكن الأقدار كانت لمسعود بالمرصاد.

الانقلاب على مسعود وقتله

سار مودود إلى بلخ مدداً لواليها لرد داود السلجوقي عنها، وكان مع مودود وزير أبيه أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد يدبر له الأمور ويساعده في مهمته.

أما مسعود فبعد اطمئنانه إلى مسير الجيش السائر لإنقاذ بلخ، توجه بعد سبعة أيام من مسير الجيش، قاصداً الهند ومعه أخوه محمد.

وكان سفره إلى الهند بقصد إعداد حملة يستعين بها على حرب السلاجقة الذين كان قد أيقن باستفحال أمرهم وعجزه، بما لديه من قوى عن قمعهم، فلما عبر نهر سيحون معبّراً معه بعض الخزائن، استغل أنوشتكين البلخي فرصة انفراده فضم إليه جماعة من الغلمان الدارية، ونهبوا ما كان قد تخلف من الخزائن، وأعلنوا إقامة محمد في الإمارة بدل أخيه مسعود، وجاءوا محمداً فسلموا

---

(١) الرخج: يقول في معجم البلدان: هي كورة ومدينة من نواحي كابل.

عليه بالإمارة، فرفض ذلك وأباه عليهم، فهددوه، وأرغموه، فأجاب، ومضوا لحرب مسعود، والتقى الفريقان في حرب ضارية، أدت إلى انهزام مسعود، وتحصنه فيما يسميه ابن الأثير[1] رباط ماريكلة فحصروه فيه، ثم خرج إليهم مستسلماً فقال له أخوه محمد: أنظر أين تريد أن تقيم، حتى أبعثك إليه، ومعك أولادك وحُرَمك، فاختار قلعة كيكي فأنفذه إليها محفوظاً وأمر بإكرامه وصيانته.

وفوض محمد أمر الدولة إلى ولده أحمد، وكان أهوج متخبطاً فاتفق مع ابن عمه يوسف بن سبكتكين على قتل مسعود ليصفوا الملك له ولوالده فقتلاه.

ووصل خبر قتل مسعود إلى ولده مودود وهو بخراسان فعاد بعساكره إلى غزنة فالتقى بجيشه جيش عمه محمد فانهزم محمد وجيشه، وقبض مودود على محمد وولده أحمد وأنوشتكين البلخي وغيرهم فقتلهم، وعاد إلى غزنة.

فلما بلغ أهل هرات انتصار مودود ثاروا على من عندهم من السلاجقة وأخرجوهم منها بانتظار حاكم مودود. وكان مودود قد استقر أمره في غزنة، كما استقر في الهند.

وفي سنة ٤٣٣ هـ وكان طغرل بك يملك جرجان وطبرستان ويولّي عليها ويعود إلى نيسابور. وفي سنة ٤٣٤ سار إلى خوارزم

---

(١) ج٩، ص ٨٥.

واستولى عليها. وفي السنة نفسها خرج من خراسان إلى الري فتسلمها وتسلم غيرها من بلد الجبال.

وأرسل إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه مالاً فاستجاب له وحمل إليه مالاً وعروضاً. وسار إلى همذان فملكها.

وفي سنة ٤٣٥ سيّر مودود بن مسعود جيشاً إلى نواحي خراسان فأرسل داود أخو طغرل بك ـ وهو صاحب خراسان ـ ولده ألب أرسلان في جيش فاقتتلوا فكان النصر لألب أرسلان.

وفي سنة ٤٣٦ كان (السلطان) طغرل بك يستكمل أدوات (السلطنة) فيتخذ له وزيراً هو أبو القاسم علي بن عبدالله الجويني، ثم وزر له بعده رئيس الرؤساء أبو عبدالله الحسين بن علي بن ميكائيل، ثم وزر له بعده نظام الملك أبو محمد الحسن بن محمد الدهستاني، وهو أول من لقب نظام الملك، ثم وزر له بعده عميد الملك الكندري، وهو أشهر وزرائه، وسبب شهرته أن طغرل بك في أيامه عظمت دولته ووصل إلى العراق وخطب له بالسلطنة.

وفي سنة ٤٣٧ أرسل طغرل بك أخاه إبراهيم ينّال إلى بلد الجبل فملكها، ثم سار إلى همذان والدينور وقرميسين فملكها بعد أن أسرفه في القتل والسبي والنهب في الثالثة لأنه لقي فيها مقاومة. ثم سار إلى الصيمرة وحلوان فأحرق هذه ونهبها.

واتجهت جماعة من السلاجقة إلى خانقين مطاردين أهل حلوان وانتشروا في تلك النواحي وبلغوا (مايدشت) وما يليها فنهبوها وأغاروا عليها.

وفي سنة ٤٣٨ كان طغرل بك يحاصر أصفهان فلا يظفر بها، وانتهى الأمر بحمل مال إليه، وأن يخطب له فيها وفي أعمالها.

وفي سنة ٤٣٩ كان السلاجقة يمتدون إلى البندينجين فينهبونها ويفعلون الأفاعيل القبيحة، من القتل، والنهب، وافتراش النساء، والعقوبة على تخليص الأموال، فمات منهم جماعة لشدة الضرب ـ كما نص ابن الأثير في الكامل[١].

ووصلوا إلى ضواحي (باجِسْرى) فقتلوا الرجال، وغنموا الأموال، ونهبوا الأعمال، وعمّ ذلك باجسرى والهارونية وقصر سابور، وجميع تلك الأعمال، وهلك من أهل تلك النواحي المنهوبة خلق كثير، فمنهم من قتل ومنهم من غرق، ومنهم من قتله البرد[٢].

ووصل الخبر إلى بغداد بأنهم عازمون على قصد بغداد فدب الذعر في الناس.

ثم اتجهوا إلى السيروان فحصروا القلعة وأرسلوا سرية نهبت البلاد وانتهت إلى مكان بينه وبين تكريت عشرة فراسخ. والتجأ إلى بغداد من أهل طريق خراسان خلق كثير، وذكروا من حالهم ما أبكى العيون[٣].

---

(١) ج٩، ص ٥٣٨.

(٢) ج٩، ص ٥٣٩.

(٣) م. ن.

وفي سنة ٤٤٠ استولوا على شهرزور وحاصروا تيرانشاه ولكن وقوع الوباء دفعهم عنها واستردت منهم شهرزور.

ولما وصلت أخبار تنامي قوة السلاجقة وبسط سلطتهم ـ لما وصلت إلى جماعاتهم فيما وراء النهر أقبل منهم خلق كثير إلى حيث يقيم إبراهيم ينال، فقال إبراهيم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وأنا سائر على أثركم.

فسبقوه وتبعهم، فوصلوا إلى (ملازكرد)، و(ارزن الروم) و(قاليقلا) وبلغوا طرابزون وكل تلك النواحي. فزحف إليهم الروم والانجاز بما يبلغ خمسين ألف مقاتل، فدارت الحرب سجالاً، ثم انتصر السلاجقة فكانت غنائمهم كثيرة. وراحوا ينهبون ويتقدمون حتى لم يبق بينهم وبين القسطنطينية إلا خمسة عشر يوماً.

يقول ابن الأثير[١]: واستولوا على تلك النواحي فنهبوها وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مئة ألف رأس، وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء.

وفي سنة ٤٤١ وقع الخلاف بين طغرل بك وأخيه إبراهيم ينال حتى وصل الأمر إلى اقتتال جيشيهما وانهزام ينال والقبض عليه ثم إحسان أخيه إليه.

---

(١) ج٩، ص٥٤٦.

وتوطد أمر طغرل بك وعلت سلطته فأرسل إلى حاكم مقاطعة دياربكر أن يقيم له الخطبة في بلاده ففعل، وأحس البزنطيون أنه أصبح في جوارهم حكم قوي فراسل ملكهم طغرل بك وهاداه وطلب إليه إن يتعاهدا فاستجاب له، وأعيد تعمير مسجد القسطنطينية وخطب فيه لطغرل بك.

يقول ابن الأثير[1]: ودان حينئذ الناس كلهم له، وعظم شأنه وتمكّن ملكه وثبت.

ونستطيع القول: إن هذه المرحلة هي مرحلة قيام الدولة السلجوقية وابتداء أمرها ابتداء لا ينقصه شيء من حقائق الدول ومظاهرها.

كان أبو منصور بن علاء الدولة صاحب أصفهان على تجاذب مع طغرل بك تارة يطيعه، وتارة يتمرد عليه، فلما انتهى طغرل بك من عصيان أخيه إبراهيم ينال، مضى إلى أصفهان عازماً على احتلالها فاستعصت عليه، وظل على حصارها نحو سنة، وأخيراً استسلمت ودخلها في المحرم من سنة ٤٤٣ فأحسن فيها السيرة، واستطابها فنقل ما كان له في الري من مال وذخائر وسلاح إليها وجعلها عاصمته.

على أن بعض الشرائح السلجوقية لم تفهم حقيقة قيام الدولة بسلطتها المركزية، فظلت تتصرف تصرفاً قبائلياً، فألب أرسلان بن

---

(١) ج٩، ص ٥٥٧.

داود أخي طغرل بك سارَ من مدينة مرو بخراسان إلى بلاد فارس دون أن يعلم عمه طغرل بك، فوصل إلى مدينة (فسا) واحتلها وأحدث فيها مذبحة ونهبها وأسر الآلاف من رجالها. يقول ابن الأثير[1]: وكان الأمر عظيماً. ثم عادوا إلى خراسان.

وراح طغرل بك يمد في ملكه فاستولى على آذربيجان وسار إلى أرمينية وقصد إلى ملا زكرد وكانت للبيزنطيين فحصرها وضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها وأسر من رجالها، وبلغ حتى أرزن الروم، وعند حلول الشتاء عاد إلى آذربيجان دون أن يملك ملازكرد. ثم توجه إلى الري فأقام بها حتى دخلت سنة ٤٤٧.

---

(١) ج٩، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥.

السلاجقة في العراق

سنة ٤٤٧ بدت نية الملك السلجوقي طغرل بك في الاستيلاء على العراق، فأعلن أول ما أعلن أنه؛ يريد الحج وإصلاح طريق مكة[١]، وقد مهد بهذا الشعار ليبرر زحفه إلى العراق. ولم يكتف بهذا الإعلان، بل أضاف إليه أنه يزيد المسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر الفاطمي صاحبها.

وراح يعد لأمر الفتح عدته فاتصل بأنصاره بالدَّينَوَرَ وقَرْميسين وحلوان خاصة لقرب هذه المناطق من العراق، كما اتصل بغيرها مما هو أبعد منها، وأوصاهم بإعداد الميرة وجمع الأقوات والعلوفات والتهيؤ للتقدم عندما يطلب إليهم ذلك.

ثم لم يلبث أن مشى إلى حلوان وانتشرت جماعته في طريق خراسان، وأرسل إلى خليفة بغداد يعلن فيه تابعيته له وطاعته لأوامره، بل وعبوديته.

وكان في بغداد جماعات كثيرة من الأتراك فكتب إليهم يمنيهم ويعدهم بالخير العميم.

أمّا الخليفة فقد كان هواه مع طغرل بك فأمر الخطباء في جوامع بغداد بأن يخطبوا لطغرل بك، وأما الأتراك فقد أنكروا أمر طغرل بك وبعثوا إلى الخليفة برأيهم.

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص ٦٠٩.

وأما الملك البويهي (الرحيم)[1] فقد سلم أمره إلى الخليفة ليقرر ما يشاء، وكذلك فعل من كان مع الرحيم من الأمراء، فكان رأي الخليفة أن يرسلوا رسولاً إلى طغرل بك بإعلان الطاعة، ففعلوا.

ثم أرسل إلى الخليفة يستأذنه في دخول بغداد فأذن له، وخرج لاستقباله موكب حاشد فيه الوزير رئيس الرؤساء والقضاة والنقباء والأشراف وأعيان الدولة مع وجوه الأمراء من عسكر الرحيم. فلما علّم طغرل بك بتوجه المستقبلين إليه أرسل وفداً من قبله لملاقاتهم وزيره أبا نصر الكندري مع بعض الأمراء ودخل بغداد.

إذا كان طغرل بك قد استقبل ـ حكومياً ـ بهذا الاستقبال الحافل، فإن عواطف الشعب لم تكن متوافقة مع هذا الاستقبال الحكومي.

ومن الغريب ـ كما سنرى ـ أن دخول طغرل بك إلى بغداد وإعلان اسمه في الخطبة، كان يعني نهاية الحكم البويهي الشيعي وحلول الحكم السلجوقي السني مكانه، ومع ذلك فإن البغداديين السنيين هم الذين بادروه بالمقاومة والثورة، في حين قابله الشيعة بالهدوء والسكينة وحماية جنوده من الاعتداءات السنية عليهم!!

---

(١) هو أبو نصر خُرّه فيروز بن أبي كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه. تولى بعد وفاة أبيه أبي كاليجار سنة ٤٤٠ هـ.

إن المؤرخ لا يستطيع أن يمر بهذا الأمر دون أن يقف عليه وقوفاً طويلاً، ودون أن يتساءل لماذا قابل سنيو بغداد طغرل بك وحكمه السلجوقي، بهذه الغضبة الدموية، ولماذا كان هدوء الشيعة وسكينتهم؟!..

الحقيقة في ذلك تشرِّف البويهيين وحكمهم، وتدل على أن البويهيين لم يكونوا يؤثرون فريقاً على فريق، فالسنيون لم يروا في زوال حكمهم زوال عهد كان لا ينصفهم ويتعصب عليهم، والشيعة لم يروا في ذلك خسراناً، لأن الحكم الزائل لم يكن يميزهم بشيء، فهم لا يخسرون شيئاً بزواله وحلول حكم آخر محله، وقد فضلوا أن يبادروه بالإحسان إليه ـ كما سنرى ـ والسكوت عنه اتقاء لشر يمكن أن يحل بهم منه.

وثورة السنيين إنما جاءت لما كان يتسرب إليهم من أخبار مظالم السلاجقة فيما كان بأيديهم من بلاد.

بدأت الاضطرابات ابتداء غريباً، فابن الأثير يقول[١]: لما وصل السلطان طغرل بك بغداد دخل عسكره البلد للإمتيار وشراء ما يريدونه من أهلها، وأحسنوا معاملتهم. ثم يقول: فلما كان الغد جاء بعض العسكر إلى باب الأزج وأخذ واحداً من أهله ليطلب منه تبناً، وهو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم وصاح العامة بهم ورجموهم وهاجوا عليهم.

---

(١) ج٩، ص ٦١١.

وسمع الناس الصياح فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك، فارتج البلد من أقطاره، وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد إلاّ أهل الكرخ (الشيعة) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز، بل جمعوهم وحفظوهم (انتهى).

في اليوم الأول كان التعامل حسناً بين الجنود (الغز) جنود طغرل بك وبين البغداديين، فالجنود امتاروا من تجار بغداد وأحسنوا التعامل معهم، وفي اليوم الثاني جاء جماعة منهم يريدون شراء التبن لدوابهم، ويبدو جلياً أنهم لم يكونوا يعرفون كلمة (التبن) العربية، فحاولوا إفهام أحد المارة ما يريدون فأخذوه جانباً ليتفاهموا معه، فظن أنهم يريدون به شراً، فاستنصر بالناس فنصروه وتألب عليهم الجمهور وصاحوا بهم ورجموهم وتكاثروا عليهم!.

لو كان البغداديون مبتهجين بزوال الحكم البويهي الشيعي لأغضوا عن استنجاد ذاك الفرد المستنجد ولأقبلوا إليه وإلى من استنجد عليهم محاولين الاستفهام عما يجري ولغضوا المشكل بين الفريقين بأهون سبيل..

ولو كانوا مستبشرين بقدوم من أراحهم من حكم البويهيين لطيبوا خاطر الجنود الغز وتعرفوا إلى حاجتهم وبادروا بإرشادهم إلى باعة التبن واعتذروا إليهم عن سوء ظن ذاك الفرد بهم، ولتصافوا جميعاً وانتهى الأمر بالتوادد والتحابب.

ولكن البغداديين كانوا آسفين لانقضاء العهد البويهي غاضبين على من أنهاه، فلم يكادوا يسمعون صرخة الاستنجاد حتى هاجموا جنود طغرل بك ورجموهم دون أن يحاولوا الاستفسار عن سبب الخلاف، والاستعلام من الجنود عما يريدون.

على أن الأخطر من ذلك هو أن الأمر لم يقتصر على من شهدوا التجاذب بين البغدادي وجنود طغرل بك فهاجوا على الجنود ورجموهم، بل تعدى إلى الجمهور البغدادي السني كله، هذا الجمهور الذي وصفه ابن الأثر بقوله:

«وسمع الناس الصياح، فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك فارتج البلد من أقطاره، وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد، إلا أهل الكرخ (الشيعة) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز وحفظوهم» اهـ.

ومعنى ذلك أن البغداديين حين علموا بتسليم الملك البويهي بالأمر الواقع وعدم مقاومته للاحتلال السلجوقي سكتوا وسلموا مثله بالأمر الواقع. ولكنهم حينما سمعوا الصياح ورأوا اشتباك مواطنيهم مع الغز جنود طغرل بك، ظنوا بأن الملك البويهي (الرحيم) غيّر رأيه وعزم على المقاومة، لذلك ارتج البلد بهم وأقبلوا من كل حدب ينسلون، وراحوا يقتلون كل من يصادفونه من الجنود، وأعلنوها ثورة عامة على طغرل بك واحتلاله.

أما أهل الكرخ (الشيعة) فقد كان موقفهم مغايراً، ويبدو

واضحاً أنهم لم يشاركوا في هذه الثورة، بل راحوا يجمعون الجنود الغز ويحفظونهم.

وهذا ما يدعو إلى التفكير الطويل: السنيون يثورون على المحتل السني القادم إليهم، وينتصرون للحاكم الشيعي ويثورون معه حين توهموا أنه ثائر على المحتلين، ولا يبالون أن يقتلوا الجنود السنيين حيث وجدوهم.

والشيعة يقفون على الحياد فلا ينتصرون للحاكم الشيعي، ولا يثورون على الحاكم السني، ويزيدون على ذلك بأن يجمعوا الجنود السنيين ويحموهم ويصونوا دماءهم!!

التفسير الصحيح لذلك ـ كما أشرنا من قبل ـ هو أن الحكم البويهي كان حكماً عادلاً غير متحيز لفريق على فريق، وأن السنيين كانوا راضين كل الرضا عن هذا الحكم الذي لم يسىء لا إلى حياتهم العامة ولا إلى مذهبيتهم، ولم يتدخل في طقوسهم وعقائدهم، بل تركهم أحراراً في كل شيء، والحرية هي مطمح الإنسان، فإذا حصل عليها فكل شيء بعدها يهون.

وكل ما فعله الحكم البويهي هو أنه كما ترك السنيين أحراراً، رفع الحيف عن الآخرين وأعاد إليهم حريتهم المغتصبة، وتركهم يمارسون هذه الحرية في طقوسهم وعقائدهم..

وبذلك تساوى الجميع، بعد أن كانت الحرية لفريق دون فريق..

وسمعة الحكم السلجوقي كانت سيئة لدى البغداديين،

وأخبار مظالمه كانت تصل إليهم.

لذلك رأيناهم يقفون منه ذاك الموقف الحاد حين رأوه يصل إليهم. والإنسان لا تهمه حريته العقائدية فقط، بل تهمه حريته الكاملة، فماذا يجديه إذا كانت تُترك له حريته العقائدية في حين تُسلب منه حرية الحياة في كرامته وماله وعيشه واجتنائه العدل الاجتماعي.

ونحن هنا لا نريد أن نستعرض الحكم البويهي الذي قابل البغداديون انتهاءه بالثورة على من أنهاه، وحسبنا في أن نورد نماذج مما شهد به المؤرخون من نصاعة الحكم البويهي، فابن الأثير[١] يقول مثلاً وهو يتحدث عن ظفر معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه بياقوت وملك شيراز بعد معركة شرسة. يقول: كان معز الدولة في ذلك من أحسن الناس أثراً، ثم يقول أن معز الدولة وجد فيما غنمه بعد النصر: برانس لبود عليها أذناب الثعالب ووجد قيوداً وأغلالاً، فسأل عنها، فقال أصحاب ياقوت: إن هذه أعدت لكم لتجعل عليكم ويطاف بكم في البلاد.

فأشار أصحاب معز الدولة أن يفعل بهم مثل ذلك، فامتنع وقال: إنه بغي ولؤم ظفر، وقد لقي ياقوت بغيه.

ثم أحسن إلى الأسارى، وأطلقهم وقال: هذه نعمة والشكر عليها واجب يقتضي المزيد، وخيّر الأسارى بين المقام عنده

---

(١) ج٨، ص ٢٧٦.

واللحوق بياقوت، فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم وأحسن إليهم.

وسار من موضع الوقعة حتى نزل بشيراز، ونادى في الناس بالأمان وبث العدل، وأقام لهم شحنة يمنع من ظلمهم...

ويصفه عند ذكر موته (ص٥٧٥) بقوله: كان حليماً كريماً عاقلاً.

وعندما يتحدث ابن الأثير (ص ٦٧٠) عن ركن الدولة البويهي يقول:

كان حليماً، كريماً، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه، وجنده رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمة، عظيم الجد والسعادة، متحرجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقنها واجباً إلا فيما لا بد منه. وكان يحامي على أهل البيوتات وكان يجرى عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام، للصلاة، وينتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام.

ثم يختم ابن الأثير الحديث عنه قائلاً: رضي الله عنه وارضاه.

ومثل هذا القول لا يقال إلا للخلفاء الراشدين.

ويقول ابن الأثير عن عضد الدولة: كان عاقلاً فاضلاً حسن

السياسة كثير الإصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي محباً للفضائل وأهلها باذلاً في مواضع العطاء مانعاً في أماكن الحزم ناظراً في عواقب الأمور[1]. وبنى على مدينة النبي(ص) سوراً[2] وكان لا يعول في الأمور إلا على الكفاة، ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به.

حكي عنه أنه مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله، فقال: ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلّق بك الخطاب في زيادة قائد، ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم. وأما الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضي، وليس لنا، ولا لك الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته، فعلوا ذلك بغير شفاعة.

وكان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده، ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه.

وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم به إذا عملوا. وكان محباً للعلوم وأهلها مقرباً لهم محسناً إليهم، وكان يجلس معهم يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب منها: الإيضاح في النحو، والحجة في

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠.

القراءات، والملكي في الطب، والتاجي في التاريخ إلى غير ذلك، وعمل المصالح في سائر البلاد كالبيمارستانات (المستشفيات) والقناطر (الجسور) وغير ذلك من المصالح العامة.

هذه نماذج مما تحدث به المؤرخون عن رجال الحكم البويهي، لذلك لا نعجب إذا رأينا البغداديين الذين لم يكونوا على مذهبهم يغضبون لزوال حكمهم ويثورون على من أزال هذا الحكم.

أما الشيعة فلم يشاءوا أن يورطوا أنفسهم في ثورة اعتقدوا أنها فاشلة، فيجعلوا للحاكم الجديد سبيلاً للايغال في اضطهادهم، ورأوا أن يكون لهم يد بيضاء عنده في حمايتهم لجنوده وعدم التعرض لهم بالأذى وصون دمائهم. لعل هذه اليد تردعه عما يتوقعون من شره!..

وبالفعل فقد بدا أن موقفهم هذا قد أثمر ـ ولكن المؤسف أن هذا الأثمار كان إلى حين.

لقد بلغ طغرل بك ما فعله الشيعة من حماية جنوده، فأمر بإحسان معاملتهم وأرسل وزيره إلى نقيب العلويين عدنان بن الشريف الرضي الذي كان يتولى نقابة العلويين بعد وفاة عمه الشريف المرتضى، وقد كان عدنان هذا أبرز شخصية شيعية في بغداد، بل كان رأس الشيعة فيها.

أرسل الوزير إلى النقيب يطلب إليه الحضور لمقابلته، فجاء

إليه فشكره باسم طغرل بك، وترك عنده خيلاً بأمر طغرل بك تحرسه وتحرس المحلة كلها.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يتوجسون من اعتداءات ربما تقع على النقيب وعلى المحلة بسبب الموقف الحيادي الذي وقفته.

لقد كانت الثورة على الحكم الجديد ثورة هوجاء بدون قيادة وبدون تخطيط، فالعامة حين رأوا أنهم نجحوا في قتل من قتلوا من الجنود، خرجوا إلى ظاهر بغداد حيث يعسكر الجيش السلجوقي، وخرج معهم جماعة من العسكر، بقصد الاشتباك بالجيش.

وفي تقديرات ابن الأثير[١] أنه لو خرج معهم الملك الرحيم ومن لديه من جنود لانتصرت الثورة.

وهذا غير بعيد، لأن في ذلك ـ على الأقل ـ وجود قيادة، ووجود جنود محترفين.

ولكن يبدو أن (الرحيم) لم يكن من رجال مثل هذا الموقف الذي يقتضي شجاعة وحزماً وحسن تدبير، لذلك تخلف عن الالتحاق بالثائرين وتخلف معه جنوده.

أما أعيان أصحابه فقد أسرعوا ـ دفعاً للتهمة عنهم ـ إلى دار الخلافة وأقاموا فيها.

ووقع الصدام خارج بغداد بين الجماعات الثائرة وبين

---

(١) ج٩، ص ٦١١.

الجيش السلجوقي وكثرت القتلى من الفريقين.

وكان من الطبيعي أن تكون نهاية تلك الجماعات: الهزيمة، لأنه كان يعوز ثورتها شيئان: التخطيط، والقيادة.

وكان هذان الشيئان الأساسيان مفقودين لدى الثوار المقاتلين، إذ أن ثورتهم انبعثت من انفعال جماهيري طارىء فانتهت إلى الهزيمة، وإحكام سيطرة طغرل بك على بغداد.

تحققت هواجس البغداديين فافتتح الحكم السلجوقي أمره بالنهب، ويصف ابن الأثير ما كان يجري قائلاً: ونهب الغُزّ درب يحيى ودرب سليم، وبه دور رئيس الرؤساء ودور أهله فنهب الجميع. اهـ ورئيس الرؤساء هذا هو وزير الخليفة وهو الذي ذكرنا من قبل أنه خرج على رأس موكب حافل لاستقبال طغرل بك.

فلم يشفع له منصبه واستقباله وحفاوته، بل نهبت دوره ودور أهله.

ويسترسل ابن الأثير في وصف ما افتتح به السلاجقة حكمهم في العراق قائلاً: ونهبت الرصافة وتُرَب الخلفاء وأخذ منها من الأموال ما لا يحصى، لأن أهل تلك الأصقاع نقلوا إليها أموالهم اعتقاداً منهم أنها محترمة.

ووصل النهب إلى أطراف نهر المعلّى، واشتد البلاء على الناس وعظم الخوف اهـ.

وتجاهل طغرل بك ذلك كله، وكل ما فعله أنه أراد التخلص

من ارتباطات وعوده للملك الرحيم التي كانت بتوسط الخليفة، فأرسل إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأجناده، ويقول إذا حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى إنما كان بوضع منهم. وأرسل للملك الرحيم وأعيان أصحابه أماناً لهم، فطلب إليهم الخليفة أن يذهبوا إلى طغرل بك وأرسل معهم رسولاً من قبله يبرئهم مما يتهمهم به طغرل بك.

فلما وصلوا إلى خيامه نهبهم الجنود ونهبوا رسل الخليفة وأخذوا دوابهم وثيابهم[1].

ومع أن احتلال السلاجقة للعراق ودخول طغرل بك بغداد كان في حقيقة الأمر نتيجة تواطؤ بين السلاجقة والخليفة تخلصاً من سيطرة البويهيين على الخلافة، فإن هيبة الخلافة انتهكت من السلاجقة في أول يوم وصلوا فيه إلى بغداد، وذلك بإهانة رسل الخليفة ونهبهم وتجريدهم حتى من ثيابهم.

وزيد في الأمر أن الملك الرحيم ومن معه إنما ذهبوا إلى طغرل بك بضمان الخليفة ورسالة بتبرئتهم، ولكن طغرل بك لم يبال بذلك، فبمجرد دخولهم عليه، أمر بالقبض عليهم وسجنهم، ثم أرسل الملك الرحيم معتقلاً إلى قلعة السيروان.

وهال الخليفة ما لحقه من الإهانة بالقبض على الرحيم

(١) الكامل ج٩، ص ٦١٢.

وأصحابه، وما كان قد جرى على رسله، ونهب بغداد على مرأى ومسمع منه، فأرسل إلى طغرل بك ينكر ما جرى من القبض على الرحيم وجماعته، والاعتداء على قصر الخلافة بغداد ونهبها وترويع أهلها. ويقول في رسالته:

«إنهم (الرحيم وصحبه) إنما خرجوا إليك بأمري وأماني، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أفارق بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد، وحرمة الحريم تعظم، وأرى الأمر بالضد».

وإزاء هذه الغضبة الخليفية أطلق طغرل بك بعض المقبوض عليهم، أما الرحيم ـ وهو المقصود الأول بكلام الخليفة ـ فقد احتفظ به مقبوضاً عليه وأرسله معتقلاً سجيناً إلى قلعة السيروان، كما مر.

وهكذا ظلت غضبة الخليفة بلا نتيجة عملية، فكان هذا بداية الاستهتار بمقام الخلافة، وبداية إذلالها وإحكام السيطرة عليها.

وأما ما يتعلق باحتجاج الخليفة على ما جرى على أهل بغداد، فقد قوبل بمد النهب والترويع إلى ما يتجاوز بغداد ويصل إلى سوادها وأريافها، وظل المد يتعاظم حتى صار مداه من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل[1] ومن الشرقي إلى

---

(١) النيل: بلدة على نهر الفرات. والأصل في اسمها هو نهر حفرهُ الحجاج من الفرات وسماه باسم نيل مصر، وبه تسمت البلدة، وهي اليوم قرية عامرة =

النهروان[١] وأسافل الأعمال، كما ذكر ابن الأثير[٢]. أي أن النهب شمل معظم العراق.

ويضيف ابن الأثير إلى ذلك قائلاً: وخرب السواد وأجلي أهله عنه[٣].

هذه هي فاتحة أعمال السلاجقة في العراق التي عموا بها

= قرب بابل على بعد حوالي خمسة أميال من مدينة الحلة. معجم البلدان، ج٥ ص ٣٨٥، طبعة دار الكتب العلمية (١٩٩٠ م) ط١.

(١) النهروان: بلدة اندرست وكانت على صدر نهر النهروان جنوبي بغداد.

(٢) ج٩، ص ٦١٣.

(٣) السواد: يعني العراق. قال الخطيب البغدادي، وإنما سمي السواد سواداً لأن المسلمين قدموا يفتحون الكوفة، فلما أبصروا النخل قالوا: ما هذا السواد، فكلمة السواد أصبحت مدلولاً على الأراضي الزراعية الخصبة المكونة من ترسبات دجلة والفرات. أما حدود السواد فإنها تكاد تكون منطبقة على حدود السواد مع اختلاف الجغرافيين المسلمين في تحديد الحد الشمالي له، فمنهم من يرى أن حدود العراق هي: في الطول من حد تكريت إلى حد عبادان على خليج فارس. وفي العرض عند بغداد في قادسية الكوفة إلى حلوان، وعرضه بواسط ـ من واسط إلى قرب الطيب، وعرضه بالبصرة ـ من البصرة إلى حدود جبى. هذا ما قاله الإصطخري أما الخطيب البغدادي فإنه يحدد العراق: من بلد إلى عبادان، وعرضه من العذيب إلى جبل حلوان. ومدينة بلد التي يقصدها الخطيب هي الموضع المعروف اليوم: بأسكي موصل، وتعرف باسم (بلط) أيضاً، وتقع على بعد ٤٠ كلم شمالي غربي الموصل على ضفة دجلة اليمنى.

وقد تطلق كلمة (السواد) مضافة إلى إحدى المدن، فيقال: سواد الكوفة وسواد البصرة وسواد بغداد.

العراقيين جميعاً السنيين منهم والشيعة.

على أنهم لم ينسوا أن يَخَصُّوا الشيعة الذين لم يشاركوا في الثورة عليهم، وحموا جنودهم من القتل وآووهم في دورهم ـ لم ينسوا أن يَخَصُّوهم بنوع من الجور لا يطال غيرهم. فالشيعة لا يقولون في أذان السحر: (الصلاة خير من النوم)، بل يقولون بدلاً عن ذلك (حي على خير العمل).

فإذا بأوامر طغرل بك من أول يوم تتدخل في شؤونهم المذهبية وتفرض عليهم أن يتركوا حي على خير العمل، ويبدلوها بالصلاة خير من النوم.

في حين أن البويهيين الذين طال حكمهم في بغداد والعراق لم يتدخلوا في مثل هذه الشؤون، وتركوا الناس أحراراً في طقوسهم المذهبية.

وسينال الشيعة ما هو أشد من هذا وأفظع.

طغرل بك في العراق

استقر طغرل بك في بغداد وأمضى فيها ثلاثة عشر شهراً وأياماً دون أن يلق الخليفة[1]. وقد كان في هذا تجاهل لمقام الخلافة واستهانة بالخليفة.

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص ٦٢٧.

وهذا الخليفة الذي تآمر مع السلاجقة على البويهيين، عامله السلاجقة بالمهانة منذ اليوم الذي دخلوا فيه بغداد، كما رأينا فيما تقدم من الأحداث. وتوالت هذه المهانة إلى الحد الذي لم ير فيه الملك السلجوقي أن عليه أن يزور الخليفة! . .

وإذا كان ما لقيه الخليفة هو المهانة، فإن ما لقيه الشعب هو الإذلال والأفقار. يقول ابن الأثير[1] «طال مقام السلطان طغرل بك ببغداد وعم الخلق ضرر عسكره، وضاقت عليهم مساكنهم - فإن العسكر نزلوا فيها - وغلبوهم على أقواتهم وارتكبوا منهم كل محظور».

هذه الصورة الموجزة في كلامها ترينا واقع الحال التي كان عليها أهالي بغداد في حكم السلاجقة: الجنود يشاطرونهم السكنى في دورهم.

ونستطيع أن نتصور بضعة جنود يساكنون أسرة في منزلها، الأسرة المكونة من رجال ونساء وأطفال. وعلى هذه الأسرة أن تتكفل بإطعام هؤلاء الجنود، وفوق ذلك يرتكب هؤلاء الجنود في الأسرة كل محظور!! والمحظورات التي لم يشأ ابن الأثير أن يعددها نستطيع أن نتخيلها ونحسها! .

هال الخليفة القائم بأمر الله ما يلقاه الشعب البغدادي - لا سيما وأنه المسؤول الأول عن احتلال السلاجقة لبغداد - وما دام

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص ٦٢٦.

السلطان السلجوقي يتجاهله، فقد رأى أن لا يخاطبه، ولا يتصل به مباشرة، فكلف وزيره الملقب رئيس الرؤساء: أن يكتب إلى عميد الملك الكندري وزير السلطان أن يحضر لمقابلة الوزير فإذا حضر بيّن له عن الخليفة ما الناس فيه من البلاء، فإن أزال ذلك، وإلا يساعد الخليفة على الانتزاح عن بغداد ليبعد عن المنكرات[1].

ولا شك أن الخليفة قد تصرف تصرفاً فيه كل الدقة (الدبلوماسية)، فهو لم يخاطب السلطان بنفسه، فدلّل بذلك على أنه لا يعترف به. ثم هو لم يطلب من وزيره أن يذهب لمخاطبة وزير السلطان، بل طلب إليه استدعاءه إليه، فدلّل بذلك على أنه هو ووزيره أصحاب السلطة الشرعية...

وجاء الكندري وتبلّغ أمر الخليفة، ومضى إلى السلطان يبلغه ذلك. فاعتذر السلطان بكثرة العساكر وعجزه عن تهذيبهم وضبطهم، وأمر الكندري أن يبلغ عذره هذا إلى وزير الخليفة..

وبذلك أبدى إصراره على استدامة الحال على ما كانت عليه، ورفض تعليمات الخليفة برفع البلاء، وعدم اكتراثه بتهديد الخليفة بالرحيل عن بغداد...

وهنا حدث ما لم يكن بالحسبان: فقد حصلت عند سنجار معركة حربية بين (البساسيري) ـ سيأتي الحديث عنه ـ ومعه نور

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص ٦٢٦.

الدولة بن دُبَيّس بن مَزْيد[١] وبين قريش بن بدران صاحب الموصل ومعه (قتلمش)[٢] فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم قريش وقتلمش وقتل العدد الكثير من أصحابهما.

أما قتلمش المنهزم بأصحابه فقد لقي هو وأصحابه من أهل سنجار الأذى البالغ.

وأما قريش بن بدرن فقد جرح في المعركة، فجاء إلى نور الدولة دبيس بن مزيد، فرحب به دبيس وأعطاه خلعة كانت قد وصلت من مصر فلبسها.

وانضم إليهم. وساروا جميعاً إلى الموصل وأعلنوا انضمامها إلى الخلافة الفاطمية وخطبوا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله.

وصلت أنباء ما جرى إلى طغرل بك في بغداد وهو في عنفوان تجبره واستعلائه على الخليفة وإصراره على اضطهاد الشعب العراقي.

ويبدو جلياً أنها وصلته في نفس اليوم الذي رد فيه على رسالة وزير الخليفة بما رد، وبعد أن حمل وزيره الكندري رده إلى وزير الخليفة.

---

(١) أمير الحلة.

(٢) قتلمش: هو ابن عم طغرل بك، وهو جد الملوك أولاد قلج أرسلان أصحاب قونية وقيصرية وأقصر أو ملطية.

فأمام الخطر الداهم الذي فاجأته أخباره عما جرى في الموصل، والخشية من تفاقم الأمور وامتداد العصيان باتجاه بغداد، وقد بدت طلائعه بما جرى على ابن عمه وممثله (قتلمش) في سنجار أمام ذلك، لم يجد يداً من التراجع عن طغيانه، واسترضاء الخليفة والبغداديين، وإيجاد مخرج لذلك، لا يبدو فيه ضعيفاً متخاذلاً، متراجعاً عما عزم عليه، خائفاً من الآتي.

كان المخرج هو ادعاؤه أنه رأى في تلك الليلة في منامه النبي(ص) عند الكعبة وكأنه يسلم على النبي وهو معرض عنه لم يلتفت إليه، وقال له: يحكّمك الله في بلاده وعباده فلا تراقبه فيهم ولا تستحي من جلاله عز وجل في سوء معاملتهم وتفتر بإهماله عند الجور عليهم.

وتظاهر بأنه استيقظ فزعاً، وأحضر وزيره الكندري وحدثه بما ادعى أنه رآه وأرسله إلى الخليفة يعرّفه أنه يقابل ما رسم به بالسمع والطاعة.

وأخرج الجند من دور العامة، وأمر أن يظهر من كان مخفياً إلى غير ذلك...

ثم تجهز طغرل بك وترك بغداد لإخماد تمرد الموصل، فلما بلغ بجيشه (أوانا)[1] نسي النبي(ص) ونسي المنام فاعمل جيشه

(١) بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت.

النهب فيها وفي عكبرا[1] وفي كل ما كان يمر به في طريقه. ووصل تكريت فسلمت البلدة بمال قدمه صاحبها لطغرل بك.

ولما وصل (البوازيج)[2] أقام فيها حتى دخلت سنة ٤٤٩ هـ فأتاه أخوه (ياقوتي) بالعساكر فسار بهم إلى الموصل واستخلصها.

ولما بدت لدبيس بن مزيد وقريش بن بدران مظاهر قوة طغرل بك أسرعا يوسطان من يشفع لهما عنده ويعفو عنهما ففعل.

ولكن ابراهيم ينّال أخوه قال للوزير الكندري: من هؤلاء العرب حتى تجعلهم نظراء السلطان وتصلح بينهم؟[3]. هذا هو احترام السلاجقة للعرب!..[4].

ثم سار طغرل بك إلى ديار بكر وجزيرة ابن عمر، ولما كان يحاصرها سار جماعة من الجيش إلى (عُمْر أكمُن)[5] وفيه أربع مئة

---

(١) بليدة قرب أوانا.

(٢) بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة.

(٣) الكامل ج٩، ص ٦٣٠.

(٤) حين تقارن بين احتقار هذا السلجوقي للعرب وتمجيد الصاحب بن عباد وزير البويهيين لهم حين أنشده بعض الشعوبيين قصيدة في مدحه يعرّض فيها بالعرب ويثني على الفرس فغضب الصاحب وطلب إلى أحد الشعراء العرب أن يرد عليه في مجلسه، وقال للشاعر الشعوبي: جائزتك جوازك، إن رأيتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك.
حين نقارن بين الاثنين نعرف من هم البويهيون ومن هم السلاجقة.

(٥) قال في معجم البلدان وهو يتحدث عن (عُمرْ كسكر): العمر: هو الدير للنصارى، ذكر أبو حنيفة الدينوري في كتاب النبات إن العمر الذي للنصارى =

راهب فذبحوا منهم مئة وعشرين راهباً، وافتدى الباقون أنفسهم بستة مكايك ذهباً. . .

أرسلان البساسيري

البساسيري هو في الأصل مملوك تركي من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي ثم صار من جملة الأمراء عند البويهيين يرسلونه في مهماتهم، ثم ترقت به الحال وتقدم عند الخليفة القائم وقلده الأمور بأسرها وخطب له على المنابر وهابته الملوك ثم جرت بينه وبين وزير الخليفة الملقب رئيس الرؤساء منافرات فخرج البساسيري من بغداد وجمع واستولى على بغداد،

إنما سمي بذلك لأن العمر في لغة العرب نوع من النخل، وكان النصارى بالعراق يبنون ديرتهم عنده فسمي الدير به. وهذا قول لا أرتضيه لأن العمر قد يكون في مواضع لا نخل به البتة كنحو نصيبين والجزيرة وغيرهما، والذي عندي فيه أنه من قولهم: عمرت ربي أي عبدته، وفلان عامر لربه أي عابد، وتركت فلاناً يعمر ربه أي يعبده، فيجوز أن يكون الموضع الذي يُتعبد فيه يسمى العُمْر، ويجوز أن يكون مأخوذاً من الاعتمار والعمرة وهي الزيارة، وأن يراد أنه الموضع الذي يزار، ويقال جاءنا فلاناً معتمراً أي زائراً. ويقال عمرت ربي وحججته أي خدمته، فيجوز أن يكون العمر الموضع الذي يخدم فيه الرب، وقد يغلب الفرع على الأصل بالكلية. ويجوز أن يكون من العمر الذي هو الحياة كأنهم سموه بما يؤول إليه لأن النصراني يفني عمره فيه. فهذا هو الحق في اشتقاقه (انتهى).

فالعُمْر إذاً هو الدير، أما أكمن: فلم أجد لها ذكراً في معجم البلدان، مع أنه تحدث عن: عمر كسكر، وعمر الحبيس، وعمر نصر، وعمر واسط.

وأخرج الخليفة منها، وخطب للمستنصر الفاطمي وقتل رئيس الرؤساء شرقتلة، واستولى على بغداد سنة كاملة. ـ في تفاصيل سنعرض لبعضها بقدر ما له ارتباط بموضوعنا ـ.

ومما يدل على كفاءة البساسيري، ما يذكره ابن الأثير في إحداث سنة ٤٢٥[١] من أنه فيها استخلف البساسيري في حماية الجانب الغربي ببغداد لأن العيارين اشتد أمرهم وعظم فسادهم وعجز عنهم نواب السلطان فاستعملوا البساسيري لكفايته ونهضته.

فهو يبدو هنا إدارياً حازماً معداً لمواجهة صعاب الأمور.

وفي أخبار سنة ٤٣٢ نقرأ أن خلافاً قام بين جلال الدولة البويهي وبين قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل وأن جلال الدولة أرسل أبا الحارث البساسيري في مهمة عسكرية ناتجة من هذا الخلاف. وفي أحداث سنة ٤٤١ نقرأ أن جمعاً من بني عقيل ساروا إلى بلاد العجم من أعمال العراق وبادُوريا فنهبوهما وأخذوا من الأموال الكثير، وكانا في إقطاع البساسيري فسار من بغداد بعد عوده من فارس إليهم، فالتقوا هم وزعيم الدولة أبو كامل بن المقلد، واقتتلوا قتالاً شديداً أبلى الفريقان فيه بلاء حسناً، وصبراً جميلاً وقتل جماعة من الفريقين.

وابن الأثير راوي هذا الخبر لم يحدثنا من قبل عن سفر

---

(١) ج٩ ص ٤٣٧.

البساسيري إلى فارس، ولا هو حدثنا هنا عما آلت إليه تلك الحرب!.

وإن نكن عرفنا أنه قد أصبح للبساسيري إقطاعات عديدة واسعة وأن له مقاتلين ينفرون معه لقتال أعدائه قتالاً شديداً.

ثم لا نلبث أن نقرأ أن حرباً شديدة قامت بين نور الدولة دبيس بن مزيد وبين الأتراك الواسطيين، وأنه بعد وقوع الهزيمة على الواسطيين أرسلوا إلى بغداد يستنجدون جندها، وأنهم بذلوا للبساسيري أن يدفع عنهم نور الدولة، ويأخذ نهر الصلة ونهر الفصل لنفسه.

ثم نقرأ أن قرواشاً أساء السيرة في أهل الأنبار ومد يده إلى أموالهم، فسار جماعة من أهلها إلى البساسيري في بغداد وسألوه أن ينفذ معهم عسكراً يسلمون إليه الانبار فأجابهم إلى ذلك، وسير معهم جيشاً، فتسلموا الأنبار، ولحقهم البساسيري وأحسن إلى أهلها، وعدل فيهم، ولم يمكن أحداً من أصحابه أن يأخذ رطل خبز بدون ثمنه، وأقام فيها إلى أن أصلح حالها وقرر قواعدها وعاد إلى بغداد.

فها هنا يبدو البساسيري صاحب عسكر مستقل بأمره يُستنجد به فينجد. . .

ثم نراه بعد ذلك يسير من بغداد إلى طريق خراسان ويقصد ناحية الدزدار ويملكها ويغنم ما فيها، وكان سعدي بن أبي الشوك قد ملكها وقد عمل لها سوراً وحصنها وجعلها معقلاً يتحصن به

ويدخر بها كل ما يغنمه فأخذه البساسيري جميعه.

وفي سنة ٤٤٣ نرى البساسيري إلى جانب الملك البويهي الرحيم مع دبيس بن مزيد وغيره يشرفون على ما تحقق من نصر للملك الرحيم في التمرد الذي قام به جمع كثير من العرب والأكراد في خوزستان.

وفي أحداث سنة ٤٤٤ نرى أن الملك الرحيم يسلم البصرة إلى البساسيري، وفي السنة نفسها يزوج نور الدولة دبيس بن مزيد ابنه بهاء الدولة منصوراً بابنة أبي البركات بن البساسيري.

وفي سنة ٤٤٥ يصل الخبر إلى بغداد بأن جمعا من الأكراد وجمعاً من الأعراب قد أفسدوا في البلاد وقطعوا الطريق ونهبوا القرى، فيسير إليهم البساسيري ويتبعهم إلى البوازيج فيوقع بطوائف كثيرة منهم ويقتل فيهم ويغنم أموالهم وينهزم بعضهم فيعبرون الزاب عند البوازيج فلا يدركهم ولا يتمكن من العبور إليهم لزيادة الماء وبذلك نجوا وفي سنة ٤٤٦ يرد اسم البساسيري خلال ذكر فتنة في بغداد هكذا: «وركب جماعة من الأتراك إلى دار الروم فنهبوها وأحرقوا البيع والقلايات ونهبوا دار أبي الحسن بن عبيد وزير البساسيري.

إذن فقد صار للبساسيري وزير، ولكن ما هو المنصب الذي يشغله ليكون له وزير؟ إننا حتى الآن وفي جميع الأحداث التي تقدم ذكرها، لم نعثر فيما كتب عنه على اسم المنصب الذي يشغله

أو المناصب التي تدرج فيها إلى أن بلغ المنصب الذي يصح أن يكون له فيه وزير.

على أنه في كل ما مر ذكره من تصرفاته يبدو مستقلاً في هذه التصرفات لا يتلقى أوامره من أحد، مع أنه مقيم في عاصمة الحكم بغداد، وفيها الخليفة العباسي والملك البويهي!.

ويبدو استقلاله الطاغي فيما حدث هذه السنة نفسها من هجوم بني خفاجة على الجامعين[1] وأعمال نور الدولة دبيس ونهبهم وفتكهم في تلك النواحي، فأرسل نور الدولة إلى البساسيري يستنجده فسار إليه منجداً وعبر الفرات فانهزم الخفاجيون وأوقع البساسيري بهم ونهب أموالهم وشردهم كل مشرد، وعاد إلى بغداد ومعه منهم خمسة وعشرون رجلاً فقتل جماعة وصلب جماعة.

وهذا كله يدل على تفرد في السلطة لا يرجع فيه لا إلى الخليفة ولا إلى الملك ولا إلى الوزير. ولما حصر قريش بن بدران

---

(١) الجامعين: هكذا تلفظ بلفظ المثنى المجرور هي مدينة الحلة نفسها الواقعة بين بغداد والكوفة، وعرفت بحلة بني مزيد. وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي، وكانت منازل آبائه الدور من النيل، فلما قوي أمره وكثرت أمواله انتقل إلى الجامعيين موضع غربي الفرات وذلك في شهر المحرم سنة ٤٩٥ وكانت أجمة تأوي إليها السباع فنزل بها بأهله وعساكره وبنى بها المساكن والدور، وصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها مدة حياة سيف الدولة.

صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحها وخطب لطغرل بك فيها وفي سائر أعماله ونهب ما كان فيها للبساسيري وغيره، جمع البساسيري جموعاً كثيرة وقصد الأنبار وحربي فاستعادهما.

ليس في النصوص التي هي في أيدينا ما يدل على أن البساسيري كان يرجع إلى أحد في تنفيذ ما يريد تنفيذه، ولا أن أحداً ممن أنجدهم كان يطلب الاستنجاد من سلطة أعلى من البساسيري فتنتدب هي البساسيري لإنفاذ النجدة، فيما عدا ما رأيناه في أول عهده بالبروز من انتدابه لحماية الجانب الغربي ببغداد من تسلط الغيارين عليه.

ولا أنه كان يستأذن أحداً في استعمال القوة في حماية ما يعتقد أنه من حقه. ثم رأينا أنه كان له وزير.

هذا يدل على انحلال سلطة الملك الرحيم المفروض فيه أنه هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة، ويدل على عدم جدارته لتولي المنصب الذي وصل إليه، مما كان له الأثر الأكبر في تسهيل سيطرة السلاجقة على الخلافة، ودخول طغرل بغداد دون أن يلقى مقاومة بويهية كان سبب فقدانها، فقدان الكفاءة القيادية عند الملك الرحيم.

السلطة المطلقة التي صارت للبساسيري كان من الطبيعي أن لا تكون موضع رضاً لا من الخليفة ولا من وزيره الملقب (رئيس الرؤساء) لا سيما من الأخير، فكانا يكبتان غضبهما لعجزهما عن الوقوف في وجه تنامي نفوذ البساسيري.

وجد أن اثنين مخاصمين للبساسيري يسميهما ابن الأثير: أبا الغنائم، وأبا سعيد ابني المحلبان صاحبي قريش بن بدران وصلا سراً إلى بغداد، ما ساء البساسيري وقال: هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل أصحابي ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا في إهلاك الناس، وأراد القبض عليهم فحيل بينه وبين ذلك.

ونسب ذلك إلى رئيس الرؤساء. واجتازت به سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء فمنعها، وطالب بالضريبة التي عليها، وأسقط ما كان يدفع للخليفة شهرياً من دار الضرب، وكذلك ما كان يدفع لرئيس الرؤساء وبعض الحواشي، وأراد هدم دور بني المحلبان فمنع من ذلك. وقال: ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذي خرب البلاد وأطمع السلاجقة وكاتبهم.

ثم مضى إلى الأنبار، وأحرق ناحيتي (دُمّا) و(الفلوجة)، وكان أبو الغنائم بن المحلبان بالأنبار قد أتاها من بغداد. وجاء نور الدولة دبيس إلى البساسيري معاوناً له على حصر الأنبار.

ونصب البساسيري عليها المجانيق، ورماهم بالنفط، ودخلها قهراً، فأسر مئة نفس من بني خفاجة وأسر أبا الغنائم بن المحلبان بعد أن كان قد ألقى نفسه في الفرات فأخذ، ونهب الأنبار وأسر من أهلها خمس مئة رجل.

وعاد إلى بغداد، وأمامه أبو الغنائم على جمل، وعليه قميص أحمر، وعلى رأسه برنس، وفي رجليه قيد، وصلب جماعة من الأسرى.

وبالرغم من شدة هذا التحدي لرئيس الرؤساء وللخليفة نفسه، فقد قوبل بالصمت والهدوء، ما دل على عجزهما عن كبح البساسيري.

ولكن صدف بعد حين أن صديقاً نصرانياً للبساسيري كان ينقل في سفينة جرار خمر فاستُغل هذا الأمر وحُرضت العامة بزعم أن هذا الخمر مرسل إلى البساسيري فتجمهر خلق كثير.

ومما يدل على أن هناك تحريضاً من رئيس الرؤساء أنه كان بين المتجمهرين موظف كبير من موظفي الدولة يصفه ابن الأثير بأنه (حاجب باب المراتب)، وهجم الجميع على السفينة وكسروا جرار الخمر وأراقوها.

وبلغ ذلك البساسيري، وبلغه ما أشيع باطلاً بأن جرار الخمر مرسلة إليه فعظم الأمر عليه، ونسب ما جرى إلى رئيس الرؤساء.

فكان أن استصدر فتاوى من فقهاء الحنفية بأن الذي فُعل، من كسر الجرار، وإراقة الخمر تعد غير واجب، وهي ملك رجل نصراني لا يجوز.

وحرض رئيس الرؤساء الأتراك البغداديين على الطعن في البساسيري وذمه والتشنيع عليه، ونسب إليه كل ما ينالهم من أذى.

فلم يلبثوا أن جاءوا إلى الخليفة، يستأذنونه في التعدي على دور البساسيري، ونهبها فأذن لهم فساروا إليها ونهبوها وأحرقوها

ونكلوا بنسائه وأهله ونوابه، ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه في بغداد.

وراح رئيس الرؤساء يتناول في مجالسه البساسيري ذاماً له، ناسباً إليه التآمر مع الخلافة الفاطمية في مصر ومراسلة الخليفة المستنصر.

وفسدت الأمور بين الخليفة، والبساسيري إلى الحد الذي لا يمكن معه إصلاحها. وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده.

ويقرر ابن الأثير: أن هذه الحالة كانت من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرل بك العراق والقبض على الملك الرحيم[1].

ثم حدثت معركة سنجار، والاستيلاء على الموصل التي أشرنا إليها فيما تقدم، وبذلك جاهر البساسيري بالثورة ومارسها عملياً وأعلن الانتماء إلى الخلافة الفاطمية.

وفي سنة ٤٥٠ قام البساسيري بمحاولة ثانية للاستيلاء على الموصل، بالتعاون مع قريش بن بدران، فاستوليا على المدينة، ولم يستوليا على القلعة إلا بعد حصار أربعة أشهر.

وهنا كانت ثورة البساسيري قد أصبحت ثورة على الحكم

---

(١) ج٩، ص٦٠٨

السلجوقي الذي صار هو المسيطر على العراق، فلما بلغ طغرل بك ما جرى في الموصل سارع إليها فلم يجد أحداً لأن البساسيري وقريش كانا قد غادراها، فمضى وراءهما إلى نصيبين.

على أن طغرل بك واجه هنا انشقاقاً عائلياً هو انفصال أخيه إبراهيم ينال عنه وتوجهه إلى همذان.

وكان ابراهيم هذا قد انشق عن أخيه قبل اليوم، وكان أخوه طغرل يصفح عنه عندما يظفر به، ولكن بدا أن الانشقاق هذه المرة كان أبعد اتجاهاً، وأكثر خطراً من كل انشقاق سابق إذ قيل أنه كان نتيجة اتصال الفاطميين به، وتحالف بينه وبين البساسيري.

وسنعرض في مكان آخر لهذا الانشقاق في تفاصيل أوسع.

وكان البساسيري يواصل ثورته وتقدّم فاحتل بغداد ومعه قريش بن بدران، ويفهم من نص ابن الأثير: أن قوته لم تكن تتجاوز أربع مئة غلام على غاية الضر والفقر، وقوة قريش بن بدران تبلغ مئتي فارس. كذلك يفهم منه أنه كان يقابله العسكر والعوام، ومع ذلك فإنه بهذه القوة القليلة واجه العسكر والعوام.

والعوام الذين يذكرهم ابن الأثير هنا ربما كانوا بعض المرتزقة، أو بعض من ينعقون مع كل ناعق. والدليل على ذلك أن ابن الأثير نفسه يقول بعد بضعة سطور من قوله هذا، وهو يذكر أن هناك من كان لا يرى الاصطدام عسكرياً بالبساسيري بسبب ميل العامة إلى البساسيري ـ يقول: أما الشيعة فللمذهب، وأما السنة

فلما فعل بهم الأتراك (السلاجقة)[1].

هذا القول الذي سجله ابن الأثير في تاريخه يرينا حقيقة النقمة الشعبية على السلاجقة، فهو قبل أن يقول هذا القول، يذكر أن البساسيري أعلن الانضمام إلى الخلافة الفاطمية، وخطب في جامع المنصور للخليفة الفاطمي المستنصر، وأمر بالأذان بحي على خير العمل.

والخلافة الفاطمية خلافة شيعية، تعتمد أحد المذاهب الشيعية، والمستنصر خليفة شيعي يمثل ذاك المذهب. والأذان بحي على خير العمل كان يعتبر تحدّياً للسنيين الذين لا يأخذون به، كما كان استبداله في أذان الصبح بالصلاة خير من النوم يعتبر تحدياً للشيعة.

وفي تلك العصور كانت إذا نشبت الحرب بين حكم شيعي وحكم سني، فإن انتصر الأول كان أول ما يفعله هو الأذان بحي على خير العمل وإلغاء: الصلاة خير من النوم في أذان الصبح، وإذا انتصر الثاني كان يفعل العكس.

فنور الدين محمود، مثلاً، عندما افتتح مدينة حلب ـ وكانت شيعية ـ كان أول أمر يصدره هو إبطال حي على خير العمل من الأذان، والإعلان بالصلاة خير من النوم في أذان الصبح، وهدّد كل من لا ينفذ هذا الأمر بالعقوبة الشديدة.

---

(١) ج٩، ص ٦٤١.

وأرسل مراقبين إلى مآذن المدينة كلها يرصدون له ما يجري، فجاء الجواب بأن أوامره نفذت في جميع المآذن ما عدا واحدة منها، رفض مؤذنها في أذان الصبح أن يؤذن بالصلاة خير من النوم. فأمر بأن يرمى من أعلى المأذنة إلى الأرض، ففعل به ذلك ومات تلك الميتة المروعة! . .

وفي المقابل: عندما نجح إسماعيل الصفوي في إقامة الدولة الشيعية في إيران، كان إذا فتح مدينة، فأول شيء فعله: الأمر بالأذان: حي على خير العمل، وإلغاء: الصلاة خير من النوم من أذان الصبح.

وكان في ذهنه ما فعله نور الدين محمود في حلب، فأرسل مراقبين إلى جميع المآذن، فجاءه الخبر بأن مؤذناً واحداً أذّن صباحاً بالصلاة خير من النوم، فأمر بإلقائه من أعلى المئذنة إلى الأرض! . .

بهذه الفظائع الوحشية كان التعامل نصرة للمذاهب، وتأييداً ـ في زعمهم ـ للدين!!

أما السنيون في بغداد فلم يبالوا أن يؤذن في جامع المنصور بحي على خير العمل، وأن يُعلن انضمامهم إلى خلافة شيعية ما دام في ذلك تخلصهم من حكم السلاجقة.

إن في هذه الأحداث البغدادية من العبر ما علينا أن ننظر إليه بعمق وتفكر، وما يدل على أن العصبيات المذهبية التي طالما أدت

إلى الفتن والتقاتل والتذابح ليست من أصالة الشعوب، بل إن الذين يحركونها إما أن يكونوا عمي البصيرة أو من المستغلين المستفيدين.

فهذا الشعب البغدادي الذي طالما قرأنا في كتاب (الكامل) لابن الأثير نفسه ما كان يثور فيه من الفتن المذهبية، نراه هنا صفاً واحداً في مقاومة الظلم.

هذا الشعب وغيره من الشعوب ممن كانوا يهيجونه لمجرد كلمة تزاد في الأذان، أو تبدل بكلمة أخرى، أو ليغير ذلك من الأسباب، ها هو عندما يواجه الحقائق، يرى أن لا ضير على هذا الفريق أن لا يرى الفريق الآخر عين ما يراه هو في الشؤون المذهبية.

ولكن فقهاء السوء وحكام الجور هم الذين يؤججون العصبيات المذهبية والنعرات الدينية.

الأولون ليستغلّوا براءة الشعب لمنافعهم، والآخرون ليشغلوه عن التصدي لجورهم والتمرد على ظلمهم.

فهذا البساسيري لما عدل بين الناس، ولم يتعصب لمذهب، كان السنيون والشيعة في مناصرته على السواء، ومضى السنيون على أصالتهم الفطرية يؤيدونه على الظالمين وإن كانوا من اتباع مذاهبهم، ولم ينظروا إليه على أنه على غير مذهبهم.

وبالرغم من الرأي القائل بتفادي الصدام العسكري

بالبساسيري لأن جماهير الشعب سنية وشيعية تؤيده، وأن لا قوى سلجوقية في بغداد تقاتله لأن طغرل بك كان بجنوده في الري منشغلاً بتمرد أخيه إبراهيم ينّال عليه.

بالرغم من ذلك فإن رئيس الرؤساء استجاب للقائلين بالحرب، وكان بذلك يستجيب لأحقاده على البساسيري. فعندما جاءه القاضي الهمذاني واستأذنه في الحرب، وضمن له قتل البساسيري أذن له، فخرج ومعه الخدم وجماعات مختلفة، وأبعدوا والبساسيري يستجرهم، فلما أبعدوا حمل عليهم فانهزموا، وقتل منهم جماعة، ومات في الزحمة جماعة من الأعيان، ونهب باب الأزج، وكان رئيس الرؤساء واقفاً دون الباب فدخل الدار، وهرب كل من في الحريم[1].

وبعد هذا النصر رجع البساسيري إلى معسكره مترقباً ما يحدث، وإذا بالخليفة يأمر بدوام القتال على سور الحريم، ولكنهم فوجئوا بالزعيق ونهب الحريم، وهنا رأى الخليفة أن يلجأ إلى هيبة الخلافة ومظاهر قوتها، فركب جواده لابساً السواد شعار الخلافة، وعلى كتفه البردة شاهراً سيفه، وعلى رأسه اللواء، وحوله زمرة من العباسيين، والخدم بالسيوف المسلولة، فإذا به يعلم أن النهب قد وصل إلى أبواب داره، وأن كل هذه التهويلات لم تجد شيئاً، فتراجع إلى الوراء، ومضى نحو أحد كبار رجاله

---

(١) الكامل: ص ٦٤٢.

صاحب لقب (عميد العراق) فوجده قد استأمن إلى قريش، فعاد وصعد المنظرة يائساً.

وبرز هنا وزير الخليفة رئيس الرؤساء الذي كان بحقده وقصر نظره سبب هذه المحنة ـ برز محاولاً حماية الخليفة الذي ورطه بهذا كله باستنهاض مروءة قريش، فصاح: يا علم الدين، يعني قريشاً: أمير المؤمنين يستدنيك. فدنا منه قريش، فقال رئيس الرؤساء: قد أنالك الله منزلة لم يُنلها أمثالك. وأمير المؤمنين يستذم منك على نفسه وأهله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله(ص) وذمام العربية.

ومعنى هذا: أن الخليفة يضع نفسه وأهله وأصحابه في حماية قريش، مستسلماً لقضاء الله!..

وكان قريش عند أمل الخليفة، فأجاب: قد أذم الله تعالى له، قال: ولي؟ ولمن معه؟ قال: نعم. وتوكيداً لذلك خلع قريش قلنسوته وأعطاها الخليفة، وأعطى مخصرته رئيس الرؤساء ذماماً.

فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء وصارا معه.

وبلغ خبر ما جرى البساسيري، فأرسل إلى قريش: أتخالف ما استقر بيننا، وتنقض ما تعاهدنا عليه؟!.

وكانا قد تعاهدا على المشاركة في الذي يحصل لهما وأن لا يستبد أحدهما دون الآخر بشيء.

وحلاً للإشكال، وحذراً من وقوع الخلاف بينهما: اتفقا

على أن يسلم قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيري لأنه عدوه وأن يحتفظ بالخليفة.

وهكذا انتهى الأمر به إلى أن يحفظ الذمام نصف حفظ فوفى للخليفة ولم يف لرئيس الرؤساء...

ومضي برئيس الرؤساء ـ يا لضخامة اللقب!! ـ مضي به إلى البساسيري، فلما وقعت عينه عليه قال له: مرحباً بمهلك الدول ومخرب البلاد..

فتذلل رئيس الرؤساء قائلاً: العفو عند المقدرة.

فقال البساسيري: لقد قدرت فما عفوتَ وأنت صاحب طيلسان، وركبت الأفعال الشنيعة مع حُرَمي وأطفالي، فكيف أعفو أنا، وأنا صاحب سيف.

يشير بذلك إلى أن رئيس الرؤساء لم يكن صاحب سلطة فعلية في ظل أصحاب السلطة الحقيقيين، ومع ذلك فقد فعل ما فعل.

وأما الخليفة، فإن قريشاً نقله راكباً إلى معسكره، محتفظاً له بكل مظاهر الكرامة: عليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء. وأنزله في خيمة بالمعسكر، وأخذ زوجته، أرسلان خاتون، وهي ابنة أخي السلطان طغرل بك، فسلمها إلى أحد أخصائه ليقوم بخدمتها.

أما دار الخلافة فقد ظل النهب فيها أياماً.

وقد اختار قريش أحد بني عمه ممن فيهم مروءة ودين، فسلمه الخليفة ليوصله إلى مأمن خارج بغداد، فحمله في هودج وسار به إلى بلدة (حديثة عانة) وتركه بها.

جرى هذا كله والسلطان طغرل بك غائب بجنوده عن بغداد، فأسرع أصحاب الخليفة وخدمه إليه مستنفرين[1].

سيطر البساسيري على بغداد، وجاء عيد الأضحى، فسار إلى المصلى تخفق عليه الألوية الفاطميّة، معلناً بذلك التحاق بغداد بخلافة الفاطميين.

وأحسن السيرة في الناس، وبشهادة ابن الأثير: لم يتعصب لمذهب، وأجرى الجرايات على المتفقهة.

وكانت والدة الخليفة ـ وقد بلغت التسعين ـ لا تزال في بغداد، فأفرد لها داراً وأعطاها جاريتين من جواريها لخدمتها، وعين راتباً تعطاه لنفقاتها.

أما العذو اللدود رئيس الرؤساء، فقد كان رهين السجن فلما تفرغ له أخرجه من السجن مقيداً وعليه جبة صوف وطُرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة جلود بعير، وهو يقرأ: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ الآية.

ولما مروا به في الكرخ ـ وهو حي الشيعة ـ وكان شديد

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص ٦٤١ ـ ٦٤٣.

العصبية عليهم مؤذياً لهم، بصقوا في وجهه.

وبعد هذا التشهير به على ظهر جمل في شوارع بغداد، أعيد إلى معسكر البساسيري، وقد نصبت له خشبة وأنزل عن الجمل وألبس جلد ثور، وجعلت قرونه على رأسه، وجعل في فكيه كلاّبان من حديد، وصلب..[1].

ومد البساسيري سلطته إلى واسط والبصرة. وأرسل إلى المستنصر الفاطمي في القاهرة يعرفه ما فعل، على أمل أن يمده المستنصر بما يقوى به للسيطرة على العراق كله، والحؤول دون سيطرة السلاجقة.

وقد كان يمكن أن يتم ذلك فتسود الخلافة الفاطمية العراق ويتغير مجرى التاريخ.. ولكن الأقدار كانت بالمرصاد، فقد كان وزير المستنصر أبا الفرج ابن أخي أبي القاسم المغربي، وهو ممن هرب من البساسيري، وفي نفسه عليه ما فيها، فلم يشأ له أن يفوز بهذه الأمجاد، وفضّل أهدافه الشخصية على أهداف الدولة التي جعلته وزيرها، فوقع في البساسيري وخفف من شأنه وهوّن فعله وحذّر من عاقبته.

فأهمل الجواب على رسائله مدة، ولما أجيب كانت الأجوبة بغير ما أمّل ورجا، وهكذا تُرك يواجه مصيره بنفسه.

---

(١) مهما كان ذنبه عند البساسيري فإن من الوحشية استعمال هذه الأساليب في الانتقام.

كان طغرل بك خلال هذه الأحداث يعالج تمرد أخيه إبراهيم ينّال، وأخيراً وقع الصدام بينهما بالقرب من الري، فانتهت المعركة بانهزام ابراهيم وأسره، وكان من قبل قد ثار على طغرل بك أكثر من مرة وظفر به وعفا عنه. أما هذه المرة فقد أمر بخنقه بوتر قوس. وكان ذلك في تاسع جمادي الآخرة سنة ٤٥١، وقال: إنَّ من عوامل قتله أن تمرده كان السبب في عدم استطاعته حماية الخليفة.

وبانتهاء طغرل بك من أمر إبراهيم تفرغ لأمر البساسيري، ويبدو أنه وازن بين قواه وقوى البساسيري فرأى أن يحل الأمر سلماً مع البساسيري، فأرسل إليه والي قريش أنه يكتفي بأن تكون الخطبة له في بغداد وأن تكون السكة باسمه وأن يعاد الخليفة إلى بغداد على أن لا يعود هو إلى العراق.

فرفض البساسيري هذه المقترحات، فعند ذلك تقدم طغرل بك بقواته إلى العراق، وبوصول طلائعه إلى قصر شيرين غير البعيدة عن حدود العراق، كان البساسيري يبعد حرمه وأولاده عن الخطر، ثم يتبعهم خارجاً من بغداد، بعد سيطرته عليها سنة، إذ كان دخوله بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ وخروجه منها في ذي القعدة سنة ٤٥١.

وبرحيل البساسيري دبت الفوضى في بغداد، وحرك المحركون النعرات المذهبية فثار أهل باب البصرة إلى الكرخ

فنهبوه وأحرقوا درب الزعفران، وهو ـ على ما يقول ابن الأثير ـ من أحسن الدروب واعمرها.

ووصل طغرل بك إلى بغداد، وكان قبل وصوله قد أرسل من الطريق إلى قريش بن بدر أن يشكره على ما فعله للخليفة ولابنة أخيه زوجة الخليفة.

وكان الخليفة قد اتجه ـ هو الآخر إلى بغداد ـ فأرسل طغرل بك وزيره الكندري، وبعض الأمراء، والحجاب ومعهم الخيام العظيمة والسرادقات والخيل فلاقوا الخليفة وخدموه.

وبوصول الخليفة إلى النهروان خرج طغرل بك لاستقباله، فقبل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة واعتذر عن تأخره بانشغاله بإخماد تمرد إبراهيم.

وسبق طغرل بك الخليفة في الوصول إلى بغداد، ثم وصل الخليفة بعده.

والذي يثير العجب هذا الانهيار السريع لموقف البساسيري، لا سيما وأنه قد رفض مقترحات طغرل بك وكلها في مصلحته وتأمين سلطته، فعلى أي شيء كان يستند في هذا الرفض؟

هل كان لا يزال يأمل بتأييد القاهرة؟

الذي يلوح أنه كان في انسحابه من بغداد يريد التوجه إلى الشام، فطغرل بك يقول للخليفة في أول لقاء له معه في النهروان: أنا أمضي خلف هذا الكلب (يعني البساسيري) وأقصد إلى الشام،

وافعل في حق صاحب مصر ما أجازي به فعله.

وبعد استقرار طغرل بك في بغداد أرسل أحد قواده في ألفي فارس نحو الكوفة لمطاردة البساسيري، وكان قد قال لطغرل بك: أرسل معي هذه العدة حتى أمضي إلى الكوفة وامنع البساسيري من الإصعاد إلى الشام.

وهذا كله يدل إن كان في نية البساسيري التوجه نحو الشام، وإن هذه النية كانت معروفة عند طغرل بك ورجاله. وربما كان قصده من الوصول إلى الشام أن يكون أقرب إلى مصر حيث يسهل عليه الاتصال بمن فيها، وإقناعهم بتجهير حملة يستطيع بها السيطرة على العراق.

ومهما يكن من أمر، فقد تقدم من أرسلهم طغرل بك لمطاردة البساسيري، وسار هو في أثرهم، ووقع الصدام فسقط البساسيري جريحاً، فأخذه عميد الملك الكندري وقتله، وحمل رأسه إلى طغرل بك، فأمر بنقله إلى دار الخلافة وطيف به وصلب.

ويقول ابن الأثير: وأُخذت أموال أهل بغداد وأموال البساسيري مع نسائه وأولاده، وهلك من الناس الخلق العظيم[١].

أوجز ابن الأثير الحال في بغداد أثر سيطرة طغرل بك عليها

---

(١) ج٩ ص٦٤٩.

من جديد: أخذت أموال أهل بغداد، وهلك من الناس الخلق العظيم.

وكان قد قال قبل ذلك: ثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه وأحرقوا درب الزعفران.

كانت الخطة المرسومة هكذا: إن التآلف الذي بدا بين السنيين والشيعة يجب إبطاله، ويجب إعادة الفتن المذهبية من جديد، وتأريث الأحقاد بينهما، لذلك جرى تحريض أهل باب البصرة السنيين على نهب الكرخ الشيعي، وجرى إحراق درب الزعفران الذي كان من أحسن الدروب وأعمرها.

ونحن إذا كنا نعرف من مطالعاتنا لابن الأثير إن باب البصرة شيعي والكرخ سني، فإننا لا نعرف مذهب دب الزعفران. إننا نرجح أنه سني، وذلك استنتاجاً منا أن الذين أغروا السنيين بنهب الكرخ أغروا الشيعة بإحراق درب الزعفران. وبعد أن تم لهم تأجيج النفوس بالأحقاد المذهبية عطفوا على الفريقين معاً فأعملوا فيهما النهب والقتل: «أخذت أموال أهل بغداد وهلك من الناس الخلق العظيم» هكذا قال ابن الأثير، وحسبه هذا القول لنرى الصورة الرهيبة لبغداد يومذاك.

وبعد فراغ طغرل بك من أمر بغداد انحدر إلى واسط، وعبر إلى الجانب الشرقي من دجلة. يقول ابن الأثير: وسار إلى قرب

البطائح فنهب العسكر ما بين واسط والبصرة والأهواز[1]. .

طغرل بك يريد مصاهرة الخليفة

طمع السلطان طغرل بك بمصاهرة الخليفة القائم بأمر الله على ابنته، ففي سنة ٤٥٣ أرسل أبا سعيد قاضي الري خاطباً ابنة الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك، وأرسل في الجواب أبا محمد التميمي وأمره أن يبلغ طغرل بك رفض طلبه، فإن أصر طغرل بك على الطلب فإن عليه أن يبعث ثلاث مئة ألف دينار ويسلّم واسطاً وأعمالها.

فاتصل التميمي أول ما اتصل بالوزير عميد الملك وأبلغه رسالة الخليفة، فرد الوزير: بأنه لا يصح أن يُرد السلطان ولا يستجاب طلبه بعد أن سأل وتضرع، ولا يجوز مقابلته بطلب الأموال والبلاد، فهو بفعل إضعاف ما طلب منه.

فقال التميمي: كما ترى، وما تقره يكون فيه الصواب، فاعتقد الوزير أن الموافقة قد حصلت. فأسرع وأخبر السلطان بذلك فسر كل السرور.

وقد كان مثل هذه الموافقة وقبول مصاهرة الخليفة لسلجوقي أمراً مستهجناً فمهما سما هؤلاء وأمثالهم فإنهم لا يعتبرون أكفاء

---

(١) ج١٠ ص٨.

لمصاهرة الأسرة العباسية لا سيما الخليفة، ويعتبر طلبهم إهانة. . .

لذلك أسرع السلطان وجمع الناس وعرّفهم أنه قد حصل على ما لم يسبق أن حصل عليه غيره من الملوك من مصاهرة الجهة النبوية. وطلب إلى الوزير عميد الملك أن يذهب ومعه أرسلان خاتون زوجة الخليفة وأن يصحبها مئة ألف دينار وما شاكلها من الجواهر وغيرها، وأرفقه بعدد من وجوه الأمراء وأعيان الري.

ووصل الوزير إلى القائم بأمر الله وأوصل زوجة الخليفة إلى دارها، ثم ذكر للخليفة المهمة القادم بها وهي إتمام عقد الزواج. فاستنكر الخليفة ذلك وامتنع عن الإجابة إليها، وقال ما معناه: أنه يصر على الرفض فإن روعي رفضه وإلا فإنه يترك بغداد ويرحل إلى مكان آخر.

فقال عميد الملك ما مؤداه أن الامتناع لم يحصل من أول الأمر، وإذا حصل الآن فهو سعي على دمه، ثم ترك بغداد ونصب خيامه في النهروان.

وهكذا عاد التأزم من جديد بين السلطان والخليفة، فتوسط في الأمر قاضي القضاة وغيره وحذروا الخليفة مما يمكن أن يؤدي إليه رجوع الوزير عميد الملك إلى السلطان بهذه النتيجة.

فكتب الخليفة إلى عميد الملك: نحن نرد الأمر إلى رأيك ونعول على أمانتك ودينك. ويبدو أنه فهم من هذا الكلام موافقة الخليفة فجاء يوماً إلى الخليفة ومعه جماعة من الأمراء والحجاب

والقضاة والشهود وقال للخليفة: اسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرّف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة.

ولكن رد الخليفة كان حاسماً فقال: قد سُطّر في المعنى ما فيه الكفاية. فانصرف عميد الملك مغضباً وترك بغداد. ولما بلغ السلطان ما جرى كتب إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن يوسف قائلاً: هذا جزائي من الخليفة الذي قتلت أخي في خدمته وأنفقت أموالي في نصرته وأهلكت خواصي في محبته... وأطال العتاب ـ على حد تعبير ابن الأثير[1] ـ وكمقابلة بالمثل فقد طلب السلطان طغرل بك ابنة أخيه زوجة الخليفة أن تعاد إليه.

ولما بلغ الأمر إلى هذا الحد وخيف حصول مضاعفات تؤدي إلى التقاطع التام، ورأى الخليفة شدة الأمر، اضطر إلى الاستلام للواقع وأذن في إجراء عقد الزواج، فجرى العقد في شعبان سنة ٤٥٠ بظاهر تبريز.

وقد كان فيما جرى وهن معنوي خطير للخلافة العباسية، إذ مهما علا شأن أمثال هؤلاء فإنه لا يمكن أن يكون كفؤاً للزواج من سليلات البيت العباسي الهاشمي.

ويقول ابن الأثير مشيراً إلى ذلك: «وهذا لم يُجر للخلفاء مثله فإن بني بويه مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم

---

(١) ج١٠ ص٢٢.

يطمعوا في مثل هذا ولا ساموهم فعله»[1].

وأرسل السلطان أموالاً كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولي العهد ولابنة الخليفة ولأمها ولآخرين. وكان لزوجة السلطان المتوفاة إقطاعات كثيرة في العراق منها (يعقوبا) وغيرها، فجعل ذلك كله لزوجته الجديدة ابنة الخليفة.

وفي شهر المحرم من سنة ٤٥٥ جاء السلطان إلى بغداد، وأتى الوزير عميد الملك يطالب الخليفة بانتقال زوجة السلطان إليه، فقوبل طلبه بالرفض وقيل له: أن المقصود بهذه الوصلة الشرف لا الاجتماع! . كما قيل له أن خطك موجود في الشرط.

وقد كان هذا الزواج من أعجب الزواجات في الدنيا! . . ويبدو جلياً إن ما ذكره الخليفة كان قد سجل في الورق ووقعه فيمن وقعه شاهداً الوزير عميد الملك نفسه.

ثم قال الخليفة: إنه إن كانت مشاهدة فتكون في دار الخلافة.

ومعنى ذلك: أن أقصى ما يوافق عليه الخليفة هو أن يتقابل العروسان مجرد مقابلة وأن تكون هذه المقابلة في دار الخلافة. .

فقال السلطان: نفعل هذا.

ولكن يفهم من النص الذي ذكره ابن الأثير[2] أن السلطان

---

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص ٢٢.

(٢) م.ن، ج١٠، ص ٢٢.

رأى، تكون المقابلة في مكان مخصص لها يليق بها، فأردف كلامه المتقدم بقوله: ولكن نفرد له من الدور والمساكن ما يكفيه، ومعه خواصه وحجابه ومماليكه فإنه لا يمكنه مفارقتهم.

وعلى ذلك نقلت العروس إلى دار المملكة.

ومضت مشاهد الرواية على هذا الشكل:

جلست العروس على سرير ملبّس بالذهب، ودخل السلطان إليها وقبّل الأرض وخدمها. ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له.

وحمل معه لها شيئاً كثيراً من الجواهر وغيرها.

واستمر الحال على هذا المنوال: يحضر كل يوم يخدم وينصرف.

ومع ذلك فقد ظهر عليه سرور عظيم[1] وخلع على الوزير عميد الملك لأن كل الذي جرى إنما جرى على يديه وبتوسطه. وأقام الموائد عدة أيام...

يقول ابن الأثير: إن السلطان ترك بغداد في شهر ربيع الأول ذاهباً إلى الري. وإذا كان قد جرى ما ذكرناه في المحرم فمعنى ذلك أن الأمر استمر على الصورة التي ذكرناها شهرين!..

إذ لم يذكر ابن الأثير ما يدل على أن شيئاً قد تبدل خلال الشهرين.

---

(١) م.ن.

لم يترك السلطان بغداد وحده، بل اصطحب معه ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة لأنها شكت اطّراح الخليفة لها فأخذها معه.

الخليفة الذي رفض إلا أن يكون زواج ابنته من السلطان السلجوقي زواجاً شكلياً، كل ما ينال السلطان منه مقابلة زوجته من وراء خمارها المسدول على وجهها. وإن في هذا من الشرف للسلطان ما يغنيه عن كل شيء.

الخليفة الذي رفض إلا أن يكون الأمر كذلك، رأى في مقابل هذا أن يطّرح زوجته ابنة أخي السلطان، فلاذت بعمها فأخذها معه.

وقد كان لنا أن ننتظر اكتمال هذه الرواية العجيبة فصولاً، لولا أن الموت أنهاها بسرعة إذ مرض السلطان طغرل بك في سفره هذا ومات في رمضان من السنة نفسها...

ويذكر ابن الأثير أن عمره كان حين مات سبعين سنة تقريباً، وإنه كان عقيماً لم يلد ولداً.

إذاً فقد خطب إبنة السلطان وعقد عليها وهو في السبعين من عمره. فلا بدع أن يقنع من عروسه بالنظر إليها من خلف الخمار... وأن يكون هدفه من هذا الزواج امتهان شموخ بيت الخلافة، والإدلال على منافسيه، بأنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد.

وإذا كنا قد حرصنا على ذكر هذا العرس ـ العباسي السلجوقي ـ ببعض تفاصيله، فلأن فيه نماذج من علاقات السلاطين السلاجقة بالخلفاء العباسيين.

ونلاحظ هنا أن ما ربط سلطنة طغرل بك بخلافة القائم بأمر الله كان سبع سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.

يرثي ابن الأثير السلطان طغرل بك قائلاً: كان عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً، وأكثرهم كتماناً لسره، وكان يحافظ على الصلوات، ويصوم الاثنين والخميس، وكان لباسه الثياب البيض، وكان ظلوماً غشوماً، قاسياً، وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم، وأيديهم مطلقة في ذلك نهاراً وليلاً. وكان كريماً. . (انتهى).

وحين نعود إلى ما رثى به ابن الأثير الملوك البويهيين ـ وهو ما مرّ بعضه ـ ونقارنه برثائه لهذا الملك السلجوقي ندرك البون الشاسع بين الحكام البويهيين والحكام السلاجقة، فابن الأثير لم يقل عن أحد من البويهيين إنه كان ظلوماً، غشوماً، قاسياً، ولا قال: كان عسكره يغصبون الناس أموالهم وأيديهم مطلقة نهار وليلاً.

بل قال عن معز الدولة مثل هذا القول ـ وهو يتحدث عن انتصاره ـ: ونادى في الناس بالأمان وبث العدل وأقام لهم شحنة يمنع الظلم.

ويقول عنه: كان حليماً، كريماً، عاقلاً.

ويقول عن ركن الدولة: كان حليماً، كريماً، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه، وجنده، رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان متحرجاً من الظلم مانعاً لأصحابه منه عفيفاً عن الدماء، يتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات.

إلى غير ذلك من الأقوال التي قالها عن غير هذين الحاكمين والتي مر ذكر بعضها.

بعد طغرل بك

أسرع الوزير عميد الملك الكُندري بعد موت طغرل بك إلى إعلان حلول سليمان بن داود جفري بك، أخي طغرل بك، مكان طغرل بك في السلطنة، لأن طغرل بك، الذي لم يكن له ولد، قد عهد له بالملك بعده.

على أن الأمر لم يمض بسلام فإن (باغي سيان) و(أردم) لم يقبلا بذلك وأسرعا إلى قزوين وخطبا فيها لعصر الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جفري بك.

وكان هذا يتولى في عهد طغرل بك خراسان ومعه وزيره نظام الملك، ويبدو أن ميل الناس كان إليه، فاستسلم عميد الملك الكندري لهذا الواقع فأمر بالخطبة في الري للسلطان ألب أرسلان، وبعده لأخيه سليمان.

على أن ذلك لم يُنْجه من انتقام ألب أرسلان، فإن عميد

الملك زار نظام الملك وزير ألب أرسلان ودفع له مالاً، واعتذر وغادر منصرفاً، فانصرف بانصرافه أكثر الناس، فراب ذلك ألب أرسلان مع ما كان من إعلان عميد الملك تسلطن سليمان فأمر بالقبض عليه واعتقله في مرو الروذ سنة، ثم أرسل إليه من قتله.

ويبدو أنه كان يتهم نظام الملك بالسعي به عند ألب أرسلان، إذ أنه لما قُرِّب للقتل قال للجلاد: قل لنظام الملك: بئس ما عودت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر قليباً (بئراً) وقع فيه.

والوزير عميد الملك هذا كان على طريقة سادته السلاجقة من التعصب المذهبي الذميم.

وهو لم يكتف بالتعصب على الشيعة الذين سماهم الروافض، بأن طلب من السلطان أن يَلعنوا على منابر خراسان فلبي طلبه، كما كان شديد التعصب على الشافعية وإمامهم الشافعي.

قوبل عهد ألب أرسلان بثورات عليه استطاع إخمادها واحدة بعد الأخرى، فكان أول الثائرين عليه أمير ختلان، ثم أمير الصاغانيان.

وكان عمه (بيغو بن ميكائيل) في هرات فثار طالباً الأمر لنفسه.

أما الثائران الأولان فقد قتل الأول منهما في المعركة، وأما الثاني فقد أسر وقتل. وأما عمه فقد استسلم بعد الحصار والتضييق

فأبقى عليه وأكرمه وأحسن صحبته.

وكان مما فعله أن أعاد ابنة الخليفة التي عقد زواجها طغرل بك ـ أعادها إلى بغداد، وقال إنه إنما قتل عميد الملك لأنه نقلها من بغداد إلى الري بغير رضاء الخليفة.

كما أرسل إلى الخليفة طالباً إقامة الخطبة له في بغداد، فجلس الخليفة جلوساً عاماً وأعلن أمام رسل ألب أرسلان تقليد ألب أرسلان للسلطنة، وسُلّمت الخلع بمشهد من الناس. كما أن الخليفة أرسل إليه بطلب البيعة.

وعادت رسل ألب أرسلان إليه يصحبها رسول الخليفة، وهو في نقجوان بأذربايجان، فلبس الخلع وبايع للخليفة.

ثم قامت عليه ثورة سلجوقية أخرى قادها قُتلمش[1] فقد بلغ ألب أرسلان خبر الثورة وهو في نيسابور، وأن قتلمش قصد الري ليستولي عليها، فسار إليه ألب أرسلان والتقيا في معركة هزمت فيها جموع قتلمش، ووجد قتلمش ميتاً ملقى على الأرض لا يُدرى كيف كان موته، قيل إنه مات من الخوف! . . .

---

(١) هو ابن عم طغرل بك جد الملوك السلاجقة أولاد قلج أرسلان أصحاب قونية وقيصرية وأقصرا وملطية.

ونقول هنا رداً على قول الدكتور عمر تدمري المتقدم: «وكان الخلاف المذهبي بين العبيديين (الفاطميين) الإسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة الأتراك والعباسيين السنة في العراق هو أشبه بالخلاف المذهبي بين الكنيستين اليونانية البيزنطية (الشرقية)، واللاتينية الرومانية (الغربية)، بل هو خلاف أشد وأدهى لطالما أدى إلى القتال إذ كانت بلاد الشام مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين، مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم».

نقول رداً على ذلك: إن هذا الكلام هراء في هراء، فعندما كان الفاطميون الشيعة الإسماعيليون يسيطرون على مصر، كان البويهيون الشيعة يسيطرون على العراق، ولم يكن هناك سلاجقة. وعندما زال حكم البويهيين عن العراق، وسيطر عليه السلاجقة كان حكم الفاطميين قد تضعضع في مصر، أواخر عهد المستنصر، ثم تلاشى هذا الحكم نهائياً في حياة المستنصر، باستيلاء الجماليين على الخلافة الفاطمية وإنشائهم الدولة الجمالية وحجرهم على الخلفاء الفاطميين، ومنعهم من التصرف في شؤون الحكم، وتحكمهم في تعيين الخلفاء وأولياء عهودهم الذين أصبحوا أسرى في أيديهم.

وفي هذا الوقت ـ وقت احتلال السلاجقة للعراق ـ كان السلاجقة هم الذين أثاروا الخلاف لا بينهم وبين الفاطميين؛ لأنه

لم يكن هناك فاطميون، بل بينهم وبين شيعة العراق بأن تدخلوا في شؤونهم المذهبية، ثم أحرقوا مكتبتهم الكبرى في بغداد، وهاجموا بيت عالمهم الكبير أبي جعفر الطوسي، وأحرقوا كرسيه الذي كان يجلس عليه للتدريس، مما اضطره للهجرة من بغداد وإغلاق مدرسته فيها. . . إلى غير ذلك.

على أن طغرل بك بعد أن فعل ما فعل في العراق، كان هو البادىء بالتحرش بالخليفة الفاطمي المستنصر في مصر.

فأنه وهو في عنفوان طغيانه في بغداد، كاتب المستنصر طالباً إليه الدخول في طاعته[1].

إن الدكتور عمر تدمري من أجل أن يسيء إلى الفاطميين ظلماً وعدواناً حشرهم مع السلاجقة عملاً بقول من قال: اقتلوني ومالكاً.

ورأى أنه لا بأس بأن يذكر السلاجقة بالشر ما دام هذا الذكر يوصل إلى ذكر الفاطميين بالشر.

قلنا إن طغرل بك هو الذي بدأ بالتحرش بالفاطميين الذين كانوا في أيامهم الأخيرة، بأن كاتب المستنصر في القاهرة طالباً إليه الدخول في طاعته.

ونريد أن نزيد الأمر إيضاحاً وتفصيلاً فنقول:

---

(١) ابن الأثير، ج٩، ص ٦١٣.

إن الدور الفاطمي كان قد انتهى قبل الزحف الصليبي بما يقارب ربع القرن، وأنه لم تكن هناك خلافة فاطمية حاكمة عند ابتداء الغزو الصليبي، وإن سلطنة هذه الخلافة كانت قد انتهت بفعل التسلط الجمالي، وقيام الدولة الجمالية، وأصبح الخلفاء سجناء قصورهم، لا يملكون من الأمر شيئاً، كما سنفصله في الآتي من القول.

ونحن نريد هنا أن نوضح حقيقة أخرى، وهي أنه لم يقم صراع بين الفاطميين والسلاجقة، لسبب واحد؛ لأنه لم يكن هناك حكم فاطمي يصارع السلاجقة ويزاحمهم على امتلاك البلاد، لأن الحكم الفاطمي عند بدء الهجمات السلجوقية على بلاد الشام، كان قد بدأ بالانهيار، ثم انهار فعلاً بالتسلط الجمالي.

وإنّ الموقف الفاطمي الوحيد في مواجهة السلاجقة كان في أواخر عهد المستنصر، عندما بدا تضعضع حكم المستنصر واضحاً في سنة ٤٤٦ هـ بسيطرة المجاعة على البلاد ومحاولة المستنصر استيراد القمح من بلاد البيزنطيين، واشتراط الأمبراطورة البيزنطية (تيودورا) عليه أن يمدها بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أي معتد، وكان المفهوم أن هذا المعتدي المفترض وجوده هو السلاجقة، فبالرغم من حراجة موقف المستنصر في بلاده وما تهدده به المجاعة فقد رفض هذا الشرط لأنه يأبى أن يعين البيزنطيين على المسلمين..

ولما اشتد الأمر عليه حاول أن يحقق طلبه القمح بقوة السلاح ففشل.

والسلاجقة الذين رفض الخليفة الفاطمي المستنصر أن يعد الأمبراطورة البيزنطية بمعاونتها عليهم، لم يأبوا أن يتحالفوا مع الأمبراطورة عليه وأن يستغلوا الموقف فيتقربوا منها!..

بعد صراع طويل بين الفاطميين والبيزنطيين عقدت هدنة بين المستنصر والأمبراطور ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩ هـ (١٠٢٧ م) فسمح المستنصر للأمبراطور بإتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الأمبراطور سبيل الأسرى وأرسل المعماريين إلى بيت المقدس وأنفق كثيراً من الأموال على تجديد الكنيسة.

ولما ولي قسطنطين التاسع الحكم حافظ على استمرار العلاقات الودية مع المستنصر وبعث إليه سنة ٤٣٧ هـ هدية عظيمة «اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية».

استغل المستنصر فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية في دولته، فأرسل إلى الأمبراطور قسطنطين التاسع على أثر المجاعة التي حلت بمصر سنة ٤٤٦ هـ يطلب منه أن يمده بأربع مئة ألف أردب من القمح فأبدى الأمبراطور استعداده لمعونة مصر.

ولكنه لم يلبث أن توفي وخلفته الأمبراطورة (تيودورا) فاشترطت لتقديم هذه المساعدة أن يمدها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها معتد. وكان المقصود بهذا المعتدي (السلاجقة). فرفض المستنصر الموافقة على هذا الشرط. فأجابت تيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر.

أثارت سياسة هذه الأمبراطورة، غضب الخليفة المستنصر وعول على محاربتها، فجهز جيشاً بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم، وما لبث هذا القائد، أن نزل بالقرب من أفامية، ثم تجول في أعمال أنطاكية. فأرسلت الأمبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة، وأسر هو وكثير من جنده سنة ٤٤٧ هـ، وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضي عبدالله القضاعي بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين، فلم تحفل الأمبراطورة بوجوده.

فاستغل طغرل بك ذلك وعمل على التقرب من البيزنطيين والتحالف معهم، فأرسل من العراق رسولاً إلى القسطنطينية حاملاً رسالة ودية منه إلى الأمبراطورة تيودورا، ملتمساً فيها أن يصلي رسوله في جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك، فدخله وصلى فيه صلاة الجمعة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي.[(١)]

ولما وقف المستنصر على سياسة الأمبراطورة تيودورا

---

(١) المقريزي، ج١، ص ٣٣٥.

العدائية إزاءه والإساءة التي لحقت بسفيره بعث بطلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها فأرسلت إليه.

وازداد بذلك التوتر في العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين. واستمر العداء مستمراً بين الدولتين حتى حل الجماليون محل الفاطميين في حكم مصر فظل على استمراره إلى أن وجه الصليبيون حملاتهم إلى بلاد الشام.

هنا يكمن الفارق بين الفاطميين والسلاجقة: يرفض الخليفة الفاطمي الوعد ـ مجرد الوعد ـ بإنجاد البيزنطيين على السلاجقة الذين جاهره ملكهم طغرل بك بالعداء، بإرساله إليه رسالته من بغداد طالباً إليه الدخول في طاعته ـ كما تقدم ذكره ـ

يرفض المستنصر ذلك مع ما فيه بلاده من خطر المجاعة ويضطر للدخول في حرب مع البيزنطيين، فيسارع ملك السلاجقة طغرل بك عارضاً خدماته على البيزنطيين، فيتناصر السلاجقة والبيزنطيون على الفاطميين...

ومن هذه الحقائق يتبين أن كل ما ذكره التدمري عن الخلاف المذهبي بين الفاطميين الإسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة الأتراك والعباسيين السنة في العراق، وتشبيهه له بالخلاف بين الكنائس، وقوله أنه أدى إلى القتال وأن بلاد الشام كانت بذلك مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين، مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم.. إلى غير ذلك من أمثال هذه

الأقوال ـ يتبيّن من الحقائق التي ذكرناها أن كل ما ذكره التدمري إنما هو تهويش في تهويش وأباطيل في أباطيل!.

فالصراع كان قائماً بين الفاطميين والبيزنطيين، تعاون فيه السلاجقة مع البيزنطيين.

وفي خلال ذلك انتهى أمر المستنصر، وسيطر بدر الجمالي على مصر، وأنهى الحكم الفاطمي، وحل محله الحكم الجمالي، وأصبح الصراع سلجوقياً جمالياً.

وكان البادئون بالصراع هم السلاجقة، مستغلين تعاطف البيزنطيين معهم، وتأييدهم لهم، ففي سنة ٤٦٣ قصد (أتسز بن أوق) الخوارزمي وهو من أمراء ملك شاه السلجوقي ـ قصد الشام فجمع الأتراك وسار إلى فلسطين ففتح الرملة، وسار منها إلى القدس، وحاصرها، وكان ذلك في أواخر عهد المستنصر، وبدء انهيار الدولة الفاطمية فاستطاع الاستيلاء على القدس وما جاورها عدا عسقلان[١].

كان هذا فاتحة الصدام الذي بدأه السلاجقة منصرفين عن قتال البيزنطيين إلى قتال المسلمين، ومن التزاحم مع الروم على امتلاك البلاد، إلى التزاحم مع العرب شاهرين السيوف عليهم مقتحمين ديارهم، مقاتلين جنودهم!..

وبعد ثلاث سنوات من هذه الوقائع، أي في سنة ٤٦٦ كانت

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص٦٨.

السيطرة الجمالية قد تمت على الخلافة الفاطمية، وكان بدر الجمالي قد أحكم قبضته على مصر، وأقصي المستنصر محجوراً عليه. وهنا أصبحت المواجهة سلجوقية جمالية بحتة بعد أن كانت في بدئها مواجهة سلجوقية بدأها السلاجقة مع بقايا فاطمية ماشية إلى التلاشي، ولذلك رأيناها لا تلبث أن تنحطم أمام أول هجمة سلجوقية فتفقد القدس وجل فلسطين.

وهنا لم يكن للصليبيين وجود، ليقال إن الفاطميين استغلوا وجودهم للاستعانة بهم على السلاجقة، بل كان الوجود للبيزنطيين الذين استعان السلاجقة بهم على الفاطميين.

وظل جهد السلاجقة متجهاً لقتال المسلمين والعرب، منصرفين عن البيزنطيين؛ حتى كانت السنة ٤٦٩، أي بعد ثلاث سنوات من سيطرة بدر الجمالي على مصر.

ففي هذه السنة صمم السلاجقة على غزو مصر نفسها فاتجه إليها قائدهم (أتسز) فتصدى له صاحب أمر مصر بدر الجمالي فهزمه ورده عن مصر[١].

فما دخل الفاطميين هنا وبعد هنا.. إلى وصول الصليبيين ليحشر اسمهم في الصراع السلجوقي الجمالي، ثم ليفترى عليهم عند وصول الصليبيين إلى حدود بلاد الشام؟!

إذا كان من مأخذ، وإذا كان من تهم، فيجب أن يوجه ذلك

---

(١) م.ن. ج١٠، ص١٠٣.

إلى المتصارعين، لا إلى المقصيين، المحجور، عليهم المغلولة أيديهم عن كل تصرف . . .

ويمضي الصراع السلجوقي ـ الجمالي في حدته ففي سنة ٤٧٠ كان قائد جيش بدر الجمالي يحاصر دمشق فاستنجد (أتسز) ممثل الحكم السلجوقي فيها بالملك السلجوقي تُتش بن ألب أرسلان، فأقبل تتش لنجدته في جمع كثير من التركمان، ولم يلبث عند وصوله إلى أسوار دمشق أن قتل أتسز ودخل دمشق ورد جيش بدر الجمالي عنها[١] .

وابن الأثير يُسَمّي في كل هذه الوقائع الجيش المصري بجيش بدر الجمالي كما هو واقع الحال .

وفي سنة ٤٧٨ وصل بدر الجمالي في عساكر مصر إلى الشام؛ فحصر دمشق وفيها صاحبها السلجوقي (تتش) فضيق عليه وقاتله فلم يظفر منها بشيء فرحل عنها عائداً إلى مصر[٢] وفي سنة ٤٨٥ هاجم تتش حمص وعرقة وأفاميه فملكها، وهاجم طرابلس وفيها جلال الملك بن عمار فلم يظفر بها .

وهكذا يستمر الجهد السلجوقي متجهاً إلى قتال المسلمين والعرب، ويظل الصراع سلجوقياً ـ جمالياً، فيما عدا فجوة صغيرة

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ١١١ .

(٢) م . ن . ص ١٤٥ .

فيه ـ لم يطل أمدُها ـ انحرف فيها فكان سلجوقياً ـ عمارياً في طرابلس.

كل ذلك يجري والفاطميون غائبون أو مغيبون مضيق عليهم، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ومع ذلك فإن مزيفي التاريخ يجعلون الصراع سلجوقياً ـ فاطمياً ليجدوا منفذاً يلجونه للافتراء على الفاطميين..

وفي سنة ٤٨٩ كان بدر الجمالي يسير إلى القدس فيستخلصها من أيدي السلاجقة.. والفاطميون في معتقلاتهم يكابدون فقدان حريتهم، وكف أيديهم، وزوال سلطانهم..

كيف سيطر الجماليون؟

نريد هنا أن نزيد الأمر إيضاحاً، لنري القارىء أن الشام لم تكن أبداً مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين مما جعلها ـ على زعم التدمري ـ منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم، وأن كل ما ذكره التدمري في هذا الموضوع هو تزييف للتاريخ، وتحريف للحقائق.

طالت خلافة المستنصر الفاطمي ستين سنة وأربعة أشهر، تحقق له في القسم الأول منها ما لم يتحقق لأحد من أسلافه، إذ خُطب باسمه في بغداد بعد أن طُرد منها الخليفة العباسي ـ القائم بأمر الله ـ واستمر ذلك سنة في تفاصيل مرّ ذكرها. .

كما أنه في أواخر عهده عند استبداد الناصر الحمداني به أقيمت الخطبة باسم القائم العباسي في القاهرة، وفي القسم الثاني من عهده بدأ التضعضع بسيطرة بدر الجمالي، أو بما يمكن أن تسمّيه انتهاء العهد الفاطمي وحلول العهد الجمالي محله حكماً وسيطرة.

فقد قامت فعلاً الدولة الجمالية، بكل ما للدول في تلك

العصور من واقعية الحكم ومظاهره، وصار سجين قصره محجوراً عليه بما نستطيع أن نطلق عليه بلغة العصر الحاضر اسم: الإقامة الجبرية[1] ولم يكن في مصلحة الدولة الجديدة قتله أو طرده، بل كان من مصلحتها الاحتفاظ به أسيراً في يديها لاستغلال اسمه بما يمكن أن يستغل به.

يقول المقريزي عن بدر الجمالي: «تحكم في مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر، واستبد بالأمور وكانت مدة أيامه بمصر إحدى وعشرين سنة، وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر».

ويقول المقريزي: «واستناب ولده (الأفضل) وجعله ولي عهده».

وبتسميته ابنه (ولياً للعهد) يكون قد أكمل إعلان قيام الحكم الملكي الجديد على انقاض الحكم الفاطمي المنهار. وتكون دولة جديدة قامت في مصر هي (الدولة الجمالية)، وهي وحدها المسؤولة عما جرى في عهدها من أحداث ومنها الصدام مع السلاجقة، ثم مع الصليبيين.

وإذا كان بدر وابنه لم يعلنا إلغاء الخلافة نظرياً في حين أنهما ألغياها عملياً، فلأنهما لا يستطيعان ادعاء الخلافة لنفسيهما، فكانا

---

(١) يقول المقريزي (ج١ ص ٢٠٧): قدم بدر الجمالي إلى القاهرة فصار أمر الدولة كله راجعاً إليه.

يريدان غطاء شرعياً لحكمهما يبرران به تسلطهما، وكان وجود الخليفة الشكلي هو الغطاء المطلوب.

ولما مات المستنصر كان الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي اختار خليفته. يقول المقريزي[1]:

«لما مات المستنصر بادر الأفضل بن بدر الجمالي إلى القصر وأجلس أبا القاسم أحمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله».

وهو أصغر إخوته: نزار، وعبدالله، وإسماعيل.

ثم يقول المقريزي[2]: «ولم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة».

وكما قلت من قبل، فإن الدكتور تدمري يتبع مبدأ: اقتلوني ومالكاً، فهو من أجل أن يفتري على التاريخ الفاطمي لا يبالي أن يقرنه بالتاريخ السلجوقي فيقول:

«إن السلاجقة والفاطميين على حد سواء قد رأوا في مجيء الصليبيين إلى الشام ما يحقق أهداف كل منهم في القضاء على خصمه، أو الحد من خطره ونفوذه، وهكذا تيسر للصليبيين دخول الديار الشامية، واحتلال القسم الساحلي بكامله، والاستيلاء على بيت المقدس».

---

(١) ج١، ص ٤٢٣.

(٢) ج١، ص ٣٥٧.

ونقول: لقد انتهت سلطة الفاطميين قبل وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي ـ لا سيما بلاد الشام ـ بربع قرن.

فإن بدراً الجمالي أنهى سلطة الخليفة الفاطمي المستنصر وسيطر على الدولة سنة ٤٦٦ هـ، وكان ابتداء وصول الصليبيين سنة ٤٩٠ هـ وسقطت أنطاكية في أيديهم سنة ٤٩١ هـ.

إذن فلم يكن هناك فاطميون يرون في مجيء الصليبيين إلى الشام ما يحقق أهدافهم في القضاء على خصمهم أو الحد من خطره ونفوذه. بل كان هناك جماليون أنهوا حكم الفاطميين وحلوا محلهم، فإن كان من مسؤولية فهي تقع على هؤء الجماليين..

ولكن هل صحيح أن الجماليين مسؤولون عن تيسير دخول الصليبيين الديار الشامية واحتلال القسم الساحلي بكامله والاستيلاء على بيت المقدس؟!.

ذلك ما سنتحدث عنه في الآتي من القول.

ويوغل الدكتور عمر تدمري في الهوس فيقول: انساحت الجيوش الصليبية ووطئت أرض الشام، وكونت بحيرات صليبية لاتينية في أنحائها على مسمع ومرأى من السلاجقة والفاطميين، وكان على الإمارات العربية المحايدة بين السلاجقة والفاطميين أن تنتظر المساعدة أو النجدة منهم، إذ كان النزاع مستمراً بين الدولتين سياسياً ومذهبياً، وكان الوقت ذهبياً بالنسبة للصليبيين، وهم يشهدون الحالة التي عليها المسلمون من التفكك والتنازع والضعف، فاستطاعوا في حملة واحدة أن يستولوا على القدس،

ولو أن القوى الإسلامية في المنطقة طرحت خلافاتها جانباً، ووحدت صفوفها أمام العدوان الصليبي لما تعرض الساحل الشامي للذي لحقه، أو على الأقل لما لبث الصليبيون في المشرق العربي الإسلامي نحو القرنين من الزمان، وبقدر ما يتحمل الفاطميون من تبعة لموقفهم المتخاذل، فإن السلاجقة يتحملون أيضاً مثل ذلك. (انتهى).

ليختر الدكتور عمر تدمري إحدى الصفتين: أما أنه جاهل بوقائع تاريخ تلك الحقبة جهلاً يضعه مع أشباه الأميين في التاريخ، وأما أنه متعصب أعمى التعصب بصيرته فجعله ينطق بهذا القول، ما هي الحقيقة في ذلك؟..

أولاً: كان الحكم الفاطمي قد انتهى قبل ربع قرن من وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي؛ ثم إلى بلاد الشام ـ كما بينا من قبل ـ.

يقول المقريزي في خططه[1]: «لم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة».

في عهد المستعلي الفاطمي هذا الذي لم يكن له مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة تقدم الصليبيون إلى بلاد الشام واحتلوا القدس.

وكان صاحب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة هو الأفضل بن بدر

---

(١) ج١، ص٣٥٧.

الجمالي، فلماذا تنسب أحداث تلك الفترة إلى الفاطميين وخلافتهم؟.

إنها يجب أن تنسب إلى أصحاب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة، وهم غير الفاطميين.

أما قول التدمري: «انساحت الجيوش الصليبية ووطئت أرض الشام... إلى آخر كلامه.. فإننا نقول له: إن الجيوش الصليبية انساحت ووطئت أرض الشام واحتلت القدس على مرأى ومسمع وخيانة من السلاجقة وأمثالهم من غير الفاطميين. وإليك التفاصيل:

يحدثنا ابن الأثير في تاريخه[1] عن زحف كربوقا السلجوقي أمير الموصل لإنقاد أنطاكية كما يلي:

«جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام، تُرْكُها وعربها سوى من كان بحلب. فاجتمع معه دُقاق بن تتش، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم. وسار المسلمون فنازلوا أنطاكية، وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون

(١) ج١٠، ص٢٧٦ ط ١٩٦٦ م.

معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة.

وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً ليس ما يأكلونه. وتقوّت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر. فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد[1] فلم يعطهم ما طلبوا، وقال: لا تخرجون إلا بالسيف. وكان معهم من الملوك: بردويل، وصنجيل، وكندفري والقُمّص صاحب الرها وبَيْمُنت صاحب أنطاكية، وهو المقدم عليهم...»

إلى أن يقول ابن الأثير: «فخرجوا (الإفرنج) متفرقين من خمسة وستة، ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لا تفعلوا! أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكّن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم هو بنفسه، منعهم ونهاهم.

---

(١) المقصود بطلب الأمان أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا خارجين بدون سلاح على أن يكونوا آمنين على أرواحهم فلا يقتل منهم أحد، ولا يكونوا أسرى، بل ينطلقوا راجعين إلى بلادهم، وقد كانت القيادة الصليبية كلها في أنطاكية، وهي بجميع رجالها كما يعددهم ابن الأثير، طلبت الاستسلام، فطلبها الأمان واستلامها كان معناه انتهاء الحروب الصليبية عند أنطاكية وعودة رجالها إلى بلادهم شراذم جائعة عارية.

فلما تكامل خروج الفرنج، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافّاً عظيماً، فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة بهم والأعراض عنهم، وثانياً من منعهم من قتل الفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سقمان بن أُرتق، وجناح الدولة؛ لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم. فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال يُنهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم»(انتهى).

وعندما ينهي ابن الأثير كلامه هذا، يشير إلى أن ما أتاحه تصرف كربوقا وخيانة القادة الآخرين، هي التي رسخت عزم الصليبيين على الزحف إلى القدس بعدما كان قد عراهم من اليأس والإنخذال، حتى طلبوا الأمان والإستسلام، فيقول: لما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا ساروا إلى معرة النعمان. . . ثم تابعوا السير بعد ذلك إلى القدس.

كان ابن الأثير واضحاً في تحميل كربوقا والقواد الآخرين مسؤولية نجاح الصليبيين في اختراق بلاد الشام والوصول إلى القدس، مع اختلاف نوع المسؤولية بين كربوقا وبين بقية الأمراء والقواد.

لقد استطاع كربوقا أن يجيش الجيوش الإسلامية من الموصل حتى بلاد الشام وكل من في طريقه من شمال العراق حتى شمال الشام. وهذا ما أدركه الصليبيون الذين كانوا يعانون الوهن وقلة الأقوات ـ كما يقول ابن الأثير ـ بعد تلك الرحلة الطويلة التي بدؤوها من قلب أوروبا وصولاً إلى أنطاكية.

ومما زاد في وهنهم وانخذالهم ما عانوه في حصارهم لأنطاكية حتي عادوا وكأنهم هم المحاصَرون. لا المحاصِرون وكانت المجاعة قد حلت بهم لانعدام موارد القوات فيهم. فدب اليأس فيهم، وبدأوا يتسللون من جيشهم هاربين. وحين نعلم أنه كان في طليعة الهاربين، الرجل الأول في الدعوة إلى إشعال الحرب الصليبية، وبطل جمع جموعها، وتحريض الجماهير على الانضمام إلى جيوشها، أعني ـ بطرس الناسك ـ وحين نعلم أن الفرار من الجيش الصليبي الجائع الواهن قد تعدى العامة إلى القادة؛ ففر أمثال (ستيفن كونت بلوا). .

حين نعلم ذلك ندرك إلى أي مدى كان الصليبيون يائسين منخذلين واهنين جائعين وهم يحاصرون أنطاكية.

ولولا خيانة خائن كان داخل أنطاكية لعجز الصليبيون عن دخول أنطاكية.

لقد دخلوها على وهنهم وجوعهم، وظلوا على هذا الوهن والجوع، وهم داخلها لأن أسباب الوهن والجوع كانت لا تزال قائمة، فلا مصادر للقوت تقيهم الجوع وتدفع عنهم الوهن.

وصلت حملة كربوقا إلى أنطاكية والصليبيون على تلك الحال، ووصلتهم أخبار عن ضخامة الجيوش التي أخذت تحاصرهم، لذلك قرروا الاستسلام وطلب الأمان ـ كما ينص على ذلك ابن الأثير. . .

وهذا يعني أن الحملة الصليبية قد فشلت وأن جيوشها وقوادها قد قرروا الاستسلام، وأن القدس التي كانت هدفهم قد نجت، وانتهى أمرهم ولم تعد تقوم لهم قائمة. . .

فماذا غيّر ذلك كله، وماذا أحال وهنهم إلى قوة، وجوعهم إلى شبع، وماذا بدّلهم من موقف طالب استسلام إلى مهاجم منتصر؟!.

إن ابن الأثير يفصل لنا ذلك بعبارات مقتضبة فهو يقول:

«. . ولما سمعت الفرنج (بقدوم الجيوش الإسلامية الكثيفة) عظمت عليهم المصيبة وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم».

ثم يسترسل ابن الأثير قائلاً:

«وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة».

عوضاً عن أن تبعث كثرة الجند وضخامة الجيش في نفس

كربوقا التواضع لله على أن وفقه لقيادة هذه القوة الكبرى، وعوضاً عن أن يحمد الأمراء على استجابتهم لدعوته ويتألفهم ويلين لهم، عوضاً عن ذلك، عاد إلى طبيعته فرأى في تلك الحشود الإسلامية مجرد أتباع له، وفي أولئك الأمراء مجرد مأمورين له، فازدهاه ذلك فتكبر وتجبر، وعامل الأمراء بمهانة أحفظتهم وغيرت نواياهم لا عليه وحده، بل على الموقف كله، فانقلبوا من متحفزين لنصرة الإسلام إلى ناوين خيانة الإسلام.

فالأمر يلخّص، كما ذكر ابن الأثير، كما يلي:

١ ـ كان الصليبيون داخل أنطاكية في منتهى الوهن وانعدام الأقوات.

٢ ـ قرروا الاستلام بلسان قيادتهم الموجودة كلها داخل أنطاكية.

٣ ـ رفض كربوقا استسلامهم وقرر دخول أنطاكية بالسيف.

٤ ـ بدأوا بالتسلل من أنطاكية فرأى المسلمون مقابلتهم، وهم شراذم تسهل إبادتهم تدريجياً، وبالفعل بدأ ذلك المسلمون فقتلوا كل من خرج، فرفض كربوقا ذلك وجاء بنفسه يمنع المسلمين من هذا.

٥ ـ كان كربوقا قد أساء معاملة الأمراء المنضمين إليه وعاملهم بمهانة.

٦ ـ حقد هؤلاء الأمراء عليه وقرروا عدم القتال والانهزام من المعركة عند أول مواجهة مع العدو.

٧ ـ أصر كربوقا على منع جمهور المقاتلين معه من تصيد

الأعداء وهم شراذم مما أغضب هذا الجمهور فقرروا ما قرره الأمراء من الانهزام دون قتال.

٨ ـ وجدت جماعة في الجيش الإسلامي رفضت ذلك فقررت الاستشسهاد تقرباً إلى الله.

فأول ما يطال كربوقا من المسؤولية في ذلك هو: تنفيره قلوب الأمراء منه، والاستعلاء عليهم. وثاني ما يطاله ـ وهو الأخطر في الأمر ـ هو رفضه استسلام الصليبيين بلا قتال.

وثالث ما يطاله ـ وهو ما لا يقل خطورة عن الثاني ـ هو رفضه طلب جمهور المقاتلين عدم السماح للصليبيين بالتجمع كتلة واحدة ومقابلتهم وهم شراذم تسهل إبادتها.

فلماذا فعل كربوقا ذلك؟..

يصعب علينا اتهام كربوقا بالخيانة فنحن لا ننسبها إليه. ولكننا لا نتردد أبداً باتهامه بالأنانية وحب الذات وتغليبهما على كل شيء مهما تعارض هذا الشيء مع المصلحة العامة.

إن أنانيته، وحبه لذاته، وحرصه على مجده الشخصي، جعلته يرفض استسلام الصليبيين بأمان بلا قتال وخروجهم من أنطاكية ورجوعهم إلى بلادهم.

لأنه ـ وقد أيقن بوهنهم وحلول المجاعة فيهم ـ أعتقد أنه سيخوض معهم معركة سهلة يكون هو بطلها المنتصر. واستسلامهم بلا قتال سيرحمه من التباهي بالانتصار عليهم في معركة حاسمة.

وكذلك القول في منعه جمهور المسلمين المقاتلين من تصيد الصليبيين أفراداً وشراذم، وهزيمتهم بهذه الطريقة، فإن ذلك سيحرمه من المجد الشخصي والتفاخر بالانتصار.

وهكذا فإن الأنانية، وحب الذات، وطلب المجد الشخصي، عند كربوقا وخيانة الأمراء وجمهور المقاتلين قد حالت بين المسلمين وبين إنهاء الحروب الصليبية عند أنطاكية، وعرضتهم لما عرضتهم من فجائع دخول الصليبيين للقدس فاتحين واستمرار الاحتلال الصليبي لبلاد الشام مئتي سنة، وما اقتضى ذلك من إذلال وسفك دماء.

هكذا كله يتناساه مزيفو التاريخ ويتجاهلونه!! ويفتشون عن بريء يتهمونه وبطل يخوّنونه!.

وهذا ما نأسف أن يتمسك به في هذا العصر من يقولون إنهم أكاديميون وحملة دكتوراه وأساتذة جامعيون!.

الاسترسال في التزييف

ويستطيب الدكتور عمر تدمري تزييف التاريخ فيقول:

إن أول ما يؤخذ على الفاطميين هو عدم اكتراثهم بالهجمة الصليبية على الشام، بل إنهم رحبوا بها لأنهم وجدوا فيها عوناً على خصومهم السلاجقة، وقد بعثوا رسلهم إلى زعماء الصليبيين

وقادتهم في أنطاكية للتعبير عن فرحتهم بسقوطها بين أيديهم شماتة بالسلاجقة.

أولاً: لقد قلنا ونقول: إنه لم يكن هناك فاطميون عند الهجمة الصليبية على بلاد الشام، بل كان هناك: جماليون، وقد فصلنا ذلك فيما تقدم من الكلام.

أما جرأته على الحق والصدق في قوله عن الفاطميين (الذين لم يكن لهم يومذاك وجود) بأنهم رحبوا بالهجمة الصليبية على الشام، لأنهم وجدوا فيها عوناً على خصومهم السلاجقة، وقد بعثوا رسلهم إلى زعماء الصليبيين وقادتهم في أنطاكية للتعبير عن فرحتهم بسقوطها شماتة بالسلاجقة ـ أما هذه الجرأة على الحق والصدق، فإننا لا نعرف في تاريخ التعصّب الأعمىٰ لها مثيلاً.

في أي كتاب وجدت أن الفاطميين لم يكترثوا بالهجمة الصليبية؟ وفي أي كتاب قرأت أنهم رحبوا بها؟ في أي كتاب طالعت أن رسلهم إلى زعماء الصليبيين في أنطاكية عبروا عن فرحتهم بسقوطها شماتة بالسلاجقة؟!.

نعيد ونكرر وسنظل نعيد ونكرر أن الفاطميين لم يكن لهم وجود عند الهجمة الصليبية، بل كانوا محجوراً عليهم، وكانوا سجناء دورهم، وإن الذين حلوا محلهم هم: الجماليون..

ولكن هل فعل الجماليون هذا الذي يفتريه عمر تدمري؟..

لن نجيب نحن على هذا السؤال، بل نترك للدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه: (النفوذ الفاطمي في بلاد الشام

والعراق) ليجيب عليه، وليبين حقيقة مهمة الرسل الذين أرسلهم الأفضل الجمالي إلى أنطاكية:

يقول الدكتور سرور في الصفحة ٦٧ من كتابه:

«لما وصل إلى الحكومة الفاطمية[١] في مصر نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض في عقد اتفاق معهم يتضمن أن يتفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية على أن لا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وأن لا يدخلوها بسيوفهم»[٢].

---

(١) ينطلق الدكتور سرور مع رواسبه فينسب الأمر إلى الدولة الفاطمية، في حين أنه هو نفسُه ينسب الأمر بعد ذلك إلى الأفضل الجمالي.

(٢) يقول ن.م. ستون في الفصل الثالث من (تاريخ الحروب الصليبية) الجزء الأول ـ على ما نقل يوسف إيبش في كتابه عن صلاح الدين بعنوان (الخلافة العربية) ـ عن بدر الجمالي بعد أن سلّم اتسز دمشق إلى الأمير السلجوقي (تتش):

وتجنب بدر منذ ذلك الحين الدخول في أي نزاع مع السلطة السلجوقية، وكرّس نفسه لإعادة تنظيم مصر واسترجاع ازدهارها. فقد قامت الخلافة الفاطمية طيلة قرن آخر، وذلك بفضل حكومته الحازمة والمنتظمة وحكم ابنه الأفضل شاهنشاه الذي جاء بعده. والحق يقال أن إنجازه كان أكثر جدارة بالملاحظة. فالمبادىء العامة التي أعاد تنظيم الإدارة على أساسها كانت متصورة على نحو سليم إلى درجة أنها بقيت سارية المفعول على امتداد قرون =

ومن هذا يتبين أن الأفضل بن بدر الجمالي لما رأى سقوط أنطاكية وانهزام قوى كربوقا ـ بخيانة أسلاف الدكتور عمر تدمري ـ أيقن أنه لم يبق في طريق الصليبيين قوى إسلامية تستطيع التغلب عليهم والحؤول بينهم وبين الوصول إلى القدس، فحاول أن

= رغم الحروب والتغيرات في السلالات الحاكمة. وكانت السمة الأكثر لفتاً للنظر في نظامه هي الجمع بين الحكومة العسكرية والإدارة المدنية. فلم يعد الخلفاء الفاطميون منذ هذا الوقت فصاعداً أو أنهم لم يكونوا إلا لفترات نادرة وقصيرة بمثابة الحكام الفعليين للبلاد. فقد قبعت مقاليد السلطة الحاكمة بيد الدكتاتور العسكري المدعو بـ الوزير، أو السلطان في أوقات لاحقة، يدعمه جيش يتقاضى قادته أجورهم من الإقطاعات العسكرية. غير أنه بالرغم من بقاء الحكومة العسكرية على رأس الحكم فقد أنشئت إدارة مدنية قوية وبسطت هذه الإدارة سيطرتها على التنظيم المالي برمته، ومن الجملة على دفع أجور العساكر، كما ضبطت توزيع الاقطاعات.

وقلما تقل عن ذلك جدارة بالملاحظة تلك الثورة التي أحدثها بدر الجمالي وابنه في سياسة مصر الخارجية. فسواء تقبلا الحقيقة القائلة بأن الدولة السلجوقية قضت على كافة أحلام التوسع الإقليمي أم لا، فإن العمل العسكري الوحيد الذي قاما به خارج مصر كان استرجاع قواعدها البحرية في عكا وصور وغيرها من الموانىء (١٠٨٩) وإقامة رأس جسر دفاعي في فلسطين. ولدى اقتراب الصليبيين أعيد تحصين صور وصيدا مثلما تم الاستيلاء على القدس مجدداً في سنة ١٠٩٨ من الزعماء التركمان الأرتقيين الذين تولوها كإقطاعية سلجوقية.

أما الافتراض القائل بأن الأفضل حاول التفاوض مع الصليبيين على تقسيم سورية فتدحضه الحقيقة القائلة إن مبعوثي الفرنجة الذين ذهبوا إلى القاهرة في تلك السنة قد ألقي بهم في السجن.

يقنعهم بالوقوف عند أنطاكية على أن تكون لهم حرية زيارة القدس أفراداً غير مسلحين وأن يغادرها من يزورها منهم في مدة أقصاها شهر.

وأحسب أن هذا أقصى ما كان يستطيع أن يفعله الأفضل من أجل القدس يومذاك، فأين هو موضع التجريح بهذا الرجل؟!.

هذا إذا صح أن الأفضل أرسل سفارة، فنحن لم نجد ذكراً لهذه السفارة المزعومة في أي مصدر عربي!..

ومع افتراض وجود السفارة نقول: أنه لما فشلت محاولة الأفضل السلمية لإيقاف الصليبيين عند أنطاكية استعد لحربهم.

فالاستعداد لحربهم كان واقعاً سواء سلمنا بوجود السفارة أم لم نسلم. استعد الأفضل لحرب الصليبيين مع علمه بقوتهم وضعف قوته أمام حشودهم، فقام واليه على القدس بتسميم الآبار التي في طريقهم وطم القنوات لئلا يستفيدوا من مائها، وعهد بحراسة أسواق القدس إلى جماعة من العرب والسودان. ويقول الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) فيما يقول عن جيش الأفضل بن بدر الجمالي المدافع عن القدس: «وأدرك الصليبيون أنهم واجهوا هذه المرة خصماً يرى أن في ضياع بيت المقدس ضياعاً لهيبته السياسية وانتهاكاً لحرماته الدينية».

ونقول: كان ذلك على عكس أسلاف الدكتور عمر التدمري الذين لم يروا حرجاً في أن يخونوا الإسلام والمسلمين حين

انحازوا عن طريق الصليبيين عند أنطاكية، ففتحوا لهم باب الوصول إلى القدس!.

ثم يصف الدكتور حسن حبشي الدفاع البطولي عن القدس قائلاً: «شرع الصليبيون في الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩ (٤٩٢ هـ) ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعاً قوياً رغم ما استعدوا به من آلات الحصار والأبراج المتحركة، وأخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية».

واستمرت المعارك على هذا المنوال العنيف سبعة أسابيع من ٧ يوليو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩ م فأين هذا الدفاع: دفاع جيش الأفضل بن بدر الجمالي عن القدس، من خيانة أسلاف عمر تدمري وأسلاف محمد علي الجوزو عند أنطاكية[١].

وبعد سقوط القدس واصل الأفضل قتال الصليبيين، وقاد حملة لاسترداد القدس في رمضان سنة ٤٩٢ هـ (آب ١٠٩٩ م) وصل بها إلى عسقلان، فلما بلغت أخبارها إلى جودفري في القدس أرسل على عجل رسولاً إلى تنكريد الذي كان في نابلس يستدعيه هو والقوات التي معه للمشاركة في دفع الخطر الداهم، كما استدعى بقية الأمراء الذين ساهموا في بيت المقدس يطلب

---

(١) محمد علي الجوزو هذا: هو واحد من المتاجرين بالدين في لبنان، وممن هم عبيد العبيد، يتقاضى دولارات عبيد الأمريكان ليهاجم المسلمين الشرفاء، ويروج فتوى ابن باز التي تدعو إلى مسالمة الصهاينة والتعاون معهم.

إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة، ولم يتخلف منهم أحد على الرغم مما كان قائماً بينهم من خلاف يومذاك. وهكذا وحد الخطر بين جميع القوى الصليبية فتحشدت بأقصى ما تستطيع من تحشد، ففشلت معركة استرداد القدس في تفاصيل ليس هنا مكان الخوض فيها.

يقول المقريزي في خططه: «وفي سنة أربع وتسعين خرج عسكر مصر لقتال الفرنج وكانت بينهما حروب كثيرة».

ويقول ابن الأثير[1]: سيّر الأفضل ولده شرف المعالي في السنة الحالية إلى الفرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم.

ويقول المقريزي في خططه[2]: «وكوتب الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان، باجتماع الفرنج فاهتم للتوجه إليهم، فلم يبق ممكناً من مال، وسلاح، وخيل، ورجال، واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بين يدي الخليفة مكانه، وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج، فوصل إلى عسقلان، وزحف عليها بذلك العسكر».

ولكن الحملة لم تنجح.

وقال المقريزي أيضاً[3]: وذكر تجهيز العساكر في البر عند

---

(١) ج١٠، ص ٣٩٤.
(٢) ج١، ص ٤٤٣.
(٣) ج١، ص ٤٨٠.

وورود كتب صاحبي دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمس مئة ما يحث على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك، وركب الخليفة الآمر بأحكام الله، وتوجه إلى الجامع بالمقس، وجلس بالمنظرة في أعلاه، واستدعى مقدم الأسطول الثاني، وخلع عليه، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة.

وقال المقريزي[1]: قال ابن المأمون البطائحي في حوادث سنة تسع وخمس مئة: ووصلت النجابون من والي الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل إلى أعمال الغرما، فسير الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها، ويسيّر الراجل من المعطوفية، وأن يسير الوالي بنفسه بعد أن يتقدم إلى العربان بأسرهم بأن يكونوا في الطوالع، ويطاردوا الفرنج، ويشارفوهم في الليل قبل وصول العساكر إليهم، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام، وتجهيز الأصحاب والحواشي. فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان، وطاردوا الفرنج، وعلم بغدوين ملك الفرنج أن العساكر متواصلة إليه، وتحقق أن الإقامة لا تمكنه، أمر أصحابه بالنهب والتخريب والإحراق وهدم المساجد، فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد، وعزم على الرحيل... إلى أن يقول: وأما العساكر الإسلامية فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدو وعادوا بعد أن

(١) ج١، ص ٢١٢.

خيموا على ظاهر عسقلان. . . ثم يقول: وتواصلت الغارات على بلاد العدو وأسروا وقتلوا. . .

وظلت غارات الأفضل على شكل عصابات تغير على الصليبيين، ووصل بعضها إلى أسوار بيت المقدس سنة ٥٠٤(١١١٠ م) وسنة ٥٠٧ هـ(١١١٣ م)، وإلى يافا سنة ٥٠٩ هـ(١١١٥ م)[1].

وهذا يدل على أن الأفضل لم يهدأ، أو لم يترك الصليبيين يهدؤون، بل ظل يغير عليهم ويقاتلهم، فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة، على حد تعبير المقريزي.

وإذا كانت القوى الصليبية المتدفقة من أوروبا هي أكثف وأقوى مما استطاع الأفضل حشده، وإذا كان لقوى الصليبيين إمداد دائم من الخارج، وليس للأفضل أي إمداد من العالم الإسلامي الواسع، فذلك ليس ذنب الأفضل بن بدر الجمالي.

وبالرغم من أن من جاءوا بعد الفاطميين والجماليين طمسوا كل ما يستطيعون طمسه من مآثر تلك العهود، وما قيل فيها من الشعر والنثر فقد أمكن أن يصل إلينا بعض ما خلّده الشعراء من مآثر الأفضل بن بدر الجمالي في جهاده للصليبيين. فمن ذلك قصيدة للشاعر أمية بن أبي الصلت، يشير فيها إلى انصراف البلاد الإسلامية الأخرى، عن مواجهة الخطر الصليبي، واقتصار

---

(١) stton: A Histry fo the crusades t1 p 421.

المواجهة على الأفضل وجيشه. وفيها يقول مخاطباً الأفضل:

جــردت للــديــن والأسيــاف مغمــدة
سيفــاً تفــل بــه الأحــداث والغيــر

ثم يشير إلى فشل حملة استعادة القدس:

وإن هــم نكصــوا يــومــاً فــلا عجـب
قـد يكهـم السيـف وهـو الصـارم الـذكـر
العــود أحمــد والأيــام ضــامنــة
عقبــى النجــاح ووعــد الله ينتظــر

ثم يتبنى الدكتور عمر تدمري أقوال زملائه المتقدمين عليه في الزمن، والمساوين له في العصبية العمياء والتوغل في الباطل والافتراء على الحقيقة، أمثال: محمد كردعلي الذي ينقل قوله غير المستند إلى سند إلا اتقاد جذوة اللؤم في نفسه حيث يقول:

«ومما يثير الاستغراب والدهشة أن الفاطميين ظلوا مكتوفي الأيدي، وهم يرون المدن الإسلامية تدمر، ويقتل رجالها ونساؤها وأطفالها، وتهدم مساجدها، وكأن الأمر لا يعنيهم طالما أنهم يعتقدون أن المتضرر الأول هم السلاجقة، وأنهم بعدم التصدي للصليبيين، يصرفون نظرهم عن الدخول إلى مصر».

ونقول لمحمد كردعلي، ولعمر تدمري: أن خيانة أسلافكم السلاجقة هي التي فتحت الباب للصليبيين لكي يدمروا المدن الإسلامية ويقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها ويهدموا مساجدها.

أما الفاطميون فلم يكن لهم وجود، والجماليون الذين

خلفوهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي، وقد عناهم الأمر كل العناية، وقد رأينا فيما تقدم من القول ما فعلوه في قتال الصليبيين. . .

وأمثال ابن كثير الذي قدم التدمري لشتائمه بقوله:

ولقد هاجم المؤرخون الخلفاء الفاطميين، ودولتهم على مواقفهم المتخاذلة فكتب ابن كثير كلاماً مقذعاً قال فيه: . . . وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء، وأجبرهم، وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، واخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع، والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد. وكثر بأرض الشام النصرانية، والدرزية، والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله حتى أخذوا القدس، ونابلس، وعجلون، والغور، وبلاد غزة، وعسقلان، وكرك، والشوبك، وطبرية، وبانياس، وصور، وعكا، وصيدا، وبيروت، وصفد، وطرابلس، وأنطاكية، وجميع ما والى ذلك إلى بلاد إياس وسبس، واستحوذوا على بلاد آمد، والرها، ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك. وقتلوا من المسلمين خلقاً وأمماً لا يحصيها إلا الله، وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف.

هذا الكلام ينقله، ويتبناه، ويحاضر به على المنابر، رجل يعيش في العقد الأخير من القرن العشرين، ويحمل شهادة دكتوراه ويدرّس في الجامعة.

لقد كان على عمر تدمري أن يخجل من مجرد وجود هذا

الكلام في كتاب عربي، لو كان عمر تدمري ـ فعلاً ـ رجل علم وفكر وتحقيق.

لقد استولى الفرنج على ما ذكره ابن كثير من بلاد وفعلوا فيها ما عدده من الأفعال، وقد رأينا فيما تقدم أن الذين فتحوا للفرنج باب الشام على مصراعيه، هم أسلاف ابن كثير، ومحمد كردعلي، وعمر تدمري، ومحمد علي الجوزو.

فالعار في ذلك على أسلافكم، ويمتد العار إليكم، لأنكم لم تنكروا عليهم خيانتهم، أما الفاطميون فسنظل نكرر ونكرر ونكرر أنهم لم يكونوا موجودين، وأن الجماليين الذين خلفوهم دافعوا دفاع الأبطال لذود الصليبيين لا سيما عن القدس...

وابن كثير هذا الذي يفيض قلمه بتلك البذاءات عن الفاطميين هو نفسه الذي يقول عن واحد من أولئك الفاطميين من الصفحة ٢٨٤ من المجلد الحادي عشر من كتابه: البداية والنهاية:

كان المعز قبحه الله فيه شهامة، وقوة حزم، وشدة عرام، وله سياسة، وكان يظهر أنه يعدل، وينصر الحق.

هذه هي الصفات التي كان يتحلى بها الفاطميون والتي أنطق الله بها ابن كثير رغماً عنه: الشهامة، وقوة الحزم، وشدة العرام، والسياسة، والعدل، ونصرة الحق.

ومع ذلك فابن كثير لا يتورع عن أن يقول عن صاحب هذه الصفات: قبحه الله، وأن يصف قومه الذين لا يقلون عنه في

التحلي بهذه الصفات بما وصفهم به، وأن يشتمهم بما شتمهم.

نحن لا نريد أن نتحدث عن أمجاد الفاطميين إلا بما ذكره ابن كثير نفسه، وبما أرغمه الله على تدوينه في كتابه نفسه فهو يقول عن إحدى وقائعهم وهو يتحدث عن أحداث سنة ٣٥١: وفيها فتح المعز الفاطمي حصن طبرمين من بلاد المغرب، فتحه قسراً بعد محاصرة سبعة أشهر ونصف. وقصد الفرنج جزيرة اقريطش فأستنجد أهلها المعز فأرسل إليهم جيشاً فانتصروا على الفرنج.

وقال في أحداث سنة ٣٥٣: وكان من عزمهم (الروم) أن يستحوذوا على البلاد الإسلامية كلها. . . ثم يقول: وفيها كانت وقعة المجاز[١] ببلاد صقلية، وذلك أنه أقبل من الروم خلق كثير، ومن الفرنج ما يقارب مئة ألف، فبعث أهل صقلية إلى المعز الفاطمي يستنجدونه، فبعث إليهم جيوشاً كثيرة في الأسطول، وكانت بين المسلمين والمشركين وقعة عظيمة، صبر فيها الفريقان من أول النهار إلى العصر، ثم قتل أمير الروم منويل، وفرت الروم، وأنهزموا هزيمة قبيحة، فقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وسقط الفرنج في واد من الماء عميق، فغرق أكثرهم، وركب الباقون في المراكب، فبعث الأمير أحمد صاحب صقلية في آثارهم مراكب أخر، فقتلوا أكثرهم في البحر أيضاً، وغنموا في هذه الغزوة كثيراً من الأموال، والحيوانات، والأمتعة، والأسلحة.

---

(١) سماها طابعو الكتاب واقعة (المختار) وهي: واقعة المجاز.

هو يعترف أنه كان من عزم الروم الاستحواذ على البلاد الإسلامية، ويعترف أن جيوش الفاطميين هي التي أحبطت عزمهم وردتهم عن البلاد الإسلامية. كما اعترف من قبل أن جيش الفاطميين هو الذي أنجد مسلمي جزيرة اقريطش من الغزو الفرنجي فانتصر المسلمون على غازيهم من الفرنج.

يعترف بذلك، ثم يصف الفاطميين بما وصفهم به، ويأتي اليوم أستاذ الجامعة الأكاديمي، أستاذ الجامعة حامل الدكتوراه: عمر تدمري فيستشهد بأقواله ويرددها على المنابر.

ولتزداد معرفة بابن كثير ومتبني أقواله، نقول: أنه وهو يذكر أحداث سنة ٣٥١، يذكر انتصار البيزنطيين على سيف الدولة الحمداني في إحدى المعارك ودخولهم حلب، فيقول: إن سيف الدولة فيه تشيع، لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء!..

إن ابن كثير الذي يدعي الإسلام، والغيرة عليه لا يبالي أن يشمت بانتصار البيزنطيين على الحمدانيين ما دام الحمدانيون شيعة.

ولكن الله يخزي ابن كثير بقلم ابن كثير نفسه، إذ تضطره الأحداث لأن يتمّم كلامه السابق قائلاً عن سيف الدولة: بعث مولاه نجا، فدخل بلاد الروم، فقتل منها خلقاً كثيراً، وسبى جمعاً غفيراً، وبعث صاحبه مع جيش طرطوس فدخلوا بلاد الروم فغنموا وسبوا، ورجعوا سالمين.

ولتعرف من هو ابن كثير، هذا الذي يتبنى الدكتور عمر تدمري أقواله ويخطب بها على المنابر نذكر لك شيئاً مما سجله في تاريخه: (البداية والنهاية):

فهو عندما يتحدث عن وفاة الأشرف بن العادل الأيوبي يقول عنه في الصفحة ١٤٧ من المجلد الثالث عشر: أنه كان يعاني الشراب أي أنه كان سكيراً. ثم يقول عنه في الصفحة التالية: ولما توفي رآه بعض الناس وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الصالحين، فقال: ما هذا وقد كنت تعاني الشراب في الدنيا؟ فقال: ذاك البدن الذي كنا نفعل به ذاك عندكم، وهذه الروح التي كنا نحب بها هؤلاء فهي معهم.

ثم يعقب ابن كثير على هذا القول بقوله: ولقد صدق رحمه الله، قال رسول الله(ص): المرء مع من أحب. وهكذا فعلى رأي ابن كثير: لا بأس بارتكاب المعاصي ومنها شرب الخمر، ما دام مرتكبها يحب بعض الصالحين على أن الطامة الكبرى هي ما ذكره في الصفحة١٢٩ من المجلد الثاني عشر عن الاختلاف في إباحة الولدان في الجنة، وما قيل في الإباحة وعدم الإباحة بين أبي علي بن الوليد وأبي يوسف القزويني، وأنه يباح لأهل الجنة وطء الولدان في أدبارهم، فمال هذا إلى إباحة ذلك؛ لأنه مأمون المفسدة هناك. وقال أبو يوسف: إنّ هذا لا يكون، لا في الدنيا ولا في الآخرة ومن لك أن يكون لهم أدبار، وهذا العضو ـ وهو الدبر ـ إنما خلق في الدنيا لحاجة العباد إليه لأنه مخرج الأذى

عنهم، وليس في الجنة شيء من ذلك، وإنما فضلات أكلهم عرق يفيض من جلودهم، فإذا هم ضمر فلا يحتاجون إلى أن يكون لهم أدبار، ولا يكون لهذه المسألة صورة بالكلية!!

هذا هو المؤرخ الذي يستشهد بأقواله الدكتور عمر تدمري ويخطب بها على المنابر!.. وأنه ليشرف الفاطميين وغير الفاطميين أن يشتمهم من تشغله في تاريخه أدبار الولدان!.. ولا يشرف الدكتور عمر تدمري أن يكون هذا مقتداه ومصدر أفكاره..

وابن كثير هذا الذي افترى على الفاطميين ما افترى، عندما يمر بخيانة الأيوبيين يمر بها مراً سريعاً لا يلفت النظر، فهو مثلاً عندما يتحدث عن تنازل العادل عن البلاد للصليبيين يقول: وأطلق لهم شيئاً من البلاد[1] وعندما يذكر تحالف الأيوبيين، الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والناصر داود صاحب الكرك، والمنصور صاحب حمص ـ عندما يذكر تحالف هؤلاء الأيوبيين مع الصليبيين على قتال قريبهم الأيوبي الآخر الصالح أيوب صاحب مصر، يذكر ذلك بدون أي اهتمام وأي إنكار[2].

وعندما يذكر انضمام القاضيين صدر الدين بن سني الدولة ومحيي الدين بن الزكي إلى هولاكو، وانضمام الملك السعيد بن العزيز بن العادل الأيوبي إلى المغول أيضاً وقتاله معهم في معركة

---

(١) ابن كثير، ج١٣، ص ٣٧.
(٢) ابن كثير، ج١٣، ص ٦٤.

عين جالوت[1]، ومكاتبة الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل الأيوبي لهولاكو، وحثه على القدوم إلى الشام مرة أخرى، وجواب المغول له بالثبات، ونيابة البلاد، وأنهم قادمون عليه لفتح الديار المصرية[2] ـ عندما يذكر ابن كثير ذلك لا يرى فيه شيئاً، ولا يرى أن هؤلاء الخونة يستحقّون حتى كلمة تقريع! . .

ثم لا يبالي أن يفتري على الأبرياء الشرفاء المخلصين!

والدكتور عمر تدمري لم تَرُعْه هذه الخيانات الصريحة المملوء بها وبأمثالها كتاب ابن كثير، فلم يشر إليها بشيء في كل ما كتب ودون، بل تمسك بالافتراءات والأباطيل والبذاءات والشتائم!

ولا يكتفي التدمري بالتمسك بأذيال ابن كثير، بل لجأ إلى نظير لابن كثير، هو ابن الفرات، فنقل عنه ما كان عليه أن يخجل من قراءته، ولكنه ـ وهو يوافق هواه وعصبيته ـ انحدر مع ابن الفرات إلى دركات الخزي حين نقل عنه هذا القول الذي مهد له بقوله: وها هو ابن الفرات يورد رواية فيها الكثير من السخرية بالخليفة الفاطمي المراهق (الآمر بالله) وهو يتحدث عن سقوط مدينة طرابلس يقول فيها:

. . . وحكي أن السبب في أخذ طرابلس أنه لما ضايقها

(١) م.ن. ص ٢٢١.
(٢) م.ن. ص ٢٣٨.

الفرنج كتب من فيها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتها ويسأله الميرة، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة، فبينما هم في ذلك إذا بمركب قد أقبل، فما شكوا أن فيه نجدة، فطلع منه رسول وقال: قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة، وأنها تصلح للخدمة، وقد أمر بإرسالها إليه، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهي فعند ذلك أيسوا من نصره وضعفت قواهم.

إلى هذا المستوى انحط عمر تدمري، إلى هذا المستوى انحط من يعتبر نفسه مؤرخ الإسلام في بلاد الشام في هذا العصر!.

لقد انحط إلى حد تبني السفاهات، والمناداة بها شعاراً يواجه به جماهير الناس!..

يا عمر تدمري، إن طرابلس بلدك، وأنت تعرف أنها صمدت بأبطالها الشيعة بني عمار عشر سنين في وجه الصليبيين تقاتلهم، وتذودهم، وتتحمل مرارة حصارهم لها[1].

وأنها لم تستنجد بمصر، لأن مصر كانت هي الأخرى تقاتل الصليبيين، وتدفعهم عن حمى الإسلام بقواها المحدودة التي لا تستطيع أن تستغني عن جندي واحد منهم..

لقد استنجدت بأسلافك في بغداد الراتعين في دعة العيش المتنعمين بغضارة الحياة!..

---

(١) سيأتي الحديث مفصلاً عن بني عمار.

لقد استنجد وفدها بهم فردوه خائباً! وتركوها تلاقي مصيرها وحيدة! . .

لقد كنت أنتظر منك كل شيء. . ولكن لم يدر بخلدي أبداً أنك ستتبنى الأكاذيب المصوغة بالبذاءة وانعدام الحياء! . .

بين السلاجقة والصليبيين

سنة ٤٩١ هـ كان الصليبيون يحتلون أنطاكية ويتوغلون منها في بلاد الشام قاصدين القدس.

ويقول ابن الأثير عن حاكم أنطاكية السلجوقي (باغي سيان) أنه بمجرد أن سمع صوت بوق الفرنج يضرب عند السحر، وكان مع البوق عدد من الصليبيين لا يزيد على الخمسمائة ـ لما سمع (باغي سيان) صوت البوق دخله الرعب، ففتح باب البلد وخرج هارباً على وجهه، فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه، فقيل أنه هرب، فخرج من باب آخر هارباً، وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا[١].

ويقول ابن الأثير بعد ذلك بسطور: وكان الفرنج قد كاتبوا صاحبي حلب ودمشق (السلجوقيين) بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة، حتى لا يساعدا صاحب أنطاكية.

هكذا سلم السلاجقة باب العالم الإسلامي مفتوحاً

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٧٥، طبعة ١٩٦٦.

للصليبيين، فدخلوا منه حتى وصلوا إلى القدس!

هرب حامي الباب بسماعه صوت البوق فلم يرم بسهم، ولم يجرد سيفاً، ولم يشرع رمحاً دفاعاً عن البلد الذي أنفذ فيه سلطانه، واستصفى أمواله، وعاش فيه آمراً ناهياً مترفاً، فلما جد الجد لم يكن له هم إلا نفسه ففر هارباً لا يلوي على شيء، ولم يترك البلد وأهله وحدهم عرضة لمذابح الصليبيين، بل ترك حتى أسرته للقتل والسبي والأسر.

وصاحبا حلب ودمشق (السلجوقيان) لم يعنهما أن يحتل الصليبيون أنطاكية ثم ينطلقوا منها إلى أولى القبلتين وثالث الحرمين، لم يعنهما ذلك ما دام الصليبيون قد طمأنوهما بأنهم لن يتعرضوا لهما.

وفي السنة التي كان الصليبيون يزحفون فيها على العالم الإسلامي فيحتلون أنطاكية ويتقدمون إلى بيت المقدس، كان السلجوقيون في مكان آخر لا يكترثون بهذا، وإنّما يتقاتلون فيما بينهم فيقود دولتشاه مع بيغو أخي طغرل بك فريقاً، ويقود السلطان سنجر فريقاً ويدخلون فيما بينهم بمعارك دامية[1].

وفي السنة الثانية من احتلال القدس (سنة ٤٩٢) كان السلاجقة في شاغل عن هذا الاحتلال، وعن مذابح المسلمين في القدس، وعن الذل الذي غرق فيه المسلمون ـ كانوا في شاغل عن

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص ٢٧٩.

ذلك، وكانوا يتحاربون في مكان آخر، كان القتال دائراً بين السلطان (بركيارُق)[1] ....

---

(١) بركياروق (٤٨٧ ـ ٤٩٨ هـ = ١٠٩٤ ـ ١١٠٤ م) هو الابن الأكبر لملكشاه. بعد وفاة والده سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) قام النزاع بينه وبين إخوته غير الأشقاء: محمود بن تركان خاتون، وهو الابن الأصغر والابنين الأوسطين محمد وسنجر ابني زوجة ثالثة، ثم عمه تتمش بن ألب أرسلان من جهة ثانية، في تفاصيل ليس هنا مكان ذكرها.

وقد انحصر النزاع بعد خطوب بين بركياروق وأخويه محمد وسنجر، وأعلن محمد نفسه سلطاناً على همذان والري سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م). وبذلك صار للسلاجقة سلطانان في وقت واحد والحرب قائمة بينهما.

ثم استقر الأمر سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٣ م) على أن يتولى بركياروق المناطق الجنوبية: بلاد الجبال والعراق، ويتولى محمد المناطق الشمالية: آذربيجان وبلاد الأرمن ويتبعه سلاجقة الشام وسلاجقة الروم. على أن الاستقرار لم يستمر كما سيرى القارىء خلال البحوث القادمة.

يقول الدكتور حسين أمين في كتابه (تاريخ العراق في العصر السلجوقي) (ص ١١٩): إن هذا التخاصم والتنازع لم يكن سبباً في إسقاط الدولة السلجوقية أو في إضعافها، بل إنه أدى أخطر من هذا، أدى إلى أضعاف جبهة المسلمين، خاصة في منطقة الشام، مما سهل على الصليبيين أن يتمركزوا ويستولوا على كثير من المدن والبلاد.

ثم يقول: وخلاصة القول إن مملكة السلاجقة بعد وفاة ملكشاه بن ألب أرسلان واجهت مشاكل خطيرة أدت إلى انقسامات كبيرة وانشغل السلاطين والأمراء في العصر التالي عصر سلاجقة العراق عن مصالح الدولة إلى تثبيت مراكزهم ومخاصمة الواحد منهم للآخر وأصبحت الدولة نهباً مقسماً بين الأمراء والأتابكة العديدين. وكان الصليبيون قد سيطروا على كثير من ممتلكات السلاجقة ففي زمن محمود بن محمد بن ملكشاه انتزع الصليبيون =

ووالیه (أُنر)، وبین (إیران شاه) وحلفائه (الشوانكاره).

ومؤید الملك عبیدالله بن نظام الملك (الوزیر السلجوقي) لم یعنه وهو في بغداد ما یجري في القدس بل عناه الخلاف السلجوقي، فسار من بغداد لا إلى القدس لانجادها واستنقاذها، بل إلى حیث یقیم (أنر) لإنجاده واستنقاذه.

وأُنر هذا لم یعنه هو الآخر ما یجري في القدس على المسلمین، بل عناه أن الإسماعیلیین قد انتشر أمرهم في أصفهان فندب نفسه لقتالهم، وحصر قلعة على جبل أصفهان![1].

أُنر السلجوقي لم یر في انتشار أمر الصلیبیین في بلاد الشام ما یحفزه على أن یندب نفسه لقتالهم، وأن یسرع لحصار قلعة من قلاعهم. بل رأى في انتشار أمر مواطنیه الإسماعیلیین ما یحفزه على ذلك!.

وتسقط القدس ویجري ما یجري فیها على المسلمین، ویأتي المستنجدون من الشام إلى بغداد، بغداد السلجوقیة في ذلك الوقت.

= معظم بلاد الشام من ید الأمراء السلاجقة وكونوا فیها الإمارات الصلیبیة الأربع وهي: بیت المقدس وأنطاكیة وطرابلس والرها. ولم یبق في أیدي المسلمین إلا بعض المدن الداخلیة كدمشق وحلب. وظل للسلاجقة من ذلك سلطان قوي في إیران هو سنجر.

(١) الكامل لابن الأثیر: ج١٠، ص ٢٨١.

ويروي قصتهم ابن الأثير على هذا الشكل[1]:

«وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي (قاضي دمشق) أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذُكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال». (انتهى).

كان يومذاك في بغداد سلطتان: سلطة روحية بحتة هي سلطة الخلافة، وسلطة فعلية حاكمة هي سلطة السلاجقة.

وكل ما استطاع الخليفة أن يفعله هو أن يقنع ستة من الفقهاء أن يسيروا نجدة لإخوانهم في الشام، ومع أن هذه النجدة لا طائل وراءها، فإن هؤلاء لم يلبثوا أن رجعوا من أول الطريق..

أما السلطة الفعلية سلطة السلاجقة فقد أصمت أذنيها عن سماع الاستغاثة، وتجاهلت وصول المستغيثين منصرفة إلى شؤونها الخاصة.

هذه السلطة التي لم تتوان عن أن يسير بها رأس من رؤوسها الكبيرة، مؤيد الملك بن نظام الملك لإنجاد سلجوقي متنازع مع سلجوقي آخر.

---

(١) م.ن. ص ٢٨٤.

ويعبر ابن الأثير عن الموقف أحسن تعبير حين يقول: «واختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد»[1]. والمقصود بالسلاطين: سلاطين السلاجقة إذ لم يكن يومذاك من يدعىٰ بالسلاطين غيرهم.

ويبدو أن الخليفة المستظهر قد أحرج السلطان السلجوقي (بركيارُق)[2] فأرسل بركيارُق إلى كربوقا أتابك الموصل فذهب لإنقاذ أنطاكية. فكان من كربوقا ومن معه من القواد أن تحكمت بكربوقا أنانيته، وتغلبت على القواد وجنودهم الخيانة فأضاعوا أنطاكية، وفتحوا البلاد للصليبيين. . . ـ كما سيأتي بيانه ـ.

أما بركيارُق فقد كان مشغولاً عن الصليبيين بالاقتتال مع السلاجقة الآخرين!.

ففي سنة الزحف الصليبي واحتلال القدس، ومجيء الوفد الشامي للاستنجاد بالسلطة السلجوقية سنة ٤٩١ وعودته خائباً، في هذه السنة نفسها كان السلاجقة مشغولين بالتزاحم على التسلط على بغداد، فالسلطان محمد بن ملكشاه[3] ينازل أخاه بركيارُق

---

(١) الكامل ج١٠، ص ٢٨٤.

(٢) ابن الجوزي في المنتظم ج٩ ص ١٠٥، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٦١.

(٣) ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ = ١٠٧٣ ـ ١٠٩٢ م): هو ابن ألب أرسلان تولى الملك بعد اغتيال أبيه سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م)، ولكن عارضه عمه قاورد بن جغري حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب =

على السلطنة ويعلن نفسه سلطاناً ويقطع خطبة أخيه من بلاده ويقبض على زبيدة خاتون والدة أخيه السلطان بركيارُق ويسجنها ثم تقتل خنقاً[1].

وكان زعماء السلاجقة يتعاضدون، لا على التوجه إلى فلسطين لقتال الصليبيين، بل على التوجه لتوطيد أمر السلطان محمد، فيأتي سعد الدولة كوهرائين من بغداد، وكربوقا من الموصل، وجكرمش من الجزيرة، وسرخاب بنِ بدر من كِنْكَوَر، وغيرهم من غيرها ويتوجهون إلى السلطان محمد في مدينة (قم)، فيوفد كوهرائين إلى بغداد ليحمل الخليفة على أن يخطب فيها للسلطان محمد، فيستجيب الخليفة لذلك، ويُلقب السلطان محمد بلقب: غياث الدنيا والدين[2]!.

أي دين وأي دنيا كان هذا السلطان السلجوقي غياثهما؟

أما دنيا الإسلام في الأرض المقدسة فكانت موزعة في أيدي الصليبيين، وأما الدين فقد كان موؤوداً بسيوفهم!.

والسلاجقة مع ذلك يسمون سلطانهم الجديد اللاهي عن

= همذان فانهزم قاورد وقتل وسملت عيون ولديه.

واتسعت الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه حتى بلغت من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً بعد سقوط دمشق على يد قائده أتسز سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م).

(١) الكامل ج١٠، ص ٢٨٩.

(٢) م.ن. ج١٠، ص ٣٠٤.

ذلك، العاكف على استغلال سلطته في المسلمين ـ يسمونه: غياث الدنيا والدين!..

لقد كان غياث دنياهم فعلاً، أما الدين فلم يكن له فيهم من غياث، وأما دنيا القدس فقد كانت في مضيعة أي مضيعة.

ولم يسكت بركيارُق فجمع جموعه ـ وأمير عسكره ينّال بن أنوشتكين الجسامي ـ وسار ومعه غيره من الأمراء إلى واسط، يظلم جنوده الناس وينهبون البلاد، حتى بلغ بغداد، فلما بلغها كان قد خُطب له فيها قبل وصوله إليها بيومين!..

وهنا ضعفت عزائم الحلفاء الذين كانوا أجمعوا على تعضيد مزاحمة السلطان محمد، فأما جكرمش فاستأذن كوهرائين في العود إلى بلده بدعوى أن الأحوال قد اختلت، فأذن له!..

واتفق الآخرون على أن يصدروا عن رأي واحد لا يختلفون... ولما كانت الدنيا قد أخذت تقبل على السلطان بركيارُق، فقد كان رأيهم الواحد الذي لم يختلفوا فيه: أن كتبوا إلى بركيارُق يقولون له: أخرج إلينا، فما فينا من يقاتلك!.

فسار بركيارُق إليهم، فترجلوا وقبلوا الأرض وعادوا معه إلى بغداد!.

هذا السلطان وهؤلاء الأمراء، لم يذكر منهم ذاكر القدس وأفاعيل الصليبيين فيها، ولم يكن في خواطرهم التفكير في إنقاذها!.

لقد اجتمعوا من كل مكان، وما من مكان جاءوا منه إلا وفيه المقاتلة الأشداء، لقد استغلوا هؤلاء المقاتلة لتوطيد سلطانهم وإحكام أمرهم، وجرّدوا السيوف بعضهم على بعض، لا على أعداء الإسلام: فاتحي القدس، وذابحي المسلمين فيه.

وبغداد هذه التي عادوا إليها مجتمعين، ليوطدوا فيها سلطان بركيارُق بعد أن كانوا قد وطدوا فيها من قبل سلطان عدوه محمد بن ملكشاه.. بغداد التي لم تترهم فيها استغاثة المستغيثين بهم لإنقاذ القدس، بغداد التي شهدت القادمين من الشام يبكون العيون ويوجعون القلوب بذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال.

بغداد التي شهدت كل ذلك، وشهدتهم معرضين عن الإغاثة، متجافين عن المعونة فلم تبك عيونهم، ولم تتوجع قلوبهم، ولم تتحرك سيوفهم، بل أعرضوا عن الصوت المستغيث!..

بغداد تشهدهم اليوم متجمهرين فيها حول سلطانهم القديم الجديد بسيوف مشهورة، وألوية منشورة، ونفوس مسرورة!.

أما بركيارُق هذا، الذي اكتفى عند الاستنجاد به لإنقاذ مسلمي بلاد الشام من مذابح الصليبيين، وتخليص القدس من براثنهم، اكتفى بانتداب من خانوا الأمانة وعلى رأسهم كربوقا، ولم تحفزه النخوة على أن يسير على رأس جموعه الغفيرة لجهاد الصليبيين.

أما بركيارُق هذا فهو يدخل بغداد اليوم ظافراً، مزهواً بترديد اسمه في الخطب على منابرها، غير متذكر أن الصليبيين دخلوا القدس ظافرين، مزهوين بترديد شعاراتهم على منبر المسجد الأقصى ومحاريب بيت المقدس. .

وعوضاً عن أن يتوجه بجموعه إليهم، قاد تلك الجموع لقتال أخيه محمد، وكان أخوه مستعداً هو الآخر للقتال، وبدلاً من أن يمحوا كل من الأخوين ما في قلبه من ضغائن علىٰ الآخر، ويملئا قلبيهما بالضغائن على الصليبيين الذين أجروا سيول الدماء في رحاب أولى القبلتين ـ عوضاً عن ذلك صمما أن يتقاتلا ويتركا الصليبيين في القدس آمنين مطمئنين، متحفزين للانطلاق إلى كل مكان إسلامي.

ويصف ابن الأثير القتال بين الأخوين بهذا الوصف(١):

«كان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل، وكان محمد في القلب ومعه الأمير سرمز، وعلى ميمنته أمير آخرُ، وابنه أياز، وعلى ميسرته مؤيد الملك والنظامية.

وكان السلطان بركيارُق في القلب، ووزيره الأعز أبو المحاسن، وعلى ميمنته كوهرائين، وعز الدولة بن صدقة بن مزيد، وسُرخاب بن بدر، وعلى ميسرته كربوقا وغيره. فحمل كوهرائين من ميمنة بركيارُق على ميسرة محمد، وبها مؤيد الملك

---

(١) ج١٠، ص٢٩٥.

والنظامية، فانهزموا ودخل عسكر بركيارُق، في خيامهم فنهبوهم. وحملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارُق فانهزمت الميسرة، وانضافت ميمنة محمد إليه في القلب على بركيارُق ومن معه، فانهزم بركيارُق، ووقف محمد مكانه، وعاد كوهرائين من طلب المنهزمين الذين انهزموا بين يديه، وكبا به فرسه فأتاه خراساني فقتله، وأخذ رأسه، وتفرقت عساكر بركيارُق، وبقي في خمسين فارساً».

وعادت الخطبة للسلطان محمد ببغداد

إذا كان بقيادة محمد بن ملكشاه عشرون ألف مقاتل، فلا شك أن بقيادة أخيه بركيارُق ما لا يقل عن هذا العدد إن لم يزد عليه، فهذه أربعون ألف مقاتل كان على السلاجقة أن يسيروا بها لقتال الصليبيين، وصدهم عن التمدد في البلاد الإسلامية، وكانوا مستطيعين أن يضيفوا إليها أمثالها، لو استجاشوا الناس واستنفروا الرجال من أقصى خراسان إلى أقصى الشام، لقتال الصليبيين. ولكن قتال الصليبيين لم يكن يعنيهم، وإنما كان الذي يعنيهم هو الاقتتال فيما بينهم، وسفك دماء المسلمين في سبيل مطامعهم الشخصية.

على أن بركيارُق لم ييأس فاتجه إلى (الري) ثم إلى نيسابور، ووجد من يحالفه على قتال أخيه الآخر (سنجر) في معركة طاحنة انهزم فيها بركيارُق.

وعاد فاستطاع جمع جيش مكون من خمسين ألف مقاتل، تقابل به مع جيش أخيه السلطان محمد المكون من خمسة عشر ألفاً، فانتصر هذه المرة بركيارُق بجيشه الأكثر عدداً على جيش أخيه الأقل عدداً[1].

ولا بد من أن نشير هنا إلى أن عبيدالله مؤيد الملك بن نظام الملك كان في صف السلطان محمد، فأسر في هذه المعركة، فقتله بركيارُق بيده بعد أن سبّه وأهانه، وبقي ملقى على الأرض عدة أيام إلى أن أذن بركيارُق بدفنه، فحمل إلى تربة أبيه بأصبهان فدفن فيها.

هكذا كان يموت هؤلاء الناس هذه الميتات الذليلة، بدل أن يموتوا في ساحات الشرف أعزاء في قتال أعداء البلاد.

وهكذا يتبين أن بركيارُق الذي استطاع بعد هزائمه المتتابعة أن يجمع جيشاً مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل، فيقاتل به أخاه في سبيل الملك، كان يستطيع جمع أضعاف هذا الجيش ليقاتل به الصليبيين. ومضى بركيارُق بعد هذا النصر إلى (الري) فوافاه إليها فيمن وافاه (كربوقا) صاحب الموصل.

إن كربوقا هذا المسؤول الأول عن هزيمة المسلمين في أنطاكية، والذي كانت الحروب الصليبية ستنتهي عند أنطاكية لولا ما جناه هو ومن معه من القواد، والأمراء، والجمهور، من جنايات

---

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص ٣٠٤.

الأنانية، والخيانة. إن كربوقا هذا قد عاد، بعد أن جنى ما جنى إلى إمارته في الموصل، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأنه لم يكن هو ومن معه السبب، فيما جرّته الحروب الصليبية على المسلمين.

وها هو يظهر دائماً في الأحداث، مشاركاً فيها مع هذا الجانب، أو ذاك الجانب، وقد رأيناه من قبل ينضم إلى جانب السلطان محمد علىٰ أخيه بركيارُق، وها هو الآن ينضم إلى بركيارُق.

إن الذي لم يبال أن يكون هو وأعوانه السبب في نكبة العالم الإسلامي، ويعود بعد أن فعل ما فعل عند أنطاكية، يعود أميراً مزهواً، هل يبالي بأن يتلون كل يوم بلون، وأن ينصر هذا السلطان اليوم، ثم يعود فيخذله منضماً إلى عدوه؟!.

إنه على خطى بركيارُق، وغير بركيارُق من أولئك السلاجقة الذين يرون تهدم العالم الإسلامي بالأيدي الصليبية، فيشاركون في التهديم بخياناتهم، وأنانياتهم، وسفك دماء المسلمين فيما بينهم، بدل أن تسفك في جهاد الصليبيين.

على أنهم بلغوا أحط دركات النذالة في أخلاقهم الشخصية، فمحمد بن ملكشاه يقبض على زوجة أبيه وأم أخيه زبيدة خاتون فيهينها ويسجنها ثم يقتلها خنقاً. وبركيارُق يقبض على زوجة أبيه ووالدة أخويه محمد وسنجر ويبادل بها الأسرى مع أخيه سنجر.

ومَن هذه صفاتهم الشخصية التي لا يبالون معها أن يهتكوا

نساء آبائهم وإخوتهم، أيطلب منهم أن يحافظوا على شرف الإسلام وعزة المسلمين؟!.

مضى محمد بعد هزيمته إلى جرجان مستنجداً بأخيه سنجر ـ وهما لأم واحدة ـ وكان لم يبق مع محمد سوى ٣٠٠ فارساً فوافاه أخوه سنجر من خراسان في عساكره.

يقول ابن الأثير[1]:

سارا من جرجان إلى دامغان فخربها العسكر الخراساني (عسكر سنجر) ومضى أهلها هاربين إلى قلعة كردكوه، وخرّبَ العسكر ما قدروا عليه من البلاد، وعم الغلاء بتلك الأصقاع حتى أكل الناس الميتة والكلاب، وأكل الناس بعضهم بعضاً. وسارا إلى الريّ، فلما وصلا إليها انضم إليهما النظامية وغيرهم فكثر جمعهما وعظمت شوكتهما وتمكنت من القلوب هيبتهما (انتهى).

كان الصليبيون يفتكون بغرب العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسه كان السلاجقة يفتكون بشرق هذا العالم. وليتهم حين لم يهبوا لإنقاذ ذلك الغرب كفوا شرورهم عن ذاك الشرق.

في الأيام التي كان فيها الصليبيون يخربون طرابلس وصيدا وصور ويشردون أهلها وأهل غيرها من مدن وقرى بلاد الشام، كان السلاجقة يخربون (دامغان)، ويخربون ما قدروا عليه من البلاد، وإذا كان ابن الأثير قد اكتفى بذكر مدينة دامغان فإن قوله: خربوا ما

---

(١) ج١٠، ص٣٠٥ـ٣٠٦.

قدروا عليه من البلاد كافٍ للدلالة على عظم التخريب، لأنّ ما قدروا عليه كان كبيراً.

وإذا كان الصليبيون قد بلغوا بالمذابح أقصى مداها في القدس، فلا شك أن المذابح قد بلغت حداً بعيداً في دامغان وغير دامغان مما سيطر عليه السلاجقة. والدليل على ذلك ما ذكره ابن الأثير من فرار من سلم إلى القلاع المنيعة.

ومهما يكن من أمر فلم يبلغنا أن المسلمين في السيطرة الصليبية قد أكلوا الميتة والكلاب، وأكلوا بعضهم بعضاً. ولكن ذلك جرى على المسلمين في السيطرة السلجوقية المزامنة للسيطرة الصليبية.

الأحداث التي تحدثنا عنها فيما تقدم من القول والتي جرت في السيطرة السلجوقية على شرق العالم الإسلامي جرت سنة ٤٩٤ هجرية.

فلنر ماذا كان يجري في السنة نفسها على غرب العالم الإسلامي: في سنة ٤٩٤ التي كان الملكان السلجوقيان الأخوان المسلمان يدخلان بعسكرهما مدينة دامغان فيخربانها ويشردان أهلها فيهيمون على وجوههم، ثم يخربون كل ما قدروا على تخريبه من البلاد، ثم يضطر المسلمون إلى أكل الميتة والكلاب وأكل بعضهم بعضاً.

في تلك السنة (٤٩٤) كان الصليبيون يتقدمون فيحتلون مدينة سَروج من بلاد الجزيرة ويقتلون كثيراً من أهلها ويسبون

حريمهم وينهبون أموالهم، ولم يسلم إلا من مضى منهزماً[1].

دامغان في شرق العالم الإسلامي، وسَروج في غرب هذا العالم: مصير واحد لقياه في زمن واحد.. مصير مأساوي فاجع..

القوى التي دخلت دامغان وامتدت منها إلى ما استطاعت الامتداد إليه من بلاد.. هذه القوى لم تكن وظيفتها احتلال دامغان وتخريبها وتشريد أهلها، كانت وظيفتها الدفاع عن سروج وحمايتها من التخريب وحماية أهلها من القتل والسبي والنهب.

لم يكن مكان محمد بن ملكشاه ومكان أخيه سنجر في دامغان، بل كان مكانهما في سروج.

في السنة نفسها التي كان ينطلق فيها ابنا ملكشاه السلجوقي سنة ٤٩٤ ـ ينطلقان من دامغان حتى يبلغا (الري) كان الصليبيون ينطلقون فيبلغون مدينة حيفا فيملكونها عنوة... ويظلون في انطلاقهم فيملكون مدينة (أرسوف) بالأمان ويخرجون أهلها منها... وينطلقون فيملكون مدينة (قيسارية) بالسيف ويقتلون أهلها وينهبون ما فيها...

حملتان على العالم الإسلامي في سنة واحدة، حملة شرقية وحملة غربية، حملتان توحدتا في الهدف: تخريب المدن وذبح أهلها وسبيهم ونهبهم!.

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

حملتان توحدتا في الهدف، وكان من حق الإسلام أن تتناقضا، كان من حق الإسلام أن لا يكون ميدان إحداهما في الشرق وميدان الأخرى في الغرب، بل أن تلتقيا معاً في الغرب، أن تلتقيا متصادمتين تصادماً دموياً يرد الغربية إلى غربها البعيد الذي قدمت منه! . .

لم تنته الحرب بين السلاجقة فالنصر الذي أحرزه بركيارُق لم تدم نتائجه طويلاً. لقد كان من نتائج هذا النصر أن أقبل الناس على بركيارُق فاستطاع أن يجمع جيشاً مكوناً من مئة ألف مقاتل! .

وهنا نعود إلى ما قلناه من قبل من أن استصراخ العالم الإسلامي كان ممكناً، وأن تأليف جيش قوي كبير يضم مئات الألوف يزحف للقضاء على الصليبيين كان مستطاعاً لو كان هؤلاء القادة مخلصين للإسلام مهتمين بحاضر المسلمين ومستقبلهم.

فإذا كان بركيارُق قد جمع حوله مئة ألف مقاتل، من أجل هدف تافه لايعدو أطماع الدنيا، فإنه مستطيع أن يجمع أضعاف هذا العدد من أجل هدف سام، لو كانت له أهداف سامية! . وما أبعد هؤلاء السلاجقة عن الأهداف السامية! .

على أن بركيارُق بعد أن تحقق له النصر لم يفكر بعيداً، ولم يعد لهذا الجيش ما يكفل له دوام التجمع، والواقع هو أن مثل هذا الجيش كان يجب أن يكون له هدف واضح كبير يكفل استمرار بقائه، ولكن لا السلطان كان يملك هذا الهدف، ولا من هم حول السلطان كانوا يملكونه.

ففوجئوا أول ما فوجئوا بفقدان الحيرة، فلم يحاولوا تلافي أمر فقدانها، لفقدان الهدف، لذلك أخذوا يتفرقون فعاد دبيس بن صدقة إلى أبيه في الحلة.

وقامت ثورة على السلطان بركيارُق بقيادة الملك مودود بن إسماعيل بن ياقوتي بأذربيجان، فسيرّ إليه كربوقا في عشرة آلاف فارس.

دائماً هذا الإسم الكريه كربوقا أمامنا، ودائماً هو في صميم الأحداث، لا يلويه عنها الخزي الذي لحق به في أنطاكية، ولا العار الذي جلله بفتحه باب بلاد الشام أمام الصليبيين ليلجوا منه إلى فتح القدس.

واستأذن الأمير (إياز) في أن يقصد داره بهمذان يصوم بها شهر رمضان ويعود بعد الفطر فأذن له، وتفرقت العساكر لمثل ذلك، وبقي بركيارُق في العدد القليل[1].

على أن بركيارُق فوجىء بأن أخويه محمد وسنجر قد جمعا الجموع، وحشدا الجنود، وأنهما لما بلغهما تفرق ما كان لديه من جيوش جدّاً في السير إليه، مسرعين في طي المراحل مرحلة بعد مرحلة، عازمين على مباغتته قبل أن يستطيع تجميع من كانوا مجتمعين حوله. ولما أصبحا غير بعيدين عنه صمم على اللحاق بإياز في همذان.

---

(١) الكامل لابن الأثير: ج١٠، ص٣٠٦.

ولكن الناس هم الناس فلما لاح لهم أن الدنيا قد بدأت تدبر عنه، طمع فيه من كان يهابه وأيس منه من كان يرجوه، كما قال ابن الأثير.

وكان في أول المنقلبين عليه إياز نفسه، فقد بلغه وهو في الطريق إليه أن إيازاً قد بعث إلى السلطان محمد لينضم إليه. لذلك حول بركيارُق وجهة سيره عن همذان إلى خوزستان فكتب وهو في الطريق إلى بني برسق يطلب إليهم الوصول إليه. وكان هؤلاء قد بلغهم امتناع إياز عليه، كما بلغهم تعاظم قوة محمد فرفضوا الاستجابة.. لذلك اضطر للتوجه إلى العراق، وفي طريقه إلى العراق وعند وصوله إلى حلوان فوجىء بتطور لم يكن ينتظره، ذلك أن إياز قد بعث إليه أن يتوقف عن السير إلى العراق لأنه سائر إليه.

ولم يكن ذلك كرم أخلاق من إياز، بل كان حلقة من سلسلة الانتهازية والتذبذب والوصولية، فإن محمد بن ملكشاه قد رفض قبول إياز بعد أن صار مستغنياً عنه بما أصبح يملك من قوة واقتدار، وأكثر من ذلك فقد وجه حملة إلى همذان مما اضطر محمداً إلى الفرار عنها متخلياً عن ذخائره فيها من مال وكراع ودواب، ما كان شيئاً كثيراً وقع كلُّه غنيمة في يدي محمد.

والتقى بركيارُق بإياز فكان كل ما بقي لهما من الجند معاً خمسة آلاف فارس.

وقد كان جديراً ببركيارُق أن لا يقبل إيازاً بعد ما بدا له من خيانته، ولكنه كان بحاجة لأي رجل ولأن المحنة وحدت بينهما.

ولم يكن أمام الرجلين سوى مواصلة السير إلى العراق حيث وصلا بغداد، بعد أن كان الخليفة قد أرسل موكباً لاستقبال بركيارُق، على أن بركيارُق باعتباره السلطان الشرعي كان يعوزه المال للإنفاق على نفسه وعلى عساكره فأرسل إلى الخليفة طالباً إنجاده بالمال، وبعد المداولات والمراجعات تقرر أن يصرف له خمسين ألف دينار.

ولم يكن ذلك كافياً فامتدت أيدي بركيارُق وأصحابه إلى أموال الناس، ولم يتورعوا في ذلك عن أي شيء حتى ضج الناس وتمنوا زوالهم.

على أن من أفظع ما فعلوه هو استصفاؤهم أموال قاضي جبلة أبي محمد عبدالله بن منصور المعروف بابن صلحية، فقد كان لهذا الرجل نكايات في الصليبيين أقضّت مضاجعهم، ثم أدرك أنهم لن يتركوه بعد أن فعل بهم ما فعل فرحل بأهله وماله إلى العراق لائذاً به وترك أمواله في مدينة الأنبار وجاء بغداد ليقرر كيف يستقر.

ولما عرف بركيارُق بوصوله أرسل إليه أنه بحاجة إلى ثلاثين ألف دينار فاستجاب الرجل لذلك وقال أن أمواله في الأنبار بالدار الذي نزلها، فلما عرفوا ذلك أرسلوا إلى الأنبار من استولى على كل ما يملك الرجل من مال.

التلاقي في بغداد

واصل السلطان محمد وأخوه سنجر سيرهما إلى بغداد بعد أن استولى محمد على همذان وغير همذان، وكان قد استطاع أن يجمع جيشاً يزيد على عشرة آلاف فارس، كان عدته في الزحف إلى بغداد. وكان بركيارُق في بغداد مريضاً يتوقع أصحابه موته في كل ساعة.

وكانت أخبار تقدم محمد إلى بغداد تصلهم. يقول ابن الأثير: «فماج أصحابه وخافوا واضطربوا وحاروا، وعبروا به في محفّة إلى الجانب الغربي فنزلوا بالرملة[1] ولم يبق في بركيارُق غير روح يتردد ويتقن أصحابه موته وتشاوروا في كفنه وموضع دفنه».

ويتابع ابن الأثير كلامه قائلاً: «فبينما هم كذلك إذ قال لهم: إني أجد نفسي قد قويت وحركتي قد تزايدت، فطابت نفوسهم وساروا، وقد وصل العسكر الآخر، فتراءى الجمعان بينهما دجلة وجرى بينهما مراماة وسباب، ونهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط»[2].

إذن فإن محمداً قد دخل بغداد دون أن يلقى مقاومة، فمرض

---

(١) في معجم البلدان: الرملة: محلة خربت نحو شاطىء دجلة مقابل الكرخ ببغداد.

(٢) الكامل ج١٠ ص٣٠٩.

بركيارُق، وقد شغله وشغل أصحابه عن التفكير في الدفاع، وكان همهم النجاة بأنفسهم.

وكان من الطبيعي أن يضطربوا ويخافوا ويحاروا، فموت بركيارُق سيجعلهم وجهاً لوجه أمام انتقام محمد، ومع ذلك فقد تماسكوا وحملوا سلطانهم في محفة عابرين به دجلة من جانب بغداد الشرقي إلى جانبها الغربي، لأن وصول محمد إلى بغداد سيكون في الجانب الشرقي وبذلك يكون دجلة حاجزاً بينهم وبين جيوش محمد.

على أننا لا بد لنا من أن نتساءل عن حقيقة هؤلاء الأصحاب، حقيقتهم العددية، وحقيقتهم العسكرية، وحقيقتهم الخلقية. ونعني بالحقيقة الخلقية هنا: ما إذا كان ثباتهم مع بركيارُق بعد أن صار إلى ما صار إليه من الوهن: الوهن الجسدي والوهن العسكري، هو وفاء منهم للرجل الذي كان بالأمس سلطانهم القوي الراتعين في ظله في خفض من العيش ودعة ونفوذ سلطان، أم أن ذلك خوف من المصير المجهول الذي ينتظرهم من العدو المنتصر، خوف يدعوهم إلى التماسك لمواجهة الخطر الداهم؟!.

ثم ما هي حقيقتهم العددية الموصلة إلى حقيقتهم العسكرية؟

إن ابن الأثير يقول: «وساروا وقد وصل العسكر الآخر، فتراءى الجمعان بينهما دجلة، وجرى بينهما مراماة وسباب، ونهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط.

وهذا يدل على أن بقايا جيش كان لا يزال يحيط ببركيارُق، بقايا جيش ليس مؤهلاً للصدام بجيش محمد، وكل ما استطاعته هذه البقايا هو أن ترامي أعداءها بالنبل من وراء نهر دجلة وأن تتبادل وإياها السباب.

ومن فجائع هؤلاء الحكام المتنازعين على التحكم بالشعوب أنهم يستحلون نهب تلك الشعوب، فهؤلاء جماعة بركيارُق نهبوا البلاد التي مروا فيها، من بغداد إلى واسط.

والخليفة المستظهر بالله ـ وقد أيقن برحيل بركيارُق، بل ربما كان متوقعاً موته ـ أسرع فأرسل إلى محمد توقيعاً يتضمن الامتعاض من سوء سيرة بركيارُق ومن معه والاستبشار بقدومه!..

ويقول ابن الأثير: وخرج الخلق كلهم إلى لقائه!.

على أن إقامة محمد وأخيه سنجر لم تمتد في بغداد أكثر من حوالي شهرين قصدا بعدهما العودة إلى موقعيهما: محمد إلى همذان، وسنجر إلى خراسان.

وإذا كان جماعة بركيارُق قد نهبوا البلاد من بغداد إلى واسط، ثم نهبوا واسط نفسها كما سيأتي، فإن جيش محمد الذاهب إلى همذان لم يقصر هو الآخر في النهب، فيقول ابن الأثير عنهم: فنهبوا البلاد وخرّبوها!..

بركيارُق من جديد

يبدو أن مماشاة الخليفة لمحمد وطعنه ببركيارُق قد بلغت بركيارُق فاعترض المنتمين إلى الخليفة في واسط واسمعهم من القول في الخليفة ما قال ابن الأثير: أنه يقبح نقله، وبلغ ذلك الخليفة فأرسل يطلب إلى محمد العودة إلى بغداد فعاد، وإذا كان ابن الأثير يقول أن الخليفة عزم على الحركة مع محمد لقتال بركيارُق، فلنا أن نقول: أن استدعاء الخليفة لمحمد لم يكن في الأصل للانضمام إليه في مهاجمة محمد، بل خوفاً من أن يستفرد بركيارُق الخليفة فينقضّ عليه في بغداد.

على أن محمداً طمأن الخليفة بأنه يستطيع وحده تأديب بركيارُق ولا حاجة لمسير الخليفة معه، وبالفعل ترك محمد بغداد معاوداً السير إلى مقصده.

أما بركيارُق الذي وصل إلى واسط مريضاً، فإن وصوله إليها أرعب عسكر واسط، كما أرعب أهلها، لأن الجميع لا يدرون أي موقف يتخذونه منه، فإذا والوه فربما غلب محمد على الأمر فانتقم منهم، وإذا قاوموه، فهو مقيم فيهم يستطيع أذيتهم، لذلك ارتأوا حلاً وسطاً، لا هو موالاة، ولا هو معاداة. بل هو موقف سلبي إذا كان أقرب إلى عدم الموالاة فهو ليس صريح المعاداة.

أما العسكر فقد أخذوا نساءهم وأولادهم وأموالهم

وانحدروا إلى الزبيدية[1] وأقاموا هناك.

وأما الأهلون فقد لزموا أول الأمر بيوتهم، فلم يكن يرى في الطرق والأسواق أحد منهم، ولكنهم لم يسلموا، فإن عسكر بركيارُق نهب البلد.

وهكذا نرى أن لا صلة تربط بين هؤلاء الحكام وبين الشعب، وأن لا ولاء لهم في قلوب أبنائه، ولا محبة تربطهم به، فإذا قوي أمر أحدهم انصاع الناس له مدّاحين، وإذا ضعف انقلبوا عليه ناكثين.

وهكذا فبعد أن شفي بركيارُق من مرضه وبدا أنه قد استقر في واسط، بعث إليه العسكر من الزبيدية يطلبون الأمان ليحضروا إليه، فأمنهم وجاءوا فاستقوى بهم، ثم عضدوه في السير معه إلى بني برسق الذين لم يلبثوا أن قدموا إليه، وهكذا أخذ يتقوى شيئاً فشيئاً حتى صارت له قوة عسكرية مرموقة، فرأى عند ذلك أن يهب لمطاردة أخيه محمد، فالتقيا ومحمد في طريقه إلى نهاوند، وكانا في قوتين متساويتين، هي أربعة آلاف فارس لدى كل واحد منهما.

ولما كادت القوتان تتصادمان، التقى بعض مقدمي القوتين وتذاكروا في أمر الصلح بين الأخوين بعد أن رأوا ما آل إليه أمر الناس من البلاء للنزاع بينهما.

ولم يكن أبلغ في التعبير عن نفور الشعب مما يجري واعتقاد

---

(١) الزبيدية: قرية قرب واسط، بينهما نحو فرسخين أو ثلاثة.

الناس أنهم إخوان يحملهم حكامهم على التذابح، من أنه حين التّصافّ بين الفريقين وخروج مبارز من أحد الصفين، وخروج مبارز له من الصف الآخر، كانا بمجرد أن تقع عين أحدهما على الآخر يعتنق كل واحد منهما مبارزه ويسلم عليه، ثم يعود عنه.

وانتهى أمر مفاوضات الصلح إلى أن يتقاسم الأخوان البلاد، ويتقاسما اللقب، فيكون لقب بركيارُق: (السلطان) ولقب محمد: (الملك)، على أن يكون له جنزة[1] وأعمالها، وأذربيجان، وديار بكر، والجزيرة، والموصل ومضى كل منهما إلى مقره.

ثم عاد محمد فاقتنع أنه مغبون في هذه المصالحة، وأن الأمراء خامروا عليه فعاد الأمر إلى ما كان عليه من التنازع في تفاصيل مهلكة دامية نتجاوز ذكرها.

(١) هي بين شروان وآذربيجان وهي التي عرفت باسم كنجه.

في الجانب الاخر من الوطن الإسلامي

في الوقت الذي كان فيه هؤلاء السلاجقة يتناحرون في المشرق الإسلامي وينحرون الشعب معهم ويبهضونه بما لا يطيق حمله، في الوقت الذي كان فيه بركيارُق مثلاً يحاصر أخاه محمداً في أصفهان ويضيق عليها، فتُعدم فيها الأقوات، ويرغم محمد أعيان البلد على أن يقرضوه، فيأخذ منهم مالاً عظيماً، ثم يعود فيقسط على البلد شيئاً آخر فيأخذه بالشدة والعنف، ثم يضطر للفرار من البلد، فيصبح أمر أصفهان كما وصفه ابن الأثير: «فلما فارق محمد أصبهان اجتمع من المفسدين والسوادية ومن يريد النهب ما يزيد على مئة ألف نفس وزحفوا إلى البلد بالسلالم والدبابات وطموا الخندق بالتبن والتصقوا بالسور، وصعد الناس في السلالم فقاتلهم أهل البلد قتال من يريد أن يحمي حريمه وماله فعادوا خائبين».

وفي الوقت الذي كان الوالي السلجوقي إسماعيل بن سلانجق يقتل من أهل مدينة (الري) مقتلة عظيمة، ويرسل من

شعورهم إلى سلطانه بركيارُق ما عمل منه مقاود وشكلات للدواب[1].

في هذا الوقت بالذات وفي السنة نفسها كان صنجيل الصليبي يحاصر طرابلس ويرغم أهلها على أن يدفعوا إليه مالاً وخيلاً ويتقدم منها إلى مدينة (انطرسوس) فيحصرها ويفتحها ويقتل من بها من المسلمين، ثم يسير إلى حمص فينازلها ويحصر أهلها ويملك أعمالها. وكان القمص ينازل عكا ويضيق عليها، وكان الصليبي صاحب الرها يسير إلى بيروت ويحصرها ويضايقها.

ومن بين هذه الظلمات تتوقد شعلة في القاهرة فتخرج عساكرها إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية على حد تعبير ابن الأثير، فيسمع بهم بردويل صاحب القدس فيسير إليهم فيقاتلهم فينصر الله المسلمين وينهزم الفرنج ويكثر القتل فيهم، وينهزم بردويل ويختفي في أجمة قصب، فيحرق القاهريون تلك الأجمة وتلحق النار بعض جسد بردويل، وينجو منها إلى الرملة فيتبعه القاهريون ويحيطون به فيتنكر ويخرج منها إلى يافا، ويكثر القتل والأسر في أصحابه[2].

وبركيارُق الذي أوفد كربوقا إلى أنطاكية فكان من أنانيته

---

(١) ابن الأثير ج١٠ ص ٣٣٨.

(٢) ابن الأثير، ج١٠، ص ٣٤٥ـ٣٤٦.

وحبه لذاته وخيانة جيشه أن فر منهزماً تاركاً باب العالم الإسلامي مفتوحاً بلا حارس أمام الصليبيين، كربوقا هذا كان بركيارُق نفسه يرسله هذه المرة إلى آذربايجان فيستولي على أكثرها، ثم يمرض بها ويموت. . .

وباغي سيان حاكم أنطاكية الذي لم يكد يسمع صوت بوق الصليبيين حتى فرّ هارباً تاركاً أسرته عرضة للسبي، باغي سيان هذا الذي لم يكن فيه ذرة من النخوة والحمية تحملانه على أن يستميت دفاعاً عن شرف أسرته، بل تركها تسبى بأيدي الفرنج، استطاع الدانشمند في هذا الوقت أن يجعل من شروط إطلاق بيمند من الأسر إطلاق ابنة باغي سيان من السبي.

في هذا الوقت الذي لم يستقر فيه أمر السلاجقة لا في بغداد ولا ما وراء بغداد وصولاً إلى أبعد مكان، وظلت البلاد في تجاذب بينهم تسفك فيها الدماء وتنهب الأموال ويذل الناس. كان أمر الصليبيين قد استقر في القدس ويافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية، وفي فلسطين كلها ما عدا عسقلان، وفي اللاذقية وأنطاكية. ومن الجزيرة: استقر أمرهم في الرها وسروج.

وكان صنجيل يحاصر طرابلس، وفيها فخر الملك بن عمار[1] يقود الدفاع عنها ويرسل أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا، وقصد بذلك أن يخلو

---

(١) سيأتي بحث مستقل للتعريف ببني عمار.

السواد ممن يزرع لنقل المواد من الفرنج فيرحلوا عنه[1].

ونذكر هنا ـ للاعتبار ـ حادثة تدل على حقيقة هؤلاء السلاجقة، فإن أحدهم بلك بن بهرام بن أرتق كانت له مدينة سروج فأخذها منه الصليبيون، فبدلاً من أن يعمل لاستردادها منهم، توجه إلى مدينة عانة الإسلامية فملكها ونهبها وسبى جميع نسائها!.

ثم كان الصليبيون يمتدون فيحتلون جبيل، ثم عكا.

نقطة بيضاء

نحن لا نبخس الناس أشياءهم فإذا سجلنا تلك الصفحات السود فإننا حين نرى نقطة بيضاء نسرع إلى تسجيلها وننصف أصحابها فمن ذلك الهوان الذي ارتمى فيه السلاجقة أمام الصليبيين يطل اثنان بنخوة إسلامية وحمية فائقة، اثنان كان بينهما ثارات وفي قلبيهما أحقاد، وكان كل منهما يستعد للقاء صاحبه، هذان الاثنان هما: معين الدولة سُقمان، وشمس الدولة جكرمش، وفيما كل منهما يتهيأ للانقضاض على صاحبه، تذكرا ما عليه المسلمون من الذل وما أحاق بديارهم من الاغتصاب والانتهاب والانتهاك، فنسيا ذحولهما، وأرسل كل منهما إلى صاحبه عارضاً عليه أن يلتقيا، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فاستجاب

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

كل منهما لطلب صاحبه، فاجتمعا على (الخابور) وتحالفا وسارا إلى لقاء الصليبيين.

وكان مع سُقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا مع الصليبيين على نهر البليخ فكان النصر لسقمان وجكرمش، فقتلوا من الصليبيين، وأسروا، وفاضت الغنائم، وكان بين الأسرى القُمّص بردويل صاحب الرها، وكانت معظم الغنائم في أيدي جماعة سقمان، وكذلك كانوا هم الذين أسروا القمص، وكادت الفتنة أن تقع لأن أصحاب جكرمش أخذوا القمص من خيام سقمان.

وركب أصحاب سقمان للقتال فردهم، وقال لهم: لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاه بغمّهم باختلافنا، ولا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين[١].

وفي المقابل فإنه حين توفي الملك دقاق بن تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق اختلف الورثة بين ولد له صغير، وبين عمه بكتاش بن تتش، وانضم إلى تتش الأمير أيتكين صاحب بصرىٰ، وخرج هذان الاثنان إلى حوران، ولحق بهما كل من يريد الفساد، وراسلا بغدوين ملك الصليبيين يستنجدانه، فأجابهما إلى ذلك وسار إليهما فاجتمعا به واتفقا معه.

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٣٧٤.

والسلاجقة الذين تخلوا عن البلاد للصلبيين، لم يتخلوا عن البلاد لأهل البلاد، والسلاجقة الذين عاش الصليبيون في جوارهم بأمان واطمئنان، لم يمنحوا هذا الأمان وهذا الاطمئنان لمواطنيهم، ففي عنفوان ذاك المد الصليبي المتدافع دفعة كان الأمير (بزغش) قائد عساكر السلطان سنجر، يتقدم لا إلى الوقوف في وجه ذاك المد، ويجمع الجموع لا لقتال الصليبيين، بل كان يتقدم للقضاء على جمهرة من أبناء البلاد وسكانها، ويجمع الجموع لتخريب البلاد ونهبها وقتل رجالها وسبي نسائها.

وكما قلنا، ونكرر هذا القول: كان الغرب الإسلامي يعاني المحنة على أيدي الصليبيين، وكان الشرق الإسلامي يعاني المحنة نفسها على أيدي السلاجقة.

وأنقل هنا عبارة ابن الأثير نفسها، فابن الأثير يقول: «جمع بزغش كثيراً من عساكر خراسان، وأتاه كثير من المتطوعة، وسار إلى قتال الإسماعيلية، فقصد طَبَس - وهي لهم - فخربها وما جاورها من القلاع والقرى، وأكثر فيها القتل، والنهب، والسبي، وفعل بهم الأفعال العظيمة!»[1].

لم يكنْ هؤلاء السلاجقة أرحم في الأرض الإسلامية من الصليبيين، وبزغش هذا أين هو عن الصليبيين الطاغين في أرض

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٣٧٨.

الإسلام، وهؤلاء المتطوعة أين هم عن التطوع لإنقاذ القدس من براثن مغتصبها؟!

وابن الأثير يقر بأن الإسماعيليين كانوا مواطنين مسالمين ككل المواطنين، فهو لم يشر إلى هفوة أو كلمة أو حركة لهم يستحقون معها ذرة مما ارتكبه فيهم القائد السلجوقي حليف الصليبيين وإن لم يحالفهم، لأن من يسالمهم وينكل بمواطنيه هو الحليف الطبيعي لهم...

وابن الأثير: هذا المؤرخ المندفع بحميته للبكاء على ما آل إليه أمر المسلمين، والشاكي إلى الله تفرق السلاطين، وانشغالهم عن حماية الإسلام والمسلمين.

ابن الأثير يعلق على ما حدث قائلاً[1]:

«ثم إن بزغش، بعد عوده من هذه الغزاة، توفي، وكانت خاتمة أمره: الجهاد، رحمه الله».

تخريب المدن والقرى في بلاد الإسلام وقتل رجالها وسبي نسائها ونهب أموالها، يعده ابن الأثير غزاة ويعتبره جهاداً، ويدعو الله لمرتكب ذلك بالرحمة!.

وتدخل سنة ٤٩٨ هـ وفيها يموت السلطان بركيارُق بعد أن أوصى بولاية العهد لولده ملكشاه ذي الأربع سنين وثمانية أشهر من عمره. وكانت وفاته في بروجرد وهو في طريقه من أصفهان

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص٣٧٩.

إلى بغداد، فلما أيقن بالموت أحضر جماعة الأمراء وأوصاهم بولده وأمرهم بمتابعة السير إلى بغداد، وبقي هو في بروجرد على أمل العودة إلى أصفهان فمات دون تحقيق ذلك، ولكن جثته حملت إلى أصفهان فدفنت فيها.

مات بركيارُق وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد أن ملك اثنتي عشرة سنة كانت حافلة بالأحداث التي شهدنا بعضها فيما مر من القول.

وخطب لملكشاه الثاني الطفل على منابر بغداد، ولكن الشقاق لم يكن قد انتهى فهذا محمد بن ملكشاه أخو بركيارُق الذي مر اسمه معنا كثيراً يهاجم الموصل ليقضي فيها على (جكرمش) فيكثر القتل في عسكرها، ولما وصل خبر موت بركيارُق إلى جكرمش سلم الأمر إلى محمد.

ثم سار محمد إلى بغداد ومعه جكرمش وغيره من الأمراء يحاول انتزاع ملكها من ابن أخيه، وكان المباشر لأمور السلطان الطفل: الأمير (إياز).

ووصل السلطان محمد إلى بغداد ونزل في الجانب الغربي منها بأعلاها، فخطب له في هذا الجانب من بغداد، ولملكشاه بن بركيارُق في الجانب الشرقي!.

خطبتان تمثلان سلطتين في مدينة واحدة هي عاصمة الخلافة!.

وكان قسم من بغداد لم يدخل في نفوذ إحدى السلطتين وفيه جامع المنصور، فلم يخطب لأحد من السلطانين، بل قال الخطيب عوضاً عن الخطبة لأحدهما: اللهم أصلح سلطان العالم، وسكت.

لنا أن نفسر موقف هذا الخطيب بأحد تفسيرين: إما أن يكون الخطيب مذبذباً انتهازياً لا يدري لمن تكون الغلبة في الغد، فهو لا يريد أن يتورط بإعلان الولاء لأحد المتنازعين. وإما أن يكون مخلصاً ساءه هذا الخلاف، لا سيما في هذه الظروف التي يعاني فيها المسلمون ما يعانون من إذلال الصليبيين لهم، بينما ينشغل حكامهم بأنفسهم وشقاقهم وتقاتلهم فيما بينهم، فأرسلها دعوة صالحة موجزة...

نحن نريد أن نميل إلى الرأي الثاني لأننا نحسن الظن بالأمة، ونوقن أن فيها من كوامن الخير والحمية والنجدة والشهامة ما لو أهيب بها لدفعت شر الصليبيين وعدوانهم.

وخير ما يمثل الأمة، وصفتها الحقيقية، هو هذا الخطيب المجهول...

وبعد أن كاد القتال أن ينشب بين الفريقين المتنازعين سلم (إياز) بالأمر الواقع ومشى للسلطان محمد. وتوالت الأحداث حدثاً بعد حدث، وفيها من التنازع والتقاتل والقتل ما فيها.

ومن أهم ما كان فيها أن الإسماعيليين الذين أصيبوا بما أصيبوا به من التخريب والقتل والسبي والنهب، ما مر ذكره،

وجدوا فرصة للانتقام فكانوا في انتقامهم شراً ممن انتقموا منهم، إذ نالوا في انتقامهم من الأبرياء والضعفاء والقريبين والبعيدين، لا سيما قاصدي بيت الله للحج.

وكما نقلنا هناك عبارة ابن الأثير في وصف ما جرى على الإسماعيليين لننقل هنا أيضاً ـ انصافاً للحقيقة ـ عبارة ابن الأثير فيما أجراه الإسماعيليون. قال ابن الأثير:

«في هذه السنة (٤٩٨) سار جمع كثير من الإسماعيلية من (طُريثيت) عن بعض أعمال بَيْهقَ، وشاعت الغارة في تلك النواحي وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم والسبي لنسائهم...

وفي هذه السنة اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، ولم يكفوا أيديهم عمن يريدون قتله، لاشتغال السلاطين عنهم. فمن جملة فعلهم: أن قُفُل الحاج تجمّع، هذه السنة، مما وراء النهر، وخراسان، والهند، وغيرها من البلاد، فوصلوا إلى خُوار الرَّيّ، فأتاهم الباطنية وقت السَّحَر، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوهم كيف شاؤوا وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً»[١].

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

هذه الأفاعيل بالحجاج كثيراً ما كان يجري عليهم أمثالها، ففي سنة ٤٨٥ هـ يذكر ابن الأثير ما جرى فيها على الحجاج قائلاً: سار الحجاج هذه السنة من بغداد فقدموا الكوفة ورحلوا منها، فخرجت عليهم خفاجة فأوقعوا بهم ونهبوا الحجاج وقصدوا الكوفة ودخلوها واغاروا عليها وقتلوا في أهلها إلى آخر ما قال. وفي أحداث سنة ٤٨٦ يذكر ما جرى عليهم في الحجاز من مثل ذلك.

ونحن هنا لا نستطيع أن نتهم ابن الأثير بالمبالغة، لأنه حين تحدث عما جرى على الإسماعيليين وصف الشدة التي نزلت بهم بمثل ما وصف ما أنزلوه هم من الشدة في الحجاج وغيرهم.

ولا يشفع للإسماعيليين أنهم كانوا يثأرون لما نزل بهم ظلماً، وأن قلوبهم كانت تغلي بالحقد على من فعلوا بهم ما فعلوا، فالثأر لا يكون من الحجاج البريئين القادمين من كل مكان، والحقد على الحكام لا يجوز أن يبعث على الانتقام من الشعب.

على أننا ونحن نقول ذلك لا ننسى مسؤولية الحكام عما جرى، هذه المسؤولية التي أوضحها ابن الأثير بقوله: (لاشتغال السلاطين عنهم).

لقد كان أول واجبات السلاطين حفظ الأمن، ورعاية أمور الشعب، وحمايته من عبث فريق منه بفريق آخر، ولكن سلاطين السلاجقة كانوا في شاغل عن ذلك بالاقتتال فيما بينهم، والتنازع على الاستئثار بظلم الناس. وإذا كانوا هم وجنودهم لا يتورعون عن السلب والتخريب والقتل والنهب فكيف يطلب من الناس أن يتورعوا عن ذلك؟! إنهم وهم الذين اعتدوا على الإسماعيليين الذين لا ذنب لهم، جرَّؤا الإسماعيليين على أن يعتدوا على من لا ذنب لهم..

في غرب العالم الإسلامي

إذا كان الجانب الشرقي من العالم الإسلامي ظل يموج ويمور بمحن السلاجقة فيه، فكذلك كان الجانب الغربي يموج

ويمور بمحن الصليبيين فيه، غير أن السلاجقة الذين اعتبروا أنفسهم غير مُلزمين بشيء تجاه العالم الإسلامي، وأن استباحة الصليبيين له لا تعنيهم، فانفردوا بالجانب الشرقي من هذا العالم مشغولين بأنفسهم، غير مبالين بما يجري في الجانب الآخر من ذبح للمسلمين وانتهاك لحرماتهم، إذا كان الأمر كذلك حتى الآن، فإننا سنرى أن فيهم من تعاون مع الصليبيين، وقد مر معنا شيء من هذا من قبل، وسنرى هنا لا تعاوناً منهم مع الصليبيين مجرد تعاون، بل انضماماً كاملاً إلى صفوفهم.

لم تهدأ المعارك مع الصليبيين، فهذا (طنكري) الصليبي صاحب أنطاكية يحاصر حصن ارتاح، وفيه نائب الملك رضوان، وضاق الأمر على المسلمين، فأرسل النائب إلى رضوان يستنجد به، فسار رضوان في نجدة قوية من الخيالة وسبعة آلاف من الرجالة بينهم ثلاثة آلاف متطوع.

وبعد أن بدأت المعركة بنصر المسلمين عادت الهزيمة فحاقت بهم وقتل وأسر الكثير منهم، ولم ينج إلا الشريد، وسقط أرتاح بأيدي الصليبيين.

وأخرج الأفضل بن بدر الجمالي حملة من القاهرة، فتصدى لها بغدوين الصليبي صاحب القدس، فوقعت المعركة في مكان بين عسقلان ويافا فلم ينتصر أحد الفريقين على الآخر، بل ثبتا كلاهما.

يقول ابن الأثير عن هذه المعركة[1]: وكان مع الفرنج جماعة من المسلمين منهم بكتاش بن تُتُش (السلجوقي). هذي هي الأمجاد السلجوقية، لا يكتفون بأن يتخلوا عن العالم الإسلامي، بل ينضموا إلى الصليبيين لقتال جيوشه..

وهنا نعود إلى الدكتور عمر التدمري لنقول له: لم يكن الأمر كما زعمت من أن الصراع في بلاد الشام كان بين السلاجقة والفاطميين، بل كان بين الجماليين، وبين الصليبيين متحالفين مع السلاجقة.

وبينما الفتن مستمرة بين السلاجقة في الشرق يستمر الصراع بين المسلمين والصليبيين في الغرب. وقد يعن لأحد من السلاجقة أن يواثب الصليبيين، ثم لا يلبث أن يعود إلى حقيقته كهذا الذي حدث للملك رضوان بن تُتُش حين عزم على حرب الصليبيين فاجتمع إليه بعض الأمراء السلاجقة لهذه الغاية، ولكنهم ارتأوا أن يهاجموا أولاً (جكرمش) صاحب الموصل وما والاها، فساروا إليه، فلم يلبث الأمر أن انقلب إلى فتنة بينهم، وتآمر بعضهم على بعض واقتتلوا، ونسوا الصليبيين وقتالهم، وانصرف اتباعهم من التركمان إلى نهب مواشي المسلمين.

وتملك الصليبيون حصن (أفامية)، ومدينة سرمين من أعمال حلب، كما كانوا قد ملكوا مدينة جبيل، وتقدم (صنجيل)

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٣٧٦ ـ ٤٠٧.

الصليبي منها إلى حصار طرابلس التي كان يحكمها بنو عمار، وثبت له بنو عمار فلم يقدر عليها، ولما رأى أن الحصار سيطول، بنى بالقرب منها حصناً وأقام تحته ربضاً، ولبث محاصراً لطرابلس يلتمس منها غرة تمكنه من التغلب عليها. ولكن فخر الملك أبا علي بن عمار كان له بالمرصاد، فهاجمه وأحرق ربضه، وشاء قدر صنجيل أن يقف هو وبعض قادته وفرسانه على أحد سقوف الربض المحترقة، فانخسف بهم السقف، فأصيب صنجيل إصابة بالغة، لم يلبث بعدها أكثر من عشرة أيام مات بعدها متأثراً من إصابته بانخساف السقف.

وعز على الصليبيين ما جرى عليهم في حصار طرابلس، فأرسلوا إليهم من اللاذقية التي كانوا يحتلونها ميرة في البحر، فلم يكن ابن عمار غافلاً عنهم، فأرسل في البحر قطعاً من أسطوله اعترضت قطع الصليبيين فقامت معركة بحرية بين الفريقين ظفر فيها أسطول ابن عمار، وأسر قطعة بحرية للصليبيين عاد بها وبمن فيها من أسرى ومؤن إلى طرابلس.

ودام القتال بين بني عمار وبين الصليبيين على طرابلس عشر سنين.

ويقول ابن الأثير[1]: وظهر من ابن عمّار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد، ثم يقول ابن الأثير: وأجرى ابن عمار

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٤١٢.

الجرايات على الجند والضَّعفى، فلما قلت الأموال عنده شرع يقسّط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالاً مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم، وذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من عَرَقَةَ والجبل، فجعل الفرنج جمعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد..

فأرسل ابن عمار وبذل للفرنج مالاً كثيراً ليسلموا الرجلين إليه، فلم يفعلوا. فوضع عليهما من قتلهما غيلة.

هكذا كان فخر الملك أبو علي بن عمار بطل الموقف بكل ما في البطولة من شجاعة وحزم وتضحية وحسن تدبير.

ولو كان الأمريكيون واليهود سائدين يومذاك بوسائلهم الإعلامية، لنبزوه بلقب الإرهابي.

فحيا الله ابن عمار: الإرهابي الأول في التاريخ الإسلامي[1].

ويصف ابن الأثير حال الناس في طرابلس قائلاً: فعدمت الأقوات وخاف الناس على نفوسهم وأولادهم وحُرَمهم...

هكذا كانت الحال في الغرب الإسلامي جهاداً ونضالاً للصليبيين، وكذلك كانت في الشرق على أيدي السلاجقة: جهاداً ونضالاً للمسلمين!.

---

(١) يأتي الحديث مفصلاً عن بني عمار في دراسة خاصة.

يذكر ابن الأثير ـ خلال سرده للأحداث المتقدمة ـ خبراً موجزاً لا بد من الوقوف عنده بعض الوقت: في هذه السنة ورد إلى بغداد إنسان من الملثّمين ملوك المغرب، قاصداً دار الخلافة، فأكرم، وكان معه إنسان يقال له: الفقيه، من الملثمين أيضاً، فوعظ الفقيه في جامع القصر، واجتمع له العالم العظيم، وكان يعظ وهو متلثّمٌ لا يظهر منه غير عينيه. وكان هذا الملثّم قد حضر مع الأفضل (بن بدر الجمالي) أمير الجيوش بمصر وقعتَهُ مع الفرنج، وأبلى بلاء حسناً.

وكان سبب مجيئه إلى بغداد: أنّ المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين، أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا، إذا أرادوا الحجَّ، يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر والد الأفضل أراد إصلاحهم، فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه، فأمر بقتل مَنْ ظفر به منهم، فلما ولي ابنه الأفضل أحسن إليهم واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج، وكان هذا من جملة مَنْ قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد، ثم عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلاّ وشهدها، فقُتل في بعضها شهيداً، وكان شجاعاً فتاكاً مقداماً[1].

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٤١٤.

من هم الملثمون؟..

لا بد لنا أولاً من التعريف بالملثمين الذي ينتمي إليهم هذا الرجل الذي تحدث عنه ابن الأثير هذا الحديث الموجز: الملثمون هم الذين عرفوا في التاريخ باسمهم الآخر الأشهر: (المرابطون).

وهناك اختلاف في سبب تسميتهم بالملثمين وأقربها إلى المنطق: أنهم كانوا يتلثمون دفعاً لهجير الصحراء صيفاً، وزمهريرها شتاء، وقيل إن سبب اللثام لهم، أن طائفة من لمتونه خرجوا مغيرين على عدوهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن فيها إلا المشايخ، والصبيان، والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويتلثمن، ويضيقنه، حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك. وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً، فظنه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حُرَمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق الغنم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم.

فبينما هم في جمع الغنم من المراعي إذ أقبل رجال الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً[1].

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣.

ابتداء الحركة وتطورها

كان ابتداء حركة المرابطين (الملثّمين) سنة ٤٤٨ هـ، ويرد ابن الأثير نسبهم إلى (حِمْيَر) فيقول: هم عدة قبائل يُنسبون إلى حِمْيَر، أشهرها: لمتونة، وجدالة، ولمطة. وكان أول مسيرهم من اليمن، أيام أبي بكر الصديق(رض) فسيرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طبخةَ، فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها[1]. والله أعلم بحقيقة هذا النسب. .

الرجل المحب للدين وأهله ـ كما يصفه ابن الأثير ـ المسمى: (الجوهر) من قبيلة جدالة، ساقه حبه للدين إلى الذهاب للحج، فمر بفقيه في مدينة (القيروان) يعظ جماعة ويفقههم في الدين.

والجوهر القادم من الصحراء، حيث البداة هناك كالبداة في كل صحراء لا يعرفون من الدين إلا ألفاظاً يرددونها، أصغى إلى هذا الفقيه وكلما طال إصغاؤه كثر تعجبه مما يسمع، فالدين إذن ليس الشهادتين فقط، إن له أحكاماً لا يدرون في الصحراء منها شيئاً.

---

(١) م.ن. ص ٦١٨.

ومضى الجوهر إلى الحج ثم عاد ماراً بالفقيه المفقّه واطلعه على ما في نفسه قائلاً: ما عندنا من هذا في الصحراء من شيء غير الشهادتين والصلاة في بعض الخاصة، فابعث معي من يعلمهم شرائع الإسلام..

وقفة (الجوهر) على الفقيه في طريق مسيره إلى الحج، ثم وقفته عليه حين عودته من الحج وحديثه معه كانتا السبب في نشوء حركة دينية واسعة، ثم في نشوء دولة مترامية الأطراف امتدت من شمال أفريقيا حتى أقاصي الأندلس، نشبت فيها المعارك وسفكت الدماء وكثر القتلى، وكان بينهم (الجوهر) نفسه...

لقد لبى الفقيه طلب (الجوهر) فبعث معه رجلاً اسمه عبدالله بن ياسين الجزولي، وكان في نظره فقيهاً صالحاً، فسارا حتى بلغا قبيلة لمتونة، فأول ما فعله الجوهر ليرفع منزلة الفقيه بين القبيلة أن نزل عن جمله وأخذ بزمام جمل الجزولي يقوده، فأقبل الناس يهنِئونه بالإياب ويسألونه عن رفيقه، فأخبرهم أنه قادم ليشرح لهم العقائد الإسلامية ويدعوهم إلى تطبيقها، فلما أفاض الجزولي في الحديث، قالوا له:

أمّا ما ذكرت من الصلاة والزكاة فقريب، وأما قولك من قَتَل يُقتل، ومن سرق يُقطع، ومن زنى يُجلد أو يُرجم فأمر لا نلتزمه. إذهب إلى غيرنا.

إن هذه الصورة من الحوار هي قبل كل شيء طريفة كل الطرافة، ثم هي تدلنا على حقيقة تطبيق الإسلام لا في هذه الصحراء وحدها، بل في الصحراوات كلها: فلا صلاة ولا زكاة ولا حدود، أنهم لم يذكروا الصيام، فهل كانوا يصومون؟.

إنهم لم يعدوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكن قالوا: إن أمرها قريب، وأما غير القريب، والبعيد كل البعد فهو أن تطبق عليهم الحدود!.

فإذا كان كل قاتل يُقتل، وكل سارق يقطع، وكل زان يجلد أو يُرجم، فيا لكثرة من سيقتل منهم وسيقطع وسيجلد أو يرجم!.

لذلك رفضوا قبول الفقيه الجزولي بينهم.. وإذا كان لنا أن نستنتج تفشي تلك الآثام بينهم، فإننا نستنتج كذلك أن إثماً كبيراً لا أثر له بينهم، هو: شرب الخمر.

عمل الجوهر والفقيه بالنصيحة فقرر الرحيل إلى مكان آخر. وكان بين المستمعين لكلام الفقيه شيخ أثقلته السنون وحنكته التجارب، فاستشف من بيان الفقيه وعزمه واستفاضته في الحديث، قدرة على الإقناع وما بعد الإقناع من نجاح. فعندما رأى الفقيه على جَمَلِهِ راحلاً في الصحراء قال:

لا بد أن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم!.

وصحت نبوءة هذا الشيخ الصحراوي وصدقت فراسته،

فكان للجمل وصاحبه في تلك الصحراء وما وراء الصحراء شأن أي شأن!.

ترك الرجلان قبيلة لمتونة ومضيا إلى قبيلة (جدالة)، وهي قبيلة الجوهر، فدعا عبدالله بن ياسين هذه القبيلة والقبائل المجاورة لها إلى مثل ما دعا إليه قبيلة لمتونة.

وهنا اختلف الأمر عما كان عليه في لمتونة، ففي لمتونة كان إجماع على رفض عبدالله بن ياسين ودعوته، وفي جدالة وما جاورها وجد من يستجيب ووجد من يرفض.

عند هذا المفترق انقلب ذاك الشيخ الزاهد العابد المتقشف العازف عن الدنيا ـ انقلب إلى متنمر مقاتل مخطط عازم على سفك الدماء في سبيل إنجاح أمره!.

فصارح المستجيبين إليه بوجوب إعلان الحرب على الرافضين، مخاطباً إياهم بهذا القول: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا شرائع الإسلام واستعدوا لقتالكم، فأقيموا لكم راية وقدّموا عليكم أميراً.

فقال الجوهر: أنت الأمير.

وهنا تبدّا دهاء الفقيه وحنكته السياسية وتخطيطه المحكم، فقال: لا، إنما أنا حامل أمانة الشريعة. ثم التفت إلى الجوهر قائلاً: ولكن أنت الأمير وكان الجوهر حكيماً مخلصاً حين رفض الإمارة قائلاً:

لو فعلت هذا تسلط قبيلي على الناس، وكان وزر ذلك عليّ.

فقال ابن ياسين: الرأي أن نولي ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل سيد مشكور الطريقة مطاع في قومه فهو يستجيب لنا لحب الرئاسة وتتبعه قبيلته فنتقوى بهم.

فعادا إلى لمتونة التي خرجا منها وعرضا الأمر على أبي بكر بن عمر.

عندما جاءا أول الأمر إلى لمتونة ودعيا بدعوتهما، لم يذكرا أمرة ورئاسة، لذلك لقيا أعراضاً وتجهما، أما اليوم، وقد جاءا يقدمان مع الدعوة ما يقدمان من الإمرة والرئاسة فقد أسرع أبو بكر بن عمر إلى تلبيتهما، فعقدا له البيعة.

ولكن المشكل كان في اللقب الذي يضفي على الأمير الجديد، فالدعوة دينية وليست سياسية. وبالرغم من أنها اعتمدت السيف في طلب انتشارها، وبالرغم من أنها عازمة على التسلط على الناس، فلا بد لأميرها من لقب يميزها عن غيره من المعتمدين على السيف العازمين على التسلط.

ولم يكن ذلك ليعجز الفقيه الداهية البارع في التخطيط، فكما كان حكيماً في اختيار رئيس لمتونة للإمارة، كان حكيماً في اختيار لقبه، إذ لقبه بأمير المسلمين. فإذا كان هناك من يلقب (أمير المؤمنين)، فهنا من يلقب: (أمير المسلمين).

ولما كانوا قد ضمنوا ولاء لمتونة باختيار رئيسها للقيادة، فقد ذهبوا

جميعاً إلى جدالة التي فيها أنصار لهم، فضموا أولئك الأنصار إلى رجال لمتونة، فتألف لهم من ذلك نواة جيش يمكن الاعتماد عليها في القتال. فقام ابن ياسين يحرض على الجهاد، وأطلق على الجماعة اسم (المرابطون).

أما مخالفوهم فقد أقلقهم هذا التجمع، فتكتلوا لمقاومته، ولكن ابن ياسين منع المرابطين من الاصطدام بهم أملاً بإصلاح من يمكن إصلاحه منهم وإضعافهم. فوفق في ذلك ولم يبق على عداء المرابطين سوى ألفي رجل، فعمل ابن ياسين على حصارهم فخندق عليهم، ثم صار المرابطون يخرجونهم جماعة بعد جماعة فيقتلونهم.

هكذا بدأ ابن ياسين يعاونه أبو بكر بن عمر دعوته الدينية بمذبحة رائعة لا شفقة فيها ولا رحمة، وهكذا مشى إلى هدفه الديني دائساً على الجثث خائضاً في الدماء! .

وإنّ دعوة ـ مهما سمت أهدافها ـ تفتتح بذبح ألفي رجل لهي دعوة جبارة تأباها الإنسانية، ويأباها الدين! .

وأي ضلال يكون فيه الناس، لهو أهون من هدى يقود إلى ذبح الأسارى وتضريج الأرض بدم ألفي رجل في غير قتال. .

ونحن لا ندري إذا كان (الجوهر الجدالي) ـ وهو الثالث في القيادة المرابطية ـ قد كان من الآمرين بهذه المذبحة أم كان من الناهين عنها أو من المحايدين فيها، ولا نعلم مقدار ما يتحمل من المسؤولية في تنفيذها، ولكن الذي نعلمه أن الذبح قد وصل إليه.

لقد كان هو الأصل في قيام هذا الكيان (المرابطي)، وكان هو الذي حمل الفقيه القيرواني على إرسال عبدالله بن ياسين، وكان هو الذي أخذ بزمام جمل ابن ياسين وقاده بنفسه تواضعاً للدين وتعظيماً للداعي إليه.

ويبدو أن (الجوهر) لم يكن يحسب أن الأمر سيصل إلى قيام مذبحة، بل كان في حسبانه أن ابن ياسين سيعمل بمنطوق الآية القرآنية الكريمة: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد رأيناه يرفض القيادة حين عرضها عليه ابن ياسين خوفاً من تسلط قومه على الناس. لذلك فإنه يخيل إلي أنه عارض المذبحة واستنكرها فاستحق العقاب.

يقول ابن الأثير[1]: «ولما استبد ابن ياسين بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالي وبقي لا حكم له تداخله الحسد، وشرع سراً في فساد الأمر، فعُلم بذلك منه وعقد له مجلس وثبت عليه ما نُقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة وشق العصا وأراد محاربة أهل الحق، فقُتل بعد أن صلى ركعتين، وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء الله تعالى!.».

وفي هذا الكلام ما يغني عن أي تعليق، سوى القول بأن إظهاره السرور بالقتل كان حقيقياً لأنه رأى في هذا القتل تكفيراً عن تسبيبه ما سبب...

---

(١) ج٩، ص ٦٢٠.

جرى كل ذلك، وابن ياسين مشتغل بالعلم، وقد صار عنده جماعة يتفقهون! ـ كما يقول ابن الأثير ـ.

اشتغل بالعلم وترك الذبح لأبي بكر بن عمر، وتفقه عليه جماعة، وذبح على يدي ابن عمر جماعات. وبالعلم الذي اشتغل به صدرت فتاواه بالقتل الجماعي.

هكذا تقاسما الأدوار، ولما لم يبق للجوهر الجدالي دور سوى الاعتراض كان يجب أن يذبح، فذبح بفقه ابن ياسين وسيف ابن عمر..

يعلق ابن الأثير على نتائج المذبحة قائلاً: «فحينئذ دانت لهم قبائل الصحراء وهابوهم فقويت شوكة المرابطين»، ثم يقول معقباً على قتل الجوهر: «فاجتمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قتلوه».

وهكذا ظلت المذبحة مستمرة: ابن ياسين يشتغل بالعلم ليستنبط الفتاوى بالذبح، وابن عمر ينفذ الفتاوى!

ولم يكن استنباط الفتاوى يحتاج إلىٰ كثير من العلم فابن الأثير يحدد الجريمة بقوله «فمن خالفهم قتلوه».

وإذا كان الحكم بقتل الجوهر قد احتاج إلى (حيثيات) وتعليلات، لمكانة الجوهر، فالحكم على غيره بالقتل لا يحتاج إلى (حيثيات) بل إلى تطبيق مادة وحيدة ذكرها ابن الأثير: من خالف اقتلوه..

ظل المرابطون في نطاق صحراوي بحت فلم يتمددوا في مناطق أخرى، وفي سنة ٤٥٠ هـ أي بعد سنتين من بدء دعوتهم قحطت بلادهم، فقرر ابن ياسين أن يطلق المحتاجين إلى مناطق أخرى، فأمر تسعمائة شخص بالذهاب إلى (السوس) والتسلط على الناس هناك بطلب الزكاة، فجاءوا إلى (سجلماسة) وطالبوا بالزكاة. ويبدو أن أنباء المذابح كانت وصلت في حينها إلى السجلماسيين فأسرعوا بجمع مقدار كان من المال عاد به المرابطون إلى مقرهم. . .

ونجاحهم في جمع المال من سلجماسة فتح عيونهم على ما وراء الصحراء، فصمموا على الوصول إلى الأندلس.

يقول ابن الأثير: «إنّ الصحراء ضاقت عليهم، وأرادوا إظهار كلمة الحق والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار. . ».

وابن الأثير هنا يقع في التناقض: إنّه يجعل في أول القول سبب تطلعهم إلى ما وراء الصحراء هو أن الصحراء ضاقت بهم. . ثم يعود فيجعل سبب ذلك إرادتهم إظهار كلمة الحق ومجاهدة الكفار. . .

أما أن الصحراء ضاقت بهم فصحيح، فابن ياسين وابن عمر اللّذان استطابا السلطة، وجدا أن السلطة حين لا تتجاوز الصحراء، هي سلطة محدودة المكان، محدودة السكان، والمهم جداً أنها محدودة المال، وقد رأيا أنها قابلة للقحط في كل وقت، وحين تقحط يعوزهما حتى ضمان العيش للمحتاجين، وقد كانت تجربة

إرسال التسعمائة الرجل إلى سلجماسة كافية لأن تجعلهما يصممان على الخروج من نطاق الصحراء، إلى حيث الري والخصب والمال الوفير.

وأما جهاد الكفار فمسألة فيها نظر ـ كما يقولون ـ إذ كان لا بد من مبرر للانطلاق من الصحراء!

لقد جاهدا بما فيه الكفاية، جاهدا فيمن خالفهم من المسلمين فأكثرا فيهم الذبح!..

جاهدا حتى في ذبح المؤمن المخلص الذي ساق إليهما ما هما فيه من سلطان وعنفوان، جاهدا في ذبح الجوهر!..

قاد أبو بكر بن عمر وعبدالله بن ياسين جماعة المرابطين في الخروج من الصحراء والنية في الوصول إلى الأندلس، ومشوا إلى السوس الأقصى، فرفضهم أهله وتصدوا لهم وقاتلوهم، فانهزم المرابطون وقتل عبدالله بن ياسين في المعركة.

على أنّ ابن عمر لم ييأس فعاد وجمع جيشاً سار به إلى السوس، واصطدم بالسوسيين وزلاقة فتغلب عليهم وهزمهم، ثم تقدم إلى سجلماسة فسار إليه صاحبها فهزمه ابن عمر واستولى على سجلماسة (سنة ٤٥٣ هـ).

وهكذا صار في يد ابن عمر ملك فيه مدينة مثل سجلماسة، فبادر إلى تعيين أحد بني عمه الأقربين يوسف بن تاشفين والياً عليها.

وبعد أن بدرت بوادر الملك، وبدا أن هذا الملك قابل للاتساع هنا في شمال أفريقيا، نسي ابن عمر الهدف الذي أعلن أنه يبغي في تحركه تحقيقه، وهو الوصول إلى الأندلس ومجاهدة الكفار! . . وانصرف همه إلى التخطيط لبلوغ الهدف البديل وهو الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه مما حوله من بلاد ومجاهدة المسلمين فيها[1] . . !

فعهد بولاية سجلماسة إلى ابن أخيه أبي بكر بن ابراهيم بن عمر وجهز جيشاً إلى السوس مع يوسف بن تاشفين فاستولى عليه.

وفي سنة ٤٦٢ هـ توفي أبو بكر بن عمر، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملكّوه عليهم وتلقب بلقب أمير المسلمين، وتوسع في ملكه حتى استولى على المغرب حصناً حصناً، وبلداً بلداً. ثم اختط مدينة مراكش واتخذها عاصمة لملكه. واستولى على سبتة وطبخةَ وسلا وغيرها، وصار له جيش كبير.

تساقط بلاد الأندلس

في سنة ٤٧٨ هـ، كانت مدينة طليطلة تسقط بيد الإسبان، وكان المعتمد بن عباد صاحب قرطبة واشبيلية وغيرها يؤدي لهم

---

(١) صار للمرابطين من نواحي السنغال إلى سجلماسة، ومن درغة إلى اغمات إلى الشياطمة.

الجزية، وقد نبه سقوط طليطلة عقلاء المسلمين إلى الخطر الذي ينتظر الحواضر الإسلامية الأخرى في الأندلس.

ويصف ابن الأثير[1] الموقف بهذه الكلمات:

«وسمع مشايخ قرطبة بما جرى ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض» إلى أن يصل ابن الأثير إلى القول بأن المعتمد التقى المجتمعين، فتقرر إرسال رسول استنجاد بزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين. ولبى ابن تاشفين الاستنجاد وعبر البحر بعسكره إلى الأندلس، ووافى المعتمد وعسكره وعسكر قرطبة والمتطوعة الأندلسيين، والتقوا بالأذفونش وجيشه في (الزلاقة) فكان النصر الكبير للمسلمين، وذلك في العشر الأول من شهر رمضان سنة ٤٧٩ هـ.

وعاد يوسف بن تاشفين بمرابطيه إلى مراكش. وفي العام الثاني عاد إلى الأندلس والتقى المعتمد بن عباد وعبدالله بن بلكين الصنهاجي صاحب غرناطة، وساروا جميعاً إلى حصار (ليط) وهو حصن منيع للأسبان، فعجزوا عن فتحه ورحلوا عنه.

وعاد ابن عباد إلى أشبيلية، واجتاز ابن تاشفين في طريق عودته بغرناطة ومعه ابن بلكين. فأعلن ابن تاشفين استيلاءه

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ١٥١.

على غرناطة. غادراً بابن بلكين الذي اضطر لعبور البحر إلى أفريقيا، وعاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش تاركاً في غرناطة من يحكمها نيابة عنه.

وامتد حكمه في أفريقيا إلى ما لم يكن قد امتد إليه حتى الآن مثل: بلاد السوس، وورغة، وقلعة مهدي.

وفي سنة ٤٨٤ هـ كان يوسف بن تاشفين يرسل حملة عسكرية إلى القسم الإسلامي من الأندلس فتستولي على مرسية، وشاطبة، ودانية، وبلنسية. ثم تتجه إلى اشبيلية عاصمة المعتمد بن عباد فتحتلها بعد معارك عنيفة.

ويصف ابن الأثير[١] ما فعلته حملة المرابطين في إشبيلية قائلاً: «واشتد الأمر على أهل البلد ودخله المرابطون من واديه، ونُهب جميع ما فيه، ولم يبقوا على سَبَد ولا لَبَد، وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم وسبيت المخدرات وانتهكت الحُرمات، فأُخذ المعتمد أسيراً ومعه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع ما لهم، فلم يصحبهم من ملكهم بُلغة زاد.

وسُيّر ابن عباد وأهله إلى مدينة أغمات[٢]، فحبسوا فيها، وفعل أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممن قبله ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده إلا من رضي

---

(١) ج١٠، ص ١٩٠.

(٢) اغمات: مدينة في سفح جبل بالقرب من مراكش.

لنفسه هذه الرذيلة، وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقونها على أنفسهم، فأبان أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهذا الفعل عن صغر نفس ولُؤم قدرة» (انتهى)[1].

وقد ظل المعتمد بن عباد مسجوناً حتى توفي في السجن، وكان وهو في السجن مقيد الرجلين وفي ذلك يقول من أبيات:

تعطــف فــي ســاقــي تعطــف أرقــم
يســاورهــا عضــاً بــأنيــاب ضيغــم

ويقول ابن الأثير أيضاً: «ولما أُخذ المعتمد وأهله قتل ولداه بين يديه صبراً»[2].

---

(١) من الشعر الذي قيل في نكبة المعتمد قول ابن اللبانة:

تبكــي السمــاء بــدمــع رائــح غــادي
علــى البهــاليــل مــن أبنــاء عبــاد
علــى الجبــال التــي هــدت قــواعــدهــا
وكــانــت الأرض منهــا تحــت أوتــاد
عــرّيســة دخلتهــا النــائبــات علــى
أســاود منهــم فيهــا وآســاد
وكعبــة كــانــت الآمــال تعمــرهــا
فــاليــوم لا عــاكــف فيهــا ولا بــاد

(٢) وفي ذلك يقول المعتمد من أبيات:

يقــولــون صبــراً لا سبيــل إلــى الصبــر
ســأبكــي وأبكــي مــا تطــاول مــن عمــري=

ثم سار المرابطون من اشبيلية إلى المرية وبطليوس، وكان عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ممن أعان المرابطين على المعتمد، فساروا إليه واستولوا على بلده وأخذوه أسيراً هو وولده الفضل فقتلوهما، فقال عمر حين أرادوا قتله: قدموا ولدي قبلي للقتل ليكون في صحيفتي، فقتل ولده قبله. ولم يتركوا من ملوك الأندلس سوى بني هود لأنهم كانوا أقوياء ولأعتبارات أخرى.

ويقول ابن الأثير: «ولما استقصى عسكر أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) ملوك الأندلس، وأخذ بلادهم جمع ملوكهم وسيّرهم إلى بلاد المغرب وفرقهم فيها».

ومما يلفت النظر هنا أن ابن الأثير الذي بدا في كل ما كتبه عن المرابطين متعاطفاً معهم، بدا هنا منكراً لفعلة يوسف بن تاشفين، حاملاً عليه.

وربما كان لصفة الغدر التي يمكن أن يوصف بها ما ارتكبه ابن تاشفين في الأندلس، أثر في غضب ابن الأثير وهجومه على ابن تاشفين ونعته بما نعته به من «صغر نفس ولؤم قدرة».

وفي سنة ٥٠٠ توفي يوسف تاشفين. وهنا تعود إلى ابن

= هـــوى بكمـــا المقـــدار عنـــي ولـــم أمـــت
فـــأدعـــى وفيـــا، قـــد نكصـــت إلـــى الغـــدر
ولـــو عـــدتمـــا لاختـــرتمـــا العـــود فـــي الثـــرى
إذا أنتمـــا أبصـــرتمـــانـــي فـــي الأســـر

الأثير رقته فيتناسى ما وصف به ابن تاشفين من صغر نفس ولؤم قدرة، ويقول في رثائه: «توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك الغرب والأندلس وكان حسن السيرة خيراً عادلاً، يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم!».

ثم يقول: «كان حليماً كريماً، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام!».

ونحن نسأل ابن الأثير من وراء قبره: هل من حسن السيرة أن يفعل ما فعل بالمعتمد بن عباد؟! وهل من العدل أن يقتل ولديه صبراً أمام عينيه؟ وهل من الميل إلى العلم والدين أن ينتهي أمر بنات المعتمد إلى ما انتهى إليه؟.

وهل إدامة سجن المعتمد حتى الموت ووضع القيد في رجليه وقتل ولديه بلا ذنب، هل كل ذلك صادر عن رأي أهل العلم والدين؟!.

وهل ما جرى ـ مما ذكره ابن الأثير نفسه ـ يدل على أن ابن تاشفين كان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام؟

وتولى بعد يوسف ابنه علي بن يوسف، ويقول المراكشي (المعجب ٢٤١) عن عهده: «واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يدفع إليه من الخراج وعكف على

العبادة والتبتل وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال».

على أن ابن الخطيب (تاريخ المغرب العربي ٢٥٣) يقول عن عهده: «كان ملكاً كبيراً فاضلاً معتدلاً عظم في أيامه الملك واتسق العز وملك جميع بلاد المغرب إلى بجاية، إلى الأرض الأندلسية والجزر الجوفية وبلاد القبلة بأسرها».

وأننا نقول: أن اتساع الرقعة التي يحكمها، والصفات التي ذكرها له لا تتنافى مع ما ذكره عنه المراكشي في المعجب، ولا ندري أي كبر وفضل واعتدال يقصد ابن الخطيب؟..

وفي زمن علي بن يوسف هذا سنة ٥٠٥ هـ أي بعد توليه الملك بخمس سنين زحف الأذفونش صاحب طليطلة لمهاجمة المناطق الإسلامية، فزحف علي لمقابلته والتقى الفريقان في معركة شديدة.هزم فيها الأذفونش وعاد خائباً.

ويعزو ابن الأثير هجوم الأذفونش إلى تصوره ضعف البلاد بعد وفاة ابن تاشفين، ويعلق على نتيجة المعركة قائلاً: «وذل إذفونش حينئذ وعلم أن للبلاد حامياً لها وذاباً عنها».

ثورة قرطبة

وفي سنة ٥١٤ هـ في عهد علي بن يوسف ثارت مدينة قرطبة على المرابطين. ويعزو ابن الأثير سبب الثورة إلى أن عبداً من عبيد الوالي مد يده خلال الاحتفالات بعيد الأضحى إلى امرأة فأمسكها فاستغاثت فوقعت الفتنة (العظيمة) ـ كما يصفها ابن الأثير ـ بين

العبيد وأهل البلد ودامت جميع النهار، والحرب قائمة على ساق وأدركهم الليل فتفرقوا.

فوصل الخبر إلى الوالي أبي بكر يحيى بن روّاد، فاجتمع إليه الفقهاء والأعيان، فقالوا: المصلحة أن تقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة فأنكر ذلك وغضب منه، وأصبح من الغد وقد حشد مسلحيه لقتال أهل البلد، فقاتلوه فهزموه، وتحصن بالقصر فحصروه وتسلقوا إليه فهرب منهم بعد مشقة وتعب فنهبوا القصر، وأحرقوا جميع دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة.

واتصل الخبر بأمير المسلمين (علي بن يوسف) فاستعظم الأمر، وجمع العساكر من صنهاجة وزناته والبربر وغيرهم فاجتمع له منهم جمع عظيم، فزحف بهم واجتاز البحر إلى الأندلس وحصر مدينة قرطبة فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمى دمه وحريمه وماله.

فلما رأى أمير المسلمين شدة قتالهم دخل السفراء بينهم وسعوا في الصلح، فأجابهم إلى ذلك.

هذه النصوص التي أوردها ابن الأثير[١] عن ثورة قرطبة على المرابطين ذات دلالات كبيرة عن هؤلاء المرابطين الذي قامت دعوتهم في الأساس على وعظ الناس ودعوتهم إلى التمسك

---

(١) ج١٠، ص ٥٥٨.

بالدين، فإذا بهم يفتتحون الدعوة بذبح ألفي رجل، وصار الشعار من يخالف يقتل.

ثم جرى ما جرى على المعتمد بن عباد، على يدي يوسف بن تاشفين[1]، ثم كان الأمر في عهد ولده علي: أن استولى النساء

---

(١) يقول الدكتور محمد مجيد السعيد في كتابه (الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس) (ص٤٤) عن عهد المرابطين ما يلي: نمت طبقة معينة مستغلة أثرت واغتنت على حساب الجماهير الفقيرة. هذه الطبقة هي مجموعة الفقهاء الذين بلغوا من المكانة لدى السلطة أن لا يبت في أمر صغير أو كبير من أمور الدولة إلا بمشورتهم وبعد أخذ آرائهم.

وهذا يفسر لنا سبب هجوم الشعراء عليهم وهجائهم، من ذلك أبيات ابن البني يخاطب بها قاضي قرطبة:

أهل الرياء لبستم ناموسكم — كالذئب أدلج في الظلام القاتم

فملكتم الدنيا بمذهب مالك — وقسمتم الأموال بابن القاسم

وابن القاسم: هو من مشاهير علماء المالكية.

وكانت شكوى ابن عبدون الآسية الحزينة في رسالة الحسبة تعبيراً آخر وصرخة أخرى للتردي الذي شهدته الأندلس أبان ذلك العصر. لنسمعه يقول بأسف: «إن الرئيس العادل الساعي إلى الخير المرتبط بالناموس أصبح يلتمس فلا يوجد (ابن عبدون وآخرون: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ص ٥ تحقيق ليفي برونفسال، القاهرة ١٩٥٥).

على الأحوال، وصارت كل امرأة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور...

ثم هذه هي الثورة عليهم في قرطبة من أجل محاولة اعتداء عبد من عبيدهم على امرأة...

ونستنتج من ثورة قرطبة ما يلي:

١ ـ لم يستطع المرابطون الاندماج في الشعب ولم تتغلغل دعوتهم في الجماهير، بل ظلوا عضواً منفرزاً عن الشعب، ينظر إليهم الناس على أنهم غرباء عنه.

٢ ـ من أجل أن يستمر القتال طول النهار بين أهل قرطبة وبين العبيد، يجب أن يكون عدد هؤلاء العبيد كبيراً جداً. وهذا يتنافى مع أبسط قواعد الإسلام الذي حضّ على تحرير العبيد لا على الإكثار منهم، وهذا يدل ـ كما تدل أحداث يوسف بن تاشفين من قبل ـ على أن الحركة المرابطية كانت منذ تأسيسها على يد مؤسسها (التنفيذي) أبي بكر بن عمر، بعيدة عما تظاهرت بأنها تدعو إليه من التمسك بأهداب الدين.

ولا نشك أبداً بإخلاص عبدالله بن ياسين المؤسس (النظري) للحركة، ولكن الذي نشك به هو مقدار تفهمه لجوهر الإسلام والدعوة الإسلامية، فالذي يأمر ـ أو على الأقل يرضى ـ بذبح ألفي مسلم صبراً من أجل أنهم لم يستجيبوا لتعاليمه، ويكون شعار دعوته: من لم يكن معنا قتلناه، هو إما مغفل استغله أبو بكر بن

عمر، أو إنسان لا صلة له بروح الإسلام وجوهره وأسلوبه في الدعوة إلى الحق.

٣ ـ إذا كان ما أجمع عليه الفقهاء والأعيان من أخذ أحد العبيد وقتله، يرضي أهل قرطبة، فهو لا يرضي لا الإسلام ولا العدالة ولا الحق، فكيف يصح في الشريعة أن تأخذ رجلاً لم يثبت عليه أنه ارتكب ما يوجب قتله فتقتله؟! وإذا كان الأعيان قد أجمعوا على ذلك، فكيف يصح ذلك للفقهاء؟!.

٤ ـ هذه الجموع التي جمعها (أمير المسلمين) علي بن يوسف ليته كان جمعها لهدف أسمى من تأديب أهل قرطبة.

٥ ـ وصف ابن الأثير لثبات أهل قرطبة وقتالهم بأنه: قتال من يريد أن يحمي دمه وحريمه وماله. هذا الوصف يدلنا على ما كان يتوقّعه أهل قرطبة من (المرابطين) أصحاب الدعوة الإسلامية!! أن يرتكبوه بنسائهم ودمائهم وأموالهم.

مات علي بن يوسف[1] بعد أن قامت حركة إسلامية أخرى

---

(١) توفي علي بن (يوسف) سنة ٥٣٧ هـ فتتابعت الثورات على المرابطين في الأندلس. من ذلك ثورة ابن قسي في غرب الأندلس التي قام بها (المريدون) وهم جماعة متزهدة تلقت تعاليمها عن الزاهد أبي العباس أحمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن العريف (٤٨١ ـ ٥٣٦ هـ)، وغلب على هذه الجماعة في بادىء الأمر الزهد والورع والتمسك بالطرق الصوفية غير أنها تحولت على يد ابن قسي إلى جماعة تسعى إلى الحكم والسلطة. =

في المغرب الإفريقي عرفت باسم (الموحدون) بقيادة ابن تومرت وقاتلت جيوش المرابطين، ودام القتال في عهد خليفة علي حتى انتصر الموحدون وانتهى أمر المرابطين سنة ٥٤٢ بعد أن ختموا عهدهم أسوأ خاتمة إذ استنجدوا بالفرنج على قتال الموحدين.

يقول ابن الأثير:[١] عن فتح الموحدين لمراكش عاصمة المرابطين: «وكان بمراكش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم فجاءوا إليهم نجدة».

وكان قتل آخر ملوكهم إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين ـ وهو صبي ـ سنة ٥٤٢ هـ، وبه انقرضت دولتهم بعد أن دامت سبعين سنة، وولي منهم أربعة: يوسف وعلي وتاشفين وإسحاق.

وابن الأثير الذي رأيناه أول الأمر يهاجم يوسف بن تاشفين ويحمل عليه، ثم يثني عليه عند موته، يعود هنا بعد أن أصاب المرابطين ما أصابهم فيقول عن يوسف بن تاشفين: «ولقد أساء

= ومثل ثورة قرطبة بقيادة أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين قاضي المدينة سنة ٥٣٩ وكانت ذات صبغة سياسية شعبية.

وقد بلغ عدد تلك الثورات المحلية أكثر من عشر، وكان أعظمها وأقواها غير ثورتي ابن قسي وابن حمدين: ثورة ابن أضحى (أبي الحسن علي بن عمر بن أضحى الهمداني) (٤٩٢ ـ ٥٣٩ هـ) في غرناطة، وثورة الأمير أبي عبدالله بن مردنيش (محمد بن سعد) في شرق الأندلس التي كانت قوية مؤثرة حتى سنة ٥٦٧ هـ.

(١) ج١٠، ص ٥٨٤.

يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد، وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب، فلا جرم سلط الله عليه في عقابه مَن أربى في الأخذ عليه وزاد».

ونقول: ابتدأوا أمرهم بذبح ألفي مسلم صبراً، وانتهوا بالاستنجاد بالإفرنج!. ومع ذلك فهم أصحاب دعوة إسلامية!!...

كان لا بد من هذا الحديث غير القصير عن المرابطين (الملثمين) لإيضاح ما ذكره ابن الأثير عن (الملثم) الذي جاء إلى بغداد خلال الحروب الصليبية، وأشار ابن الأثير إلى سبب قدومه إلى بغداد.

يقول ابن الأثير عن سبب قدومه ـ كما تقدم ـ أنه ممن قاتلوا الصليبيين مع الأفضل بن بدر الجمالي وأبلى بلاء حسناً.

أما لماذا جاء إلى بغداد ولم يعد إلى بلاده المحكومة من جماعته (المرابطين)، فلأن هؤلاء المرابطين الذين افتتحوا دعوتهم بذبح ألفي مسلم صبراً، وختموها بالاستنجاد بالإفرنج واستقدموا جيشاً منهم إلى عاصمتهم مراكش ـ إن هؤلاء المرابطين يعتقدون بالعلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح ـ كما يقول الأثير ـ، والمقصود بالعلويين هنا: الفاطميون، الذين اصطلح ابن الأثير في كل ما كتبه عنهم في كتابه (الكامل) على تسميتهم بالعلويين لا بالفاطميين، فهو ينسبهم إلى علي(ع) لا إلى فاطمة(ع).

أما لماذا يعتقدون فيه الاعتقاد القبيح فلأنهم على غير

مذهبهم!.. وقد قاطعوهم بحيث أنهم إذا أرادوا الحج لا يمرون في مصر.

ويؤكد ابن الأثير أن بدراً الجمالي الذي كان قد سيطر على الخلافة الفاطمية وأصبح هو الحاكم الفعلي لمصر ـ إن بدراً هذا حاول إصلاحهم، بمعنى التقرب إليهم وإزالة ما في نفوسهم، فلم يميلوا إليه ولا قاربوه.

ولما أعياه أمرهم قرر معاملتهم بالشدة، فكان يقتل من ظفر به منهم، ومن أجل أن يفعل بدر ذلك فلا ريب أنه كان يخشى إفسادهم الناس عليه.

وعندما خلف الأفضل والده بدراً عاد يستصلحهم ويحسن إليهم، ولقد كان في حرب متصلة مع الصليبيين، ويريد الاستعانة بكل من يمكنه الاستعانة به في هذه الحرب، فاستطاع استمالة فريق منهم فانضموا إليه في جهاد الصليبيين، وكان ممن انضم إليه: الملثم الذي تحدث عنه ابن الأثير.

وبالرغم من أن اتصال هذا الملثم ببدر الجمالي كان اتصالاً جهادياً أبلى فيه في قتال الصليبيين بلاءً حسناً، فإنه كان يخشى العودة إلى بلاده، خوفاً من أن يقتله قومه المرابطون، الذين يرون الاستنجاد بالإفرنج حلالاً، أما التعامل مع المسلمين الذين هم على غير مذهبهم، ولو كان تعاملاً جهادياً فهو حرام يستحق فاعله القتل. لذلك آثر الذهاب إلى بغداد لفترة، ثم عاد إلى مصر.

وكما رأينا فيما قال ابن الأثير: لم يكن للمصريين حرب مع

الفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيداً. . . وهذا القول يدلنا فيما يدل علي أن الأفضل قد ظل مواصلاً الحرب على الصليبيين دون انقطاع.

مع السلاجقة

سنة ٥٠٠ هـ أقطع السلطان محمد جاولي سَقاوو الموصل وديار بكر والجزيرة كلها، مقابل أن يسير إلى الفرنج ويأخذ البلاد منهم. ولنعرف من هو جاولي هذا ننقل وصف ابن الأثير له: «كان جاولي قبل هذا قد استولى على البلاد التي بين خوزستان وفارس وأقام بها سنين، وعمر قلاعها وحصّنها، وأساء السيرة في أهلها وقطع أيديَهم وجدع أنوفَهم وسمل أعينَهم..

هذه هي سيرة الوالي الذي اختاره السلطان محمد ليحكم تلك الأرض الواسعة.

والسلطان محمد الذي يعرف ما يجري في الغرب الإسلامي، ويعرف استيلاء الصليبيين على الديار المقدسة، ويعرف عيث الصليبيين بالمسلمين وإذلالهم لهم، لم يكن من همه أن يهب بنفسه إلى إنجاد الإسلام ودفع الضيم عنه، بل عهد بهذه المهمة إلى من يعلم هو قبل غيره أنه ليس من رجالها.

عهد بهذه المهمة إلى (جاولي سقاوو)!.. الرجل الذي قطع أيدي المسلمين في بلادهم وجدع أنوفهم وسمل أعينهم.. الرجل الذي استحل في المسلمين كل ذلك.. يطلب إليه السلطان محمد

أن يسير إلى الفرنج ليأخذ البلاد منهم!..

في موازاة قطع أيدي الرعايا وجدع أنوفهم وسمل عيونهم، عمّر القلاع وحصّنها، عمّرها وحصّنها بما خرّب من البيوت ونقض من الديار!..
عمّرها وحصنها حذراً من أن يثور عليه الذين خرّب دورهم وهدم منازلهم، فيحتمي بها منهم.. هذا هو الرجل الذي طلب إليه سلطان السلاجقة قتال الصليبيين واسترجاع ما أخذوه من بلاد.
فماذا فعل؟ ماذا فعل جاولي سقاوو المنتدب لإنقاد المسلمين؟..

ذهب من بغداد إلى الموصل وجعل طريقه على البوازيج فملكها، ونهبها أربعة أيام، بعد أن أمّن أهلها وحلف لهم أنه يحميهم[1].

هذا الذي أُرسل لإنقاذ المسلمين من النهب والذل، حوّل مهمته إلى نهب المسلمين وإذلالهم، هذا الذي أُرسل ليحمي شرائع الإسلام استباح شرائع الإسلام فنكث بالأمان، وحنث بالأيمان..

ومضى بعد البوازيج إلى أربل، وفي الطريق لقيه (جكرمش) بجنوده ليحول بينه وبين الوصول إلى الموصل لأن حكمها كان له فاقتتلا وانتصر جاولي سقاوو.

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٤٢٣.

ووصل خبر الهزيمة إلى جماعة جكرمش في الموصل فتحصنوا بها لقتال جاولي سقاوو، وبدأ الطمع بالموصل وأرادها قلج أرسلان فصارت له.

واستنجد الملك رضوان بن تتش[1] بجاولي ليقدم إلى الشام لقتال الصليبيين قائلاً له: إن الفرنج قد عجز من بالشام عن منعهم، فسار جاولي إلى الرحبة وحاصرها، فاشتد الحصار على أهلها وضاقت عليهم الأمور، واستطاع جاولي دخولها فأول شيء فعله هو نهبها.

ثم التقى جيشه بجيش قلج أرسلان فهزم قلج ودخل جاولي الموصل في أحداث وخطوب جمة.

أما المهمة التي انتدب لها جاولي، وهي الذهاب لقتال الفرنج فقد نسيها جاولي في غمار النهب والسلب، واستعاض عن استرداد أرض الشام من الفرنج باسترداد الموصل من المسلمين.

وفي سنة ٥٠٢ كانت نهاية حكم جاولي للموصل، فالسلطان محمد كان قد جعل إليه ولاية كل بلد يفتحه فاستولى على كثير من

---

(١) يصفه ابن الأثير عند وفاته بأنه صاحب حلب وأن أموره كانت غير محمودة، وأنه قتل أخويه أبا طالب وبهرام، وأنه كان يستعين بالباطنية لقلة دينه. ثم يقول عن ابنه ألب أرسلان الذي ولي بعده بأنه قتل أخوين له.

البلاد والأموال[1] وما دام النهب يرافق استيلاءه على البلاد، فمن الطبيعي أن تكثر لديه الأموال لكثرة ما استولى عليه من البلاد.

والسلطان السلجوقي محمد الذي أطلق يده في الفتح والنهب كان ينتظر أن يشركه جاولي بالمنهوبات، ولكن جاولي استأثر بها فقرر السلطان استبداله بغيره من الولاة الذين يتقاسمون مع سلاطينهم ما ينهبونه من الشعب، فاتفق مع جماعة من الأمراء والولاة أن يتوجهوا إلى الموصل وبقية البلاد التي يحكمها جاولي ويأخذوها منه، فتوجهوا إلى الموصل.

فقرر جاولي ترك الموصل بعد أن أحكم أمر الدفاع عنها، وأوكل إلى زوجته إدارة الدفاع بعد أن مهد لها الأمور بأن حبس أعيان الموصل، وأخرج من أحداثها ما يزيد على عشرين ألفاً، وأعلن أنه متى اجتمع عاميّان على الحديث في هذا الأمر قتلاً..

أصبحت الموصل في يد زوجة جاولي في شر حال من الذل والرعب وتوقع البلاء.

الأعيان في السجون، والشبان في قبضة جاولي، وعامة الشعب في فوضى لا قيادة فيها، فإذا خطر لاثنين أن يلتقيا فيتشاكيا قتلاً في الحال..

أما هو فقد ترك الموصل، يقول ابن الأثير: خرج عن البلد، ونهب السواد..

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٤٥٧.

نهب الشعب. . . هذا هو شعار العصر السلجوقي ومنهجه وعمله. أهل السواد الوادعين الآمنين المطمئنين، يفاجؤهم القائد المنتدب لإنقاذ القدس بالنهب والترويع. .

أما زوجته القائمة مقامه في الموصل فقد رأت أن زوجها قد اكتفى باضطهاد الرجال، فرأت هي أن تساوي في الاضطهاد بين الرجال والنساء، وأن تبرهن بأن المرأة ليست أقل كفاءة من الرجل. . . يقول ابن الأثير: «وصادرت زوجته من بقي بالبلد وعسفت نساء الخارجين عنه. . ».

لقد عمدت إلى أمرين: استولت على أموال من بقي في البلد من الرجال، وعسفت النساء اللواتي لم ينضو رجالهن تحت إمرة جاولي.

يقول ابن الأثير واصفاً حالة الموصل: «فتمادى الحصار بأهلها من الخارج، والظلم من داخل»، هذه الشدة التي كانت فيها الموصل ووصفها ابن الأثير بهذا الوصف أدت إلى ثورة داخل الموصل يمكن أن نسميها ثورة الجصاصين، ولم يكن من الممكن أن تقوم ثورة أوسع منها، ومع أن الجصاصين محدودو العدد فقد استطاعوا إحكام أمرهم فنجحوا.

لم يكن بالإمكان قيام ثورة عامة فقادة الشعب في السجون، وأحداثه مصادرون، ونساؤه مضطهدون. ولكنّ نفراً من الجصاصين يصفهم ابن الأثير بهذا الوصف: فلما طال الأمر على

الناس اتفق نفر من الجصاصين، ومقدمهم جصاص يعرف بسعدي على تسليم البلد.

والنفر في اللغة: من هم دون العشرة، أي أن الذين صمموا ونجحوا كانوا أقل من عشرة، وهكذا بتدبير هؤلاء النفر دخل عسكر السلطان البلد.

أما زوجة جاولي فتحصنت بالقلعة، ثم راسلت الأمير مودود قائد الحملة السلطانية في أن يفرج لها عن طريقها.

ويبدو أن الأمير مودود أنف من أن يتصدى لإمرأة ويقاتلها، فأفرج لها وخرجت من الموصل.

ويقول ابن الأثير: أنها خرجت بأموالها وما استولت عليه. وبهذا أصبح مودود حاكماً على الموصل وما ينضاف إليها.

أما جاولي الذي ذكرنا أنه ترك الموصل ومضى ينهب السواد، فقد أخذ معه (القُمّص بردويل) صاحب الرها وسروج وغيرها، وهو الذي كان قد أسره سُقمان وأخذه منه جكرمش، وبقي في الموصل مسجوناً خمس سنين، وبذل الأموال الكثيرة فلم يطلق.

وحاول جاولي أن يتحالف على السلطان مع بعض الأمراء السلاجقة فلم يوفق إلى ذلك. وهنا اتجه إلى القمص بردويل فأطلقه وخلع عليه، وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق أسرى المسلمين الذين في سجنه، وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله.

إن الشرط الأخير هو الهدف من إطلاق القمص، والشرطان الأولان شرطان ثانويان. الهدف من إطلاق القمص هو أن يذهب إلى مملكته ويجمع جيوشها ويجعلها على استعداد تلبية لنداء جاولي حين يناديها لنصرته على قومه، وأن يكون القمص نفسه على رأسها فلا يقودها غيره.

وهكذا فإن القائد السلجوقي الذي انتدب لإنجاد المسلمين على الفرنج، يستنجد بالفرنج على المسلمين!..

وتتشابك الأمور بعد ذلك وينتهي الأمر إلى أن يغري الملك رضوان بن تتش صاحب حلب ـ يغري (طنكري) الصليبي صاحب أنطاكية بجاولي فيتحالفا عليه، ويتحالف جاولي مع القمص وجوسلين وتقع حرب من أعجب الحروب: تحالف إسلامي صليبي على تحالف إسلامي صليبي، وتنتهي الحرب بهزيمة جاولي وحلفائه. ويقول ابن الأثير[1]: وقتل من المسلمين خلق كثير ونهب صاحب أنطاكية أموالهم وأثقالهم وعظم البلاء عليهم من الفرنج، وحدثت في هذه السنة معركة جانبية بين طغتكين والفرنج أدت إلى هزيمة الفرنج أولاً ثم عقد هدنة بين الفريقين، تخللتها معركة، يقول ابن الأثير عن نتيجتها: بأن عَسْكَر طغتكين انهزموا وخلوا ثقلهم ورحالهم ودوابهم للفرنج ووصل المسلمون علىٰ أقبح حال من التقطع.

(١) ج١٠، ص ٤٦٦.

الحال في غرب العالم الإسلامي

رأينا ما يجري في شرق العالم الإسلامي وصولاً إلى أطراف غربه. وسنرى هنا ما كان يجري في الوقت نفسه في غرب هذا العالم.

لقد ذكرنا من قبل أنه بينما كان السلاجقة يتناحرون في الشرق كان الصليبيون يستولون في الغرب على يافا، وأرسوف، وقيسارية، وحيفا، وطبرية، واللاذقية، وأنطاكية بعد أن كانوا استولوا على القدس والرها، وسروج. وكانوا يحاصرون طرابلس.

أما الآن في سنة ٥٠٣ فإن الصليبيين كانوا يشددون الحصار على طرابلس ويرسلون من أوربا أسطولاً كبيراً لإحكام حصارها، كما وقَوّوا قواهم البرية المحاصرة.

وكان فخر الملك أبو علي بن عمار لما رأى قبل ذلك اشتداد الحال على بلده طرابلس وضاقت عليه الأقوات وقلت واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد، وعلم أن الأمور قد استتبت للسلطان محمد ـ كما مر في الأبحاث السابقة ـ عزم على الذهاب إلى بغداد للاستنجاد بالسلطان محمد، بعد أن رتب في طرابلس الأجناد براً

وبحراً، وجعل كل موضع إلى من يقوم بحفظه، ودفع للأجناد راتب ستة أشهر مقدماً.

ثم مضى إلى بغداد فاستقبل فيها بحفاوة بالغة سواء من الخليفة أو من السلطان السلجوقي محمد. ويقول ابن الأثير[1]: إنّ السلطان سأله عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطوب في قتالهم، فذكر حاله وقوة عدوه وطول حصره، وطلب النجدة، وضمن أنه إذا سيرت العساكر معه أوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. فوعده السلطان بذلك. وحضر دار الخلافة، وذكر أيضاً نحواً مما ذكره عند السلطان.

فكان من أمر السلطان أن طلب من الأمير حسين بن أتابك قتلغ تكين ليسيِّر معه العساكر التي سيرها إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال جاولي سقاوو ليمضوا معه. ثم ترك السلطان بغداد قاصداً أصفهان.

يقول ابن الأثير: فلم يجد ذلك نفعاً..

أما العساكر الذي تظاهر السلطان بأنه طلب إرسالها مع ابن عمار بقيادة الأمير مودود، فقد كانت لها مهمة أخرى لاستنقاذ طرابلس من الصليبيين، بل استنقاذ الموصل من جاولي.

يقول ابن الأثير: في هذه السنة استولى مودود والعسكر

---

(١) ج١٠، ص٤٥٣.

الذي أرسله معه السلطان على مدينة الموصل وأخذوها من أصحاب جاولي سقاوو.

في الوقت الذي كانت عساكر السلطان السلجوقي تهب بقيادة الأمير مودود لاستنقاذ الموصل من جاولي. وفي الوقت الذي كان الأمير مودود ينجح في الاستيلاء على الموصل.

في هذا الوقت بالذات كان أسطول صليبي كبير مشحون بالرجال والسلاح والميرة يهب من أوروبا بقيادة ريموند بن صنجيل لاستنقاذ طرابلس من المسلمين.

وفي الوقت الذي كان القائد السلجوقي مودود يستولي على الموصل كان الملك الصليبيين بغدوين ملك القدس ومعه ريموند بن صنجيل وغيره من القادة الصليبي يستولي على طرابلس.

يقول ابن الأثير واصفاً الحال:

«ومدّ الفرنج القتال عليها (طرابلس) من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوة وقهراً ونهبوا ما فيه وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال. وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد ولا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارة. وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات، وأخذت دفائنهم وذخائرهم من مكامنهم».

وأغرى سقوط طرابلس الفرنج فساروا إلى بانياس ففتحوها، وإلى جبيل ففتحوها أيضاً. ثم واصلوا زحوفهم فامتدوا إلى صيدا

فضايقوها براً وبحراً فاضطرت لطلب الأمان فدخلوها وهجرها قسم من أهلها وبقي آخرون ففرضوا عليهم الأموال حتى أفقروهم واستغرقوا أموالهم فأخذوا يهاجرون من مدينتهم.

وامتد الصليبيون من الجانب الآخر فملكوا حصن (الاثارب) بالقرب من مدينة حلب وقتلوا من أهله ألفي رجل وسبوا وأسروا الباقين. ومنه مضوا إلى حصن (زَرْدَنا) ففتحوه وفعلوا بأهله مثل الاثارب.

فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفاً منهم وكذلك أهل بالس. وقصد الفرنج البلدين فرأوهما وليس بهما أنيس فعادوا عنهما. ودب الذعر في بلاد الشام كلها.

يقول ابن الأثير:

«فعظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر، وأيقنوا باستيلاء الفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الفرنج من الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة. فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار».

فلما بلغ الأمر إلى هذا الحد لم يعد الشعب يحتمل ما صار إليه من الهوان ومن توقع الشر الأكبر. فقرر جماعة من أهل حلب ـ

وهي المدينة التي وصل الفرنج إلى حصن الأثارب الذي لا يبعد عنها إلا ثلاثة فراسخ - قرر جماعة من أهل حلب الذهاب إلى بغداد حيث السلطان السلجوقي والخليفة لإثارة القضية والاستنجاد بالمصدر الأساسي للقوة، فلما وصلوا كان أول من تعاطف معهم خلق كثير من الفقهاء، وغيرهم من طبقات الشعب، فكان أن سارت يوم الجمعة مظاهرة كبرى إلى جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر.

لقد كانوا في تصرفهم هذا يقصدون إلى أن الدين ليس صلاة فقط ولا خطبة الجمعة وحدها، وماذا تفيد صلواتكم وخطبكم إذا كان الإسلام يباد ويهان في الجانب الآخر وإذا كنتم لا تنفرون لإنفاذ الركن الأهم من الإسلام وهو الجهاد..

وأمام هذه المظاهرة الصاخبة اضطر السلطان السلجوقي لأن يعدهم بإنفاذ العساكر للجهاد.

وفي يوم الجمعة الثاني جدد الحلبيون مظاهرتهم فمشوا ومشى معهم أهل بغداد إلى جامع القصر بدار الخلافة، فلما وصلوه منعهم حاجب الباب من الدخول فأزاحوه من طريقهم ودخلوا الجامع وكسروا شباك المقصورة وهجموا إلى المنبر فكسروه، وبطلت الجمعة أيضاً.

فلما رأى الخليفة تفاقم الأمور - وليس في يده شيء يستطيعه - أرسل إلى السلطان السلجوقي - وهو صاحب الحل والعقد -

يطلب إليه الاهتمام بالموضوع وتصريف أمر هذا الفتق ورتقه، على حد تعبير ابن الأثير.

فالخليفة هنا يرى أن الأمر عاد نقمة شعبية عارمة على الدولة كلها، وهو فُتق انفتق عليها لا بد من رتقه خوف تماديه واتساعه، فهو بذلك ينصح السلطان بالتلافي قبل اتساع الخطر.

وهنا قرر السلطان أن يفعل شيئاً، فجمع من في بغداد من الأمراء وطلب إليهم العودة إلى بلادهم والتجهز للجهاد. وزاد على ذلك فضم ولده مسعود إليهم وأرسله مع الأمير مودود صاحب الموصل ليلتحق بهما الأمراء ويسيروا مجتمعين لقتال الفرنج.

وهنا حدث حادث فريد نجهل الآن تفاصيله، فيبدو جلياً أن الصراع بين البيزنطيين والصليبيين قد بلغ أقصى مداه بحيث أدى ذلك إلى أن يرسل أمبراطور القسطنطينية رسولاً إلى السلطان السلجوقي في بغداد يستنفره على الصليبيين ويحثه على قتالهم ودفعهم عن البلاد[١]. وكان وصول هذا الرسول إلى بغداد قبل وصول الحلبيين إليها، فعلموا وهم في بغداد بمهمة الرسول البيزنطي، فكانوا يقولون للسلطان: أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم!.

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٤٨٣.

وإذا كان الأمر على غير ما تصور الحلبيون من أن استنفار الملك البيزنطي للسلطان السلجوقي هو حمية منه للإسلام، وإنما هو مصلحة مشتركة بين الاثنين تقضي بالقضاء على الصليبيين الذين باتوا ينازعون ملك القسطنطينية ملكه، ويهددونه في بلاده.

فإنه كان يمكن للسلاجقة أن يغتنموا هذا الغضب البيزنطي فيتحالفوا مع صاحبه للتخلص من الصليبيين. ولكن السلاجقة كانوا في همّ آخر غير همّ تخلّص الأرض الإسلامية من الصليبيين، هو تخلّص بعضهم من بعض.

وفي خلال هذا التجهم الإسلامي الذي أصبح يعم العالم الإسلامي تزف ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة، فلا يكتفى بأدنى حد من الابتهاج احتراماً لأحزان المسلمين العالمية، بل زينت بغداد وغُلّقت، وكان بها فرحة عظيمة لم يشاهد الناس مثلها ـ كما يقول عنها ابن الأثير.

التقى أُمراء السلاجقة في الموصل إنفاذاً لما تقرر في بغداد نتيجة للمظاهرات الحلبية التي استجاب لها البغداديون فضغطوا على الخليفة والسلطان، فدعا السلطان إلى الجهاد.

والأمراء الذين التقوا هم: الأمير مودود صاحب الموصل، الأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر، والأميران الأخوان إيلبكي وزنكي ابنا بُرسق، ولهما همذان وما جاورها، والأمير أحمديل صاحب مراغة.

وكوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب إربل، والأمير إيلغازي صاحب ماردين، والأمراء البكجية باللحاق بالأمير مودود.

لقد كان ملتقى عسكرياً ضخماً يمكن ربط الأمل الكبير به. ولا إخال إلا أن الناس كانوا وهم يتسامعون بهذا الحشد الكبير من الأمراء والمقاتلين أيقنوا بالخلاص.. ونحن لا ندري أين كان الوفد الحلبي في هذه الأثناء، هل كان قد عاد إلى حلب حاملاً البشرى لا إلى حلب وحدها، بل إلى بلاد الشام كلها بنجاح مساعيه، واستجابة أولي الأمر إلى صوت الاستغاثة المنبعث من أعماق القلوب.. أم أن الوفد قد ظل في بغداد يراقب وينتظر؟

أغلب الظن أنه كان قد عاد إلى حلب بعد أن لمس لمس اليد أن ما يشبه النفير العام قد أعلن بين الأمراء.

والذي يلفت النظر هو اتساع الرقعة التي يسيطر عليها هؤلاء الأمراء وما يمكن أن يتحشّد منها من مقاتيلين فمن تبريز إلى ديار بكر من جانب، ومن مراغة إلى همذان وما جاورها من جانب آخر، ومن اربل إلى الموصل إلى ماردين...

هذه الأرض الواسعة إذا أهيب بها بنداء: الله أكبر، نداء منبعث من قلوب مخلصة، وضمائر حية، وحناجر متحمسة ـ إذا أهيب بها ستتدفق منها الجماهير تدفق أمواج البحر الهائج صارخة: الله أكبر، فتكتسح كل شيء..

ولكن لا القلوب كانت مخلصة، ولا الضمائر كانت حية، ولا الحناجر كانت متحمسة!..

مشت جموع الأمراء إلى سنجار، ففتحت عدة حصون للفرنج، حتى انتهت إلى حصار مدينة (الرها)، ولكن الحصار لم يلبث أن فك عن الرها، وعاد عنها الأمراء دون أن يفتحوها.

فقد قابل هذا التجمع الإسلامي تجمع صليبي استعد لمقابلته، على أن لم يتعد مناوشات و(مناورات) وتبادل أمكنة استطاع معها الفرنج إحكام أمر الرها، فاستعاض الأمراء عن حصارها بحصار قلعة تل باشر فلم ينجحوا في فتحها فرحلوا عنها.

وتخلوا نهائياً عن قضية الجهاد، وعادوا إلى التآمر بعضهم على بعض، وعوضاً عن أن يتوجهوا إلى الأرض المحتلة، توجهوا إلى حلب فاستراب بهم صاحبها الملك رضوان فحال بينهم وبين دخولها ولم يجتمع بهم.

ومرض أحدهم الأمير سكمان القطبي، ومات في بالس، فجعله أصحابه في تابوت، وحملوه عائدين إلى بلاده. فاغتنم هذه الفرصة رفيق سكمان في الجهاد!! إيلغازي، واستضعف جماعته بعد موته، فقصدهم ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحزموا أمرهم وجعلوا تابوت أميرهم في القلب وقاتلوا بين يديه، فانهزم إيلغازي وغنموا ما معه، ومضوا إلى بلادهم!..

هكذا عاد مصير حملة الجهاد، وإنقاذ المسلمين في بلاد الشام!

ولم ينته الأمر، فإن الجيش السلطاني ـ كما يسميه ابن الأثير ـ بعد أن حيل بينه وبين دخول حلب، ورفض صاحبها رضوان لقاءهم تركوا حلب ومضوا إلى معرة النعمان، واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق فاطلع منهم على نيات فاسدة في حق رفيقهم الأمير مودود، فنزل عليه واطلعه على أمرهم.

ولما رأى طغتيكن ما رأى وعلم من نياتهم الفاسدة ما علم خاف أن يقصدوه إلى دمشق فيأخذونها منه فاتصل سراً بالفرنج وأحكم أمره معهم وهادنهم.

ثم تفرقت العساكر وعاد كل أمير إلى حيث جاء!!.

النهاية التي صارت إليها حملة الجهاد السلطاني جرأت الفرنج على الانتشار في بلاد المسلمين واستصفائها بلداً بعد بلد، فكان أن بدأوا بمدينة صور، وسار إليها بغدوين صاحب القدس يقود حشوداً صليبية لحصارها، فلما وصلها تفنن في الحصار فأعد ثلاثة أبراج خشب علو البرج سبعون ذراعاً وفي كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحدها إلى سور البلد وأخلوه من الرجال.

فأحضر الوالي أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم، فقام شيخ من أهل طرابلس، يبدو أنه ممن كان لجأ إلى صور بعد احتلال طرابلس، وضمن على نفسه إحراقها،

وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل منهم حزمة حطب، فقاتلوا الفرنج إلى أن وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة، فألقى الحطب من جهاته، وألقى فيه النار، ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في البرج بإطفاء النار ويتخلّصوا، فرماهم بجُرب كان قد أعدها مملؤة من العذرة، فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث فتمكنت النار من البرج، فهلك كل من فيه إلا القليل. وأخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب، ثم أخذ سلال العنب الكبار، وترك فيها الحطب بعد أن سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت، ورماهم بسبعين سلة، وأحرق البرجين الآخرين.

وعلم الصوريون أنهم وحدهم غير مستطيعين الصمود أمام الحملة الصليبية الكبيرة فاستنجدوا بطغتكين صاحب دمشق، ووعدوه بأن يسلموا البلد إليه.

وإذا كان طغتكين هذا قد أقام علاقات مع الفرنج وسالمهم وهادنهم ـ كما ذكرنا فيما تقدم من القول ـ فإنه اليوم قد نقض هدنتهم وقرر إنجاد الصوريين. ونريد أن نحسن الظن به، فلا نقول أن الطمع بتملك صور وامتداد سلطته إليها هو الذي حمله على ذلك، بل إن النخوة الإسلامية هي التي دفعته، وربما السببان معاً...

وسار حتى بلغ بانياس، وسيّر إلى صور نجدة مئتي فارس، فدخلوا البلد، فاشتدت عزائم من فيه، واستبسلوا في قتال الفرنج.

وقابل الفرنج استبسالهم بمثله، خوفاً من تتابع النجدات.

وراح طغتكين يغير على أعمال الفرنج حول دمشق، ثم واصل السير باتجاه صور، فقطع الميرة عن الفرنج، فاستقدموها بحراً. وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر.

على أن موضع التساؤل هنا: لماذا لم يقدم هو نفسه بعسكره على إنجادهم وقد رأينا ما فعل وصول المأتي فارس إليهم؟!.

كان أهل صور يقاتلون قتال من أيس من الحياة، كما يصفهم ابن الأثير، ولذلك لأنهم يعلمون المصير الفظيع الذي سيصيرون إليه إذا انتصر الفرنج ودخلوا عليهم البلد.

وأخيراً يئس الفرنج من النصر فانسحبوا من صور إلى عكا.

هذا الذي مر ذكره كان من أحداث سنة ٥٠٦ هـ، وفي مطلع السنة ٥٠٧ هـ، في شهر المحرم منها كان بغدوين ملك القدس يواصل غاراته على دمشق نفسها وينهب ويخرب، حتى أن دمشق أصبحت في شبه حصار اقتصادي انقطعت فيه المواد عنها فعمّ الغلاء وقلّت الأقوات، فرأى حاكمها طغتكين أن يستعين بصديقه الأمير مودود صاحب الموصل، فأرسل إليه يصف له ما هو فيه من الضيق، والعجز عن دفع شر الفرنج، ويطلب إليه إنجاده بقوات بأسرع ما يستطيع من الوقت.

فاستجاب الأمير مودود للاستنجاد وسار بعساكره من الموصل عابراً بهم الفرات، فمضى طغتكين لملاقاته فالتقيا في مدينة سلمية وقررا مهاجمة طغتكين، فاصطدما به عند مدينة طبريا

في معركة انهزم فيها بغدوين ووقع أسيراً، ولكن آسريه لم يعرفوه، وكل ما فعلوه أن أخذوا سلاحه وتركوه.

وكان لهذه المعركة ذيول كانت كلها في صالح المسلمين فساروا إلى بيسان ونهبوا البلاد المحتلة بين عكا إلى القدس وخربوها.

وبعد هذا النصر صرف الأمير مودود عساكره فعادوا إلى بلادهم على أمل العودة في الربيع لمعاودة الغزو، وبقي هو في خواصه بضيافة طغتكين في دمشق منتظرين الربيع. على أن الأقدار لم تمهله إلى الربيع فقد اغتيل في يوم جمعة في المسجد بعد أداء الصلاة برفقة طغتكين..

وهنا تتشعب الآراء في تحديد القاتل، فالذين يعرفون دخائل هؤلاء الأمراء وما تنطوي عليه نفوسهم من الغدر بعضهم ببعض طمعاً من كل واحد منهم بما في يد الآخر، يوجهون التهمة إلى طغتكين، ويقولون: أنه دبر له من اغتاله بعد أن رابه منه بقاؤه في دمشق. ويؤكدون اتهامهم بأن القاتل قتل في الحال، واحتزَ رأسه، وأخفي ثم أحرق لئلا تكشف حقيقته.

وطغتكين وجماعته يوجهون التهمة إلى من سموهم الباطنية، ويبدو أن اتهام طغتكين كان هو السائد بين الناس على اختلاف مواقعهم، حتى أن السلطان كان يوجه إليه التهمة علانية، كما سنرى.

وهكذا فإن ذاك الاستنفار انتهى إلى لا شيء سوى النهب

والتخريب واغتيال من لبى الاستنفار! .

وطغتكين، هذا الذي يضج اليوم من الفرنج ويستنصر المسلمين عليهم، ألم يسبق له بالأمس أن استنصر بهم على المسلمين؟!

وهل ترجو ممن لا يرى بالاستنصار على المسلمين بالفرنج إثماً أن يخلص في قتال الفرنج؟! وأن يتورع عن اغتيال ضيفه ومنجده إذا رابه أمره ولو في الخيال؟!

وتوالت الأيام حتى سنة ٥٠٨ هـ فعاد السلطان محمد يتذكر الفرنج، وكان حين علم بمقتل مودود أرسل والياً على الموصل وأعمالها: الأمير آقسنقر البرسقي، وسيّر معه ولده الملك مسعود في جيش ليذهب بهذا الجيش لقتال الصليبيين، وكذلك أرسل إلى جميع الأمراء في تلك المناطق لينضموا إلى آقسنقر ويسيروا جميعاً للجهاد.

وسنرى أن ذلك كله كان عملاً استعراضياً بحتاً لم يحقق أية نتيجة! .

فإن البزسقي سار إلى جزيرة ابن عُمر فسلمها إليه نائب مودود بها، ومنها سار إلى ماردين، فلما تمرد عليه صاحبها إيلغازي نازله فأذعن له وسير معه عسكراً مع ولده إياز، فاتجه إلى الرها على رأس خمسة عشر ألف فارس فنازلها على غير جدوى، فاتجه منها إلى سميساط وسروج، فلم يكن منه سوى التخريب فيها، ثم نهب سواد ماردين.

ونسي الجهاد فقبض على رفيقه إياز بن إيلغازي، لأن أباه لم يحضر بنفسه، بل أرسل ولده إياز مكانه. وبلغ إيلغازي خبر القبض على ولده، فسار إلى حصن كيفا، وصاحبها الأمير ركن الدولة ابن أخيه سُقمان فاستنجده، فسار معه في عسكره وجمع جمعاً من التركمان، ومضيا لاستنقاذ إياز من البرسقي.

والتقى الجمعان في معركة ضارية، انتهت بانهزام البرسقي، وتخليص إياز بن إيلغازي.

هذا هو الجهاد الذي نادى به السلطان السلجوقي محمد.. وهذه معارك قائده ومبعوثه لقتال الصليبيين: آقسنقر البرسقي! على أن الأمر لم يتم فصولاً بعد، فسنرى ما هو أدهى وأمر...

السلطان محمد هذا لم يغضبه على قائده أن حوّل جهاده للتخريب والنهب ثم لقتال المسلمين، بل أغضبه أن إيلغازي هزم آقسنقر، فأرسل إليه يتهدده، فرأى إيلغازي أن يلجأ إلى حميه طغتكين صاحب دمشق.

وكان طغتكين هذا متهماً عند السلطان بأنه غدر بالأمير مودود وقتله، فاتفق رأي الإثنين: إيلغازي وطغتكين على الاستنصار بالصليبيين، فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه، ثم رأوا جميعاً أن يمتنّوا الحلف بينهم، فالتقى الثلاثة على بحيرة قدس عند حمص، فأحكموا أمر التحالف، ووضعوا خطط تنفيذه.

وعاد صاحب أنطاكية إلى بلده، وعاد طغتكين إلى دمشق.

أما إيلغازي فاتجه إلى ديار بكر ماراً بالرستن فنزل بها ليستريح، فعلم به قُرجان بن قراجة صاحب حمص، وقد تفرق عن إيلغازي أصحابه، فقبض عليه قرجان ومعه جماعة من خواصه، وأرسل إلى السلطان محمد يعرفه ذلك ويطلب إليه الإسراع بإرسال نجدة يقاوم بها طغتكين إذا حاول إنقاذ إيلغازي.

ولما عرف طغتكين بما جرى على إيلغازي عاد إلى حمص وأرسل يطلب من قرجان إطلاق إيلغازي، فرفض قرجان ذلك وهدد بقتل إيلغازي إن لَمْ يرجع طغتكين إلى دمشق. وعلم إيلغازي بذلك فأرسل يلحّ على طغتكين بالعودة إلى دمشق.

وهنا تشابكت المصالح، فلم تصل لقرجان نجدة من السلطان، فخاف أن يستضعفه أصحابه فيسلموا حمص لطغتكين، فقرر مصالحة إيلغازي فيطلقه ويأخذ ابنه إياز رهينة ويصاهره، ويحول بينه وبين طغتكين وغير طغتكين، فوافق إيلغازي علىٰ ذلك فأطلقه قرجان وترك عن ابنه إياز، ثم عقدا حلفاً بينهما. وسار إيلغازي عند حمص إلىٰ حلب، وجمع التركمان، وعاد إلىٰ حمص مطالباً بولده آياز، وضايق قرجان وحصره.

واتصل الخبر بالسلطان فأرسل عسكراً كثيراً وأمرهم أن يقاتلوا إيلغازي وطغتكين أولاً فإذا فرغوا منهما مضوا إلى قتال الفرنج، فكانت نتيجة ذلك أن إيلغازي وطغتكين ذهبا إلى أنطاكية واستنجدا بصاحبها الصليبي (رُوجيل).

وبعد أحداث تفرقت عساكر السلطان، وعادت إلى بلادها

الحملة الجهادية السلجوقية التي أرسلها السلطان محمد لمكافحة الصليبيين انتهى أمرها إلى تقاتل المسلمين، والتحالف مع الصليبيين.

والجيوش التي قال السلطان أنها موجهة إلى حرب الفرنج رأينا إلى من عادت توجه في حين كان الصليبيون يتمددون في البلاد ويتحكمون بالعباد..

وفي سنة ٥١١ توفي السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، هذا الذي رأينا من جهاده ما رأينا!.. وتولى بعده ابنه محمود.

وظل السلاجقة على تشاحنهم، فإن مسعود بن السلطان، أراد الاستيلاء على بغداد والعراق وحقق ذلك، فمشى عماد الدين منكبرس ليخرجه منها، فمشى مسعود للقائه، فكان من نتيجة ذلك أن الفريقين نهبا السواد نهباً فاحشاً، على حد تعبير ابن الأثير.
وانتهت المفاوضات بين الفريقين إلى أن صار منكبرس صاحب (شحنكية) بغداد، وهي مديرية الشرطة العامة.

ويقول ابن الأثير عن عهد منكبرس في بغداد: وأقام منكبرس ببغداد يظلم ويعسف الرعية ويصادرهم، فاختفى أرباب الأموال، وبطلت معايش الناس، وأكثر أصحابه الفساد، حتى إن بعض أهل بغداد زفت إليه امرأة تزوجها، فعلم بعض أصحاب منكبرس، فأتاه وكسر الباب، وجرح الزوج عدة جراحات، وابتنىٰ بزوجته، واستغاث الناس لهذه الحال، وأغلقوا الأسواق، فأخذ

الجندي إلى دار الخلافة فاعتقل أياماً ثم أطلق.

وقد ظل الصليبيون في تماديهم وامتدادهم، فإذا بإيلغازي صاحب حلب وماردين، الذي ذكرنا من قبل استنجاده هو وصاحبه طغتكين بالصليبيين، إذا بإيلغازي هذا يعود فيرسل رسولاً إلى بغداد يستنفر على الصليبيين، ويذكر ما فعلوا بالمسلمين بالديار الجزرية، وأنهم ملكوا قلعة الرها، وقتلوا أميرها.

ومن يأمن لمن استنجد بالصليبيين أن لا يعود فيغدر بالمسلمين وينضم إلى الصليبيين، وهل يمكن أن يؤتمن من خان المسلمين، وهل يمكن أن يخلص في الجهاد من نكث بالمجاهدين؟!

وكل ما كان من الأثر لاستنجاد إيلغازي أن أرسلت الكتب بذلك إلى السلطان محمود!..

أما السلطان محمود فقد كان مشغولاً عن ذلك بالشقاق بينه وبين أخيه طغرل، وبالحرب بينه وبين عمه سنجر، عمه أخي أبيه وهو في الوقت نفسه أبو زوجته، فقد التقى الاثنان في معركة كان فيها مع سنجر عشرون ألف مقاتل ومع محمود ثلاثون ألفاً.

خمسون ألف مقاتل كان يمكن أن يسير بهم محمود وعمه سنجر السلجوقيان لإنقاذ الديار الجزرية من الصليبيين، ولكنهما بدلاً من ذلك تقاتلا بها وسفكا دماءها بأيديها!..

لقد انتصر سنجر.. ولكن على ابن أخيه لا على الصليبيين!.

وظل الفرنج يستضعفون المسلمين فامتدوا حتى بلغوا نواحي حلب فملكوا بزاعة وغيرها، وخربوا ما قدروا على تخريبه من حَلب ونازلوها، وقاسموا أهلها على أملاكهم التي بباب حلب.

فأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون، ويطلبون النجدة، فلم يغاثوا[1].

وإيلغازي الذي حالف الصليبيين في وقت من الأوقات هو اليوم صاحب حلب، يتلقى بلده الضربات من حلفائه السابقين، فمضى إلى ماردين يجمع العساكر والمتطوعة، فاجتمع له نحو عشرين ألف مقاتل قاتل بهم هذه المرة الفرنج وانتصر عليهم. وفي سنة ٥١٤ قام الصراع بين السلطان محمود وأخيه مسعود، وقامت المعارك الدامية بينهما، ثم انتهت بهزيمة مسعود.

ولكي نعرف رأي الشعب بحكامه، نشير إلىٰ أنه في هذه السنة نزل في العراق جميعه من البصرة إلىٰ تكريت ثلج كثير وبقي مغطياً الأرض خمسة عشر يوماً فقال بعض الشعراء:

يــا صــدور الــزمــان ليــس بــوفــر
مــا رأينــاه فــي نــواحــي العــراق[2]

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٥٥٤.

(٢) الوفر في اللهجة العراقية هو الثلج المتساقط، ولا يزال هذا الاصطلاح معروفاً في العراق حتى اليوم.

إنمـــا عـــم ظلمكـــم ســـائـــر الخلـ
ـــق فشـــابـــت ذوائـــب الآفـــاق

وكان من تقدم الصليبيين هذه السنة أن أكثروا من الإغارة على حلب وأعمالها، واعملوا هناك التخريب والتحريق حتى أدى الأمر إلى أن سلّمهم صاحب حلب حصن الأثارب القريب من حلب.

وعـوضـاً عـن أن يثيـر هـذا التسليـم الحميـة فـي نفـوس المتسلطين، أثار أطماعهم في صاحب حلب، فإن بَلك بن بهرام بن أرتق صاحب حران اعتقد ضعف صاحب حلب فلم يندب نفسه لتقويته والتقدم معه لاسترجاع حصن الأثارب، بل تقدم لأخذ حلب منه، فنازلها وضايقها ومنع الميرة عنها وأحرق زروعها، فاستسلمت حلب له.

وطغتكين صاحب دمشق الذي رأيناه فيما مضى يستنجد بالصليبيين نراه اليوم يهاجم مدينة حمص وينهبها ويحرق كثيراً منها، ثم يهاجم مدينة حماه ويستولي عليها.

كان كل ذلك يجري بين حكام السلاجقة غير معنيين بأمر الصليبيين وتمددهم في البلاد. وكان الصليبيون يعدون العدة لاستصفاء بلاد الشام وكبريات مُدُنها، فقرروا الاستيلاء على مدينة صور.

فاستنجدت بطغتكين بعد أن أشرف أهلها على الهلاك، فسار طغتكين حتى نزل بانياس ليقرب من صور لعل الصليبيين إذا رأوا

ذلك يرحلون عن صور، ولكنهم لم يفعلوا، وانتهى الأمر باستيلاء الصليبيين على صور وخروج أهلها منها وتفرقوا في البلاد.

يقول ابن الأثير: «كان فتح صور وهنا عظيماً على المسلمين فإنها من أحصن البلاد وأمنعها..» ونقول: إن سقوط صور بقدر ما أوهن المسلمين قوّى الصليبيين وشدد عزمهم في الاستيلاء على بلاد الشام، فكان أن قرروا التقدم إلى حلب، وكانت حلب في ذلك الوقت شيعية، وهنا تبرز خيانة من نوع آخر، فإن دبيس بن صدقة كان عربياً شيعياً يحكم منطقة الحلة في العراق، فأغرته المطامع فاتصل بالصليبيين وأطمعهم بحلب، وقال لهم: أن أهلها شيعة، وهم يميلون إليّ من أجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، وإنّني أكون هنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم..

لقد طمع هذا النذل بتوسيع حكمه بخيانة أمته، والتعاون مع أعدائها، فسار مع الصليبيين لفتح حلب، ولكن شيعة حلب نبذوه واحتقروه، وقرروا الاستماتة في الدفاع عن مدينتهم، وطال القتال، واشتد الحصار، وقلّت الأقوات، فقرر الحلبيون الاستنجاد بآقسنقر البرسقي صاحب الموصل، فأرسلوا إليه يسألونه المجيء إليهم ليسلموا إليه البلد، فاستجاب لذلك وقدم بقواته، فرأى الفرنج أنهم سيقعون بين القوات الحلبية والقوات الموصلية فرحلوا عن حلب.

بين السلاجقة والخوارزميين

مؤسس الدولة الخوارزمية

محمد بن أنوشتكين هو الذي نعتبره مؤسس الدولة الخوارزمية، أما أنوشتكين أبوه فقد كان مملوك أمير من أمراء السلاجقة اسمه (بلكباك) اشتراه من بائع من (غرشستان)[1]

---

(١) غرشستان: هي كما يقول في معجم البلدان: هي ولاية برأسها ليس لها سلطان، ولا لسلطان عليها سبيل، هرات في غربيها، والغور في شرقيها، ومرو الروذ عن شماليها، وغزنة عن جنوبيها. وهي ناحية واسعة كثيرة القرى. وقال البشاري: هي غرج الشار، والغرج: هي الجبال، والشار: هو الملك، فتفسيره: جبال الملك، والعوام يسمونها غرجستان، وهي ناحية واسعة كثيرة القرى بها عشرة منابر أجلها ببشير، وفيها مستقر الشار، ولهم نهر وهو نهر مرو الروذ، قال: وعلى هذه الولاية دروب وأبواب حديد لا يمكن أحداً دخولها إلا بإذن، وثم عدل حقيقي، وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون. وقال الإصطخري: غرج الشار: لها مدينتان، إحداهما تسمى بشير والأخرى سورمين، وهما متقاربتان في الكبر وليس بهما مقام للسلطان، إنما الشار الذي تنسب إليه المملكة مقيم=

فقيل له: أنوشتكين غر شحه.

وكأمثاله من المماليك في كل مكان وزمان لا تحول صفته المملوكية دون بروز مواهبه ـ إن كانت له مواهب ـ برزت مواهبه وكان لها من التقدير ما تستحقه، حتى لقد وصفه ابن الأثير: بقوله: فكبر وعلا أمره، وكان حسن الطريقة، كامل الأوصاف، وكان مقدماً مرجوعاً إليه[1].

لأنوشتكين هذا الموصوف بهذه الصفات وُلد وَلد سماه محمداً، ومحمد هذا هو الذي قلنا إنه يعتبر مؤسس الدولة الخوارزمية، وقد عني أنوشتكين بابنه هذا، فعلّمه وخرّجه وأحسن تأديبه[2].

ويضيف ابن الأثير على ذلك في حديثه عن محمد بن

= في قرية في الجبل تسمى (بليكان). ومن بشير إلى سورمين نحو مرحلة مما يلي الجنوب في الجبل، قد نسب البحتري الشاه ابن ميكائيل إلى غرش أو الغور فقال من قصيدة:

لتطلبـــن الشـــاه عيـــديـــة
تغـــص مـــن مُـــذْن بمـــنّ النســـوع

بـــالفـــرش أو بـــالغـــور مـــن رهطـــه
أروم مجـــد ســـاندتهـــا الفـــروع

ليـــس النـــدي فيهـــا بـــديعـــاً ولا
مـــا بـــدأوه مـــن جميـــل بـــديـــع

(١) ج١٠ ص ٢٦٧.
(٢) م.ن.

أنوشتكين: وتقدم بنفسه وبالعناية الأزلية. وقد صدق ابن الأثير بهذا القول، فالصفات الشخصية وحدها لا تكفي للنجاح والتقدم إذا لم ترافقها العناية الأزلية. والأمر كما قال الوزير المغربي:

والفضـــل ليـــس بنـــافـــع أربـــابـــه

إلا بمسعفـــــة مـــــن الأقـــــدار

كان السلطان السلجوقي بركيارُق قد ولى سنة ٤٩٠ هـ على خوارزم من اسمه (اكنجي) ولقبه خوارزم شاه فجمع عساكره ليلحق السلطان إلى مرو، ولكن أميرين آخرين تآمرا عليه وقتلاه، وسارا إلى خوارزم، وأظهرا أن السلطان قد ولاهما فسيطرا عليها.

وبلغ ذلك إلى السلطان وكان في طريقه إلى العراق لإخماد تمرد عليه، فأرسل أمير داذ حبشي في جيش للقضاء عليهما، فانتهى أمرهما في تفاصيل لا شأن لنا بها في موضوعنا هذا، ثم ولى السلطان على خراسان (أمير ذاد حبشي)، فكان أن ولى على خوارزم محمد بن أنوشتكين ولقبه خوارزم شاه.

وسار محمد هذا في ولايته سيرة حسنة فساد فيها العدل، وقرب أهل العلم والدين، واشتهر أمره بكل خير. وظل محمد في منصبه بتولي. السلطان سنجر خراسان، وبرزت كفايته، فقدّره سنجر أحسن تقدير، وحاول بعض ملوك الأتراك مهاجمة خوارزم ومحمد غائب عنها عند السلطان سنجر، فأسرع محمد إلى خوارزم، وأرسل إلى سنجر يستمدّه ـ وكان بنيسابور ـ فسارَ

لانجاده بجيشه، ولكن محمداً كان قد استطاع إخماد الفتنة قبل وصول سنجر.

ولما توفي محمد خوارزم شاه، تولى بعده ابنه إتسز الذي كان قد تدرب على يدي أبيه فقاد الجيوش وباشر الحروب، فسار سيرة أبيه.

فقربه السلطان سنجر، ورفع من شأن، وجعله من أركان حكمه معتمداً عليه واستصحبه معه سلماً وحرباً، فبرزت كفاءته وازداد عند سنجر تقدماً ومنزلة.

وإذا كنا قد قلنا من قبل بأننا نعتبر محمد بن أنوشتكين مؤسس الدولة الخوارزمية، فلأنه هو أول من حمل لقب (خوارزم شاه) وأول من تولى سلطة فعلية، وإن كان توليه هذا لم يعد كونه والياً تابعاً لغيره.

ونقول هنا إن إتسز ـ في الحقيقة ـ هو الذي ابتدىء به قيام ملك بيته الخوارزمشاهي مستقلاً مقاتلاً عن هذا الاستقلال، مناهضاً للسلطان سنجر نفسه.

فساد ما بين سنجر واتسز

إتسز الذي تقدم عند السلطان سنجر لكفاءته، والذي أصبح من قواعد ملك سنجر التي يعتمد عليها في مسار هذا الملك، إتسز هذا، وجد أنه في مواهبه ما يدفعه إلى تسنم أعلى المناصب، وما يجعله في منزلة لا تقل، لا عن سنجر، ولا غير سنجر من

المعاصرين الذين يتصارعون على الملك والاستقلال به فيما تحت أيديهم من بلاد.

وإذا كان إتسز لم يفصح عما في نفسه من الطموح، ولم يتصرّف تصرفاً انفصالياً عملياً، فإن كوامن نفسه لم تكن لتخفى على سنجر، وربما تسرب إليه شيء من هذه الكوامن، مما يفيض به في خلواته لخاصته من إشارات وتعابير، تنم عما في نفسه، فأبلغها بعض المخلصين لسنجر محذرين له عما قد يفاجؤه به إتسز من وثوب متوقع.

لذلك رأينا سنجر لا يترك للأيام أن تفعل فعلها، بل رأى أن يستبق هو الأيام فيفعل فعله قبلها، ففي سنة ٥٣٣ هـ سار السلطان سنجر بحملة عسكرية قاصداً خوارزم لانتزاعها من إتسز والقضاء عليه..

فلما قرب من خوارزم وعلم به إتسز خرج بما لديه من قوات لقتاله، وصده عن خوارزم، ولم تكن القوتان متكافئتين، ولم يكن إتسز قد أعدّ للثورة، بل فوجىء بزحف سنجر بجيوشه عليه، لذلك لم يلبث إتسز أن انهزم وقتل العدد الكثير من رجاله وبينهم ابنه الذي حزن عليه حزناً عظيماً.

واستولى سنجر على خوارزم، وملّكها لابن أخيه غياث الدين سليمان شاه بن محمد، ونظم له حكومته من تعيين أتابك، ووزير وحاجب وما إلى ذلك من مقومات السلطة، وعاد إلى مرو.

والكراهية المتأصلة في نفوس الشعوب المحكومة من

السلاجقة، كانت متأصلة في الشعب الخوارزمي، وكان إتسز يعرف ذلك، فلهذا لم يكد سنجر يغادر خوارزم حتى أسرع إتسز إلى العودة إلى خوارزم، فأعانه شعبها على التخلص من سليمان شاه الذي ترك خوارزم عائداً إلى عمه السلطان سنجر.

وهكذا حل العداء بين الاثنين بعد ذاك الولاء، وكانت فجيعة إتسز بابنه فجيعة ملأت قلبه حقداً على السلطان سنجر.

بين الخِطا وسنجر

قبل أن ندخل في التفاصيل لا بد لنا من أن نعرف من هم الخِطا:

يقول ابن خلدون عن الخِطا: «هم أعظم الترك فيما وراء النهر» وأنهم: «أمة بادية يسكنون الخيام وهم على دين المجوسية» وأنهم: «كانوا موطنين بناحي أوزكنده وبلاد ساغون وكاشغر».

وهم كذلك أتراك في رأي ابن الأثير إذ يعبر عنهم: «بالأتراك الخطا» ولكنه وهو يصف وقعة لهم يقول: «وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم في خدمة الخانية أصحاب تركستان». وعندما يسترسل في الحديث يقول: «وعنده جنود الترك والصين، والخطا». ويقول أيضاً: «واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر».

والخطا فيما يقول الدكتور حسين مؤنس: «إن العرب سموا

التتار: الخطا، وهي تسمية خاطئة لأن الخطا أو الخطاي في الحق هم أهل الصين».

يُتهم خوارزم شاه إتسز بأنه بعد أن ناله ما ناله من هزيمته أمام السلطان سنجر وقتل ابنه، حرض الخطا على غزو سنجر، وأرسل إليهم يطعمهم في بلاده، ويحثهم على قصده في عقر داره.

هذه رواية، وفي رواية أخرى أسباب غير هذا السبب هي التي دفعت الخطا على غزو مملكة السلطان سنجر. ومهما يكن من أمر، فإن الذي وقع هو أن الخطا تقدموا مهاجمين بلاد سنجر بجيش يقدّر ابن الأثير[1] عدده بثلاث مئة ألف فارس، فالتقوا بجيش سنجر فيما وراء النهر، واقتتلوا أشد قتال، فحاقت الهزيمة بجيش سنجر وقتل منه على تقدير ابن الأثير مئة ألف قتيل. ويقول ابن الأثير: أن بين القتلى أحد عشر ألفاً كلهم صاحب عمامة ولم اهتد لما يقصده ابن الأثير بقوله صاحب عمامة. ومن هم الذين كانوا يتميزون يومذاك بأنهم أصحاب عمائم؟..

إذا أردنا أن نطبق الوصف على ما هو متعارف عليه في هذا العصر، فإن أصحاب العمائم تعني الفقهاء، فهل كان الفقهاء في ذلك العصر يتميزون باعتمار العمائم؟

الذي نعرفه أن العمائم لم تكن ميزة الفقهاء، بل كانت لباس

---

(١) ابن الأثير: ج١١، ص ٨١.

الرأس للناس كلهم ابتداء من أفقر فقير حتى رأس الدولة: السلطان.

وإن التخلي عن العمائم لباساً للرأس ابتدأ في عصر السلطان محمود الثاني العثماني في أواسط القرن التاسع عشر، فقد خلعها السلطان فمن دونه إلى أن غدت عمرة للرأس للفقهاء بشكل غير شكلها الأول.

فهل كانت العمامة ميزة الفقهاء وحدهم في عهد السلاجقة، قبل أن تكون كذلك في البلاد العثمانية ومنها الوطن العربي؟..

ثم هل كان الجيش السلجوقي يضم هذا العدد الكبير من الفقهاء ليكون من قتل منهم فقط أحد عشر ألفاً؟ وإذا كان هذا عدد القتلى فكم كان عدد مجموعهم في الجيش؟

الواقع أن هذا الذي ذكره ابن الأثير عن أصحاب العمائم القتلى يثير الكثير من التساؤلات التي اعترف بأني لا أجد جواباً لها..

ثم يقول ابن الأثير أن بين القتلى أربعة آلاف امرأة. وهذا أيضاً موضع الغرابة والتساؤل، فهل كانت نساء السلاجقة تقاتل ليكون بين القتلى هذا العدد منهن؟! وإذا لم يكن يقاتلن فلماذا هذا القتل فيهن، في حين إنهن إذا لم يقتلن يسبين، وفي هذا كل المصلحة للمنتصرين؟! ثم لماذا هذا العدد الكبير منهن مع الجيش بحيث يبلغ عدد قتلاهن أربعة آلاف امرأة!!

وقد كانت زوجة السلطان سنجر نفسه مع الجيش، فلما

انهزم الجيش أسرت... على أن الخطا أطلقوها. ويقول ابن الأثير[1]: ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه، ولا أكثر ممن قتل فيها. ثم يقول: واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر.

توسع ملك خوارزم شاه

أما خوارزم شاه اتسز فقد أخذ يوسع ملكه فسار إلى خراسان فاحتل سرخس، واتجه منها إلى مرو الشاهجان، فلقيه الإمام أحمد الباخرزي، وشفع في أهل مرو، وسأل أن لا يتعرض لهم الجنود فأجابه إلى ذلك، ولم يدخل البلد بل ظل في ظاهرها، واستدعى إليه أعيانها وأحد فقهائها.

ولكن أهل مرو ثاروا وقتلوا بعض أهل خوارزم شاه، وأخرجوا أصحابه من مرو، وأغلقوا أبوابها، واستعدوا لمواجهة خوارزم شاه، فعند ذلك هاجمهم، ودخل مرو فاتحاً، وقتل كثيراً من أهلها وفيهم فقهاء وعلماء، وقتل من الأعيان كثيرون. ثم غادرها مستصحباً معه عدداً من علمائها.

وبعد مرو اتجه إلى نيسابور، وخشي من في نيسابور أن يجري عليها ما جرى على مرو، فتوجه إلى خوارزم شاه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها طالبين إليه أن لا ينفذ في نيسابور ما

---

(١) ج١١، ص ٨٦.

نفذه في مرو من الإباحة للدماء، فوعدهم خيراً.

وتتبّع أموال أصحاب السلطان فصادرها، ثم أمر بقطع خطبة السلطان سنجر، وأن يخطب باسمه هو، فلما نُفذ ذلك ولم يذكر الخطيب اسم سنجر وذكر بدلاً منه اسم خوارزم شاه صاح الناس وثاروا، وكاد الأمر أن يؤدي إلى تمرد عام، ولكن تدارك الأمر ذوو الرأي والعقل خوفاً مما يجر ذلك من البلاء على الناس.

ثم سير خوارزم شاه جيشاً إلى أعمال بيهق، ولكن أهلها صمدوا للجيش يقاتلونه خمسة أيام فعاد عنها. يقول ابن الأثير[١]: «ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد، وعملوا بخراسان أعمالاً عظيمة».

ثم يقول ابن الأثير: «ومنع السلطان سنجر من مقاتلة إتسز خوارزم شاه خوفاً من قوة الخطا بما وراء النهر، ومجاورتهم خوارزم وغيرها من بلاد خراسان».

هذه الوقائع التي عرضنا أحداثها موجزة لا يمكن أن نمر بها مجرد مرور دون التمعّن بما فيها من دلالات تستوقف المؤرخ للنظر فيها طويلاً.

لماذا يثور أهل مرو على خوارزم شاه فيمعن فيهم وفي علمائهم قتلا؟!

---

(١) ج١١، ص٨٨.

ولماذا يرفض أهل نيسابور قطع الخطبة للسلطان سنجر وإبدالها بالخطبة لخوارزم شاه، ويثورون من أجل ذلك؟!

لم يكن في حكم السلاجقة للشعوب التي حكموها ما يجعل تلك الشعوب تأسف على زوال حكمهم وتنقم على من يحل محلهم، فما الذي حدث فجعل أهل مرو وأهل نيسابور يقفون هذا الموقف الغاضب لسنجر الناقم على خوارزم شاه؟!

ليس في النصوص التي يقدمها لنا مؤرخو تلك الأحداث ما يوضح لنا العوامل التي أدت إلى هذا التحول من النقمة على حكم السلاجقة إلى النقمة على من جاء يحل محلهم فبقي علينا نحن أن نستخلص الأسباب مما لدينا من وقائع.

الذي يخيل إليّ أن النقمة على خوارزم شاه سببها ما اشتهر عنه من أنه هو الذي حث الخطا على غزو البلاد الإسلاميّة وما جره هذا الغزو من سفك دماء عشرات ألوف المسلمين بما فيهم النساء، وما ألحقه بالمسلمين من الذل والفجائع.

فلم يغفر الناس لخوارزم شاه هذه الخيانة، وظلت تملأ نفوسهم حقداً عليه، فكان من مظاهر هذا الحقد رفض حكمه لهم والثورة على هذا الحكم..

ثم إنّ ما أحاق بسنجر من الهوان على أيدي الخطا أكسبه عطف المسلمين فرفضوا أن يكونوا عليه مع الخطا فيلغوا اسمه من

الخطبة ويحلوا محله اسم الخائن محرض الأعداء على احتلال الوطن. .

والذي يثير الاهتمام هو قول ابن الأثير: ومنع السلطان سنجر من مقاتلة أتسز خوارزم شاه خوفاً من قوة الخطا بما وراء النهر، ومجاورتهم خوارزم وغيرها من بلاد خراسان.

ليس المقصود بهذه الجملة واضحاً كل الوضوح، وليس المراد بها صريحاً كل الصراحة. ولكن لها عندي تفسيراً واحداً اعتقد أنه الصواب:

إن سنجر بعد أن رأى القوة العسكرية الكبرى التي يستند إليها الخطا، وأنهم بذلك يهددون البلاد الإسلامية التي أمامهم، أغضى عما جناه عليه خوارزم شاه، ولم يعد يهمه إلا مصير الوطن الإسلامي، ورأى أن في تقاتل المسلمين زيادة في أضعافهم وتقوية للخطا عليهم، لذلك منع من مقاومة خوارزم شاه فيما يسعى لاحتلاله من بلاد، لأن الخطا إذا سالموا خوارزم شاه اليوم فسينقضون عليه في الغد عندما يصبح في مواجهتهم. لذلك منع سنجر من مقاتلة خوارزم شاه إبقاء على القوى الإسلامية متماسكة.

وكما ذكر ابن الأثير فإن وجود الخطا فيما وراء النهر يجعلهم على حدود خوارزم نفسها وخراسان كلها.

وأنني وأنا الذي لم أرحم السلاجقة في تاريخهم حين لا يستحقون الرحمة، وأنني وأنا الذي أدنت مساوىء السلاجقة فيما

دونت من قبل لأنها تقتضي الإدانة، إنني هنا أنحني إجلالاً لهذا السلجوقي الكريم، وابعث إليه من وراء العصور بأسنى التحية، وأكبره أسمى الأكبار. . .

ويبدو أن سنجر ظل يخشى فساد خوارزم شاه، ويخشى معاودة اتصاله بالخطا، ورأى أن الأفضل القضاء عليه، فجمع قوة مضى بها لقتاله فتحصن خوارزم شاه في المدينة ولم يخرج للقتال، وبالرغم من فشل الاستيلاء على المدينة، فإن خوارزم شاه أرسل رسلاً إلى سنجر «يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد».

فرأى سنجر أنّ من الحكمة أن يقبل منه ذلك، وسار سنجر إلى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم. ولا بد لنا من أن نعرف مصير هذا السلطان السلجوقي وإن كان ذلك لا يرتبط بما نحن فيه من الحديث عن الخوارزميين:

كان من إجراءات الخطا أن طردوا الأتراك الغز[1] من منازلهم فيما وراء النهر فقصدوا خراسان ـ وكانوا خلقاً كثيراً ـ فأقاموا بنواحي بلخ يرعون في مراعيها، فأراد أميرها إبعادهم فجمعوا جموعهم وانضم إليهم غيرهم من الأتراك فقاتلوا أمير بلخ فهزموه وانتهى في هزيمته إلى مرو حيث السلطان سنجر، فراسلهم سنجر مهدداً لهم فلم يستمعوا إليه، فهاجمهم بجيشه فهزموا

(١) هم جماعة من الأتراك المسلمين.

الجيش ووقع سنجر في أسرهم، واستولى الغز على البلاد، مكثرين في قتل الناس مسترقّين النساء والأطفال موغلين في النهب جاعلين من بعض المدن قاعاً صفصفاً. ويقول ابن الأثير: «ويتعذّر وصف ما جرى منهم على تلك البلاد جميعها»[1] في تفاصيل لا مجال لذكرها هنا.

ويقول أيضاً[2]: «وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة، وهو معتقل لا يُلتفت إليه، حتى إنه أراد كثيراً من الأيام أن يركب، فلم يكن له من يحمل سلاحه، فشده على وسطه وركب. وكان إذا قُدم إليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتاً آخر، خوفاً من انقطاعه عنه، لتقصيرهم في واجبه، ولأنهم ليس هذا مما يعرفونه».

ثم استطاع أن يهرب من الأسر ويسير إلى قلعة ترمذ، وأن يصل - بعد أحداثٍ - إلى قاعدته (مرو) قوياً بعد أسر امتدّ من سادس جمادي الأولى سنة ٥٤٨ إلى رمضان سنة ٥٥١ هـ وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ توفي.

وتلخص حياته بما يلي:

هو سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان، أبو الحارث. ولد في سنجار، من ديار الجزيرة سنة ٤٧٩، وسكن خراسان، واستوطن مدينة مرو، ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد، فعهد الخليفة المستظهر بالله بالسلطنة إلى أخيه وجعل سنجر ولي عهده.

---

(١) ابن الأثير: ج١١، ص ١٧٨.

(٢) ابن الأثير: ج١١، ص ٢٠١.

فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان واستقام أمره، وأطاعه السلاطين، وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وظل رفيع المكانة حتى أسره الأتراك الغز، وبعد أن تخلص منهم وبدأ يستجمع أمره حتى ليكاد يعود إلى شأنه جاءه قضاء الله[1].

العودة إلى الخوارزميين

في سنة ٥٥١ توفي خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوشتكين، فتولى بعد ولده أرسلان وافتتح ملكه بقتل أعمامه، وسمل أخيه، فمات أخوه المسمول بعد ثلاثة أيام، وقيل أنه قتل نفسه بعد أن أصابه ما أصابه.

وكان ذلك بعد خلاص السلطان سنجر من أسر الغز، فأرسل إليه أرسلان يذكر طاعته له، وانقياده لسلطته، فكتب له سنجر منشوراً بولاية خوارزم مصحوباً بخلع. فبقي أرسلان ساكناً مطمئناً.

ويرثي ابن الأثير أتسز[2] قائلاً: كان حسن السيرة، كافاً عن أموال رعيته، منصفاً لهم محبوباً إليهم، مؤثراً للإحسان والخير إليهم، وكان الرعية معه بين أمن غامر وعدل شامل.

---

(١) م.ن. ج١١، ص ٢٢٢.

(٢) ابن الأثير: ج١١، ص ٢٠٩.

ولا ندري كيف نوفق بين هذه الصفات التي يغدقها ابن الأثير على أتسز وبين ما ذكره هو نفسه عن مجازره في مرو، وعن فظاعة النهب في بلاد بيهق وعظم الأهوال في خراسان؟!..

الخطا والخوارزميون

قلنا فيما تقدم أن سنجر بعد هزيمته أمام الخطا، وأخذ خوارزم شاه في الانتشار، منع من قتال خوارزم شاه، وقلنا أنه يرى أن الخطا إذا سالموا خوارزم شاه اليوم فسينقضون عليه في الغد. وقد جاء الغد الذي ينقضون فيه على خوارزم.

ففي سنة ٥٦٧ هـ عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم، وكان يحكمها يومذاك أرسلان بن أتسز، فجمع عساكره، وسار لصد هجومهم، فمرض في الطريق، فتابع الجيش سيره بقيادة أمير اختاره أرسلان، فلما تقابل الجيشان انهزم الخوارزميون، وأُسر قائدهم، فاقتاده الخَطَا معهم إلى ما وراء النهر[١] دون أن يتابع سيره إلى خوارزم، وعاد أرسلان إلى خوارزم مريضاً.

وفي سنة ٥٦٨ توفي خوارزم شاه أرسلان وملك بعده

---

(١) النهر: هو نهر جيحون، وما وراء النهر اصطلاح استعمله العرب والمسلمون للبلاد التي تقع على مشرق هذا النهر، ومن أشهرها: الصغد، وأشروسنة، وفرغانة، والشاش، وبخارا، وسمرقند وغيرها. وما يقع غربي نهر جيحون هو خراسان، وولاية خوارزم.

سلطان شاه محمود، ودبرت والدته أمور الملك، وكان ولده الأكبر علاء الدين تكش مقيماً في الجَنْد[1] قد أقطعه إياها أبوه فلما علم بتولي أخيه الأصغر رفض ذلك وراح يستنجد ملك الخطا على أخيه. ونسي علاء الدين أن الخطا هم الأعداء الذين يستنجد عليهم لا بهم.

وقد لبى ملك الخطا استنجاده فسير معه جيشاً كثيفاً فساروا حتى قاربوا خوارزم، فسار إليهم سلطان شاه، فلما تراءى الجمعان انتصر علاء الدين بمن معه، وفر سلطان شاه إلى دهستان فسار إليه علاء الدين تُكش، واقتحم المدينة فهرب سلطان شاه وقبض على أمه فقتلها تكش وعاد إلى خوارزم يثبت قدمه فيها..

وملك الخطا الذي أنجده عاد يطالب بالثمن، فتوالت رسله، فحاول التحكم وتبدي المطالب فنفر من ذلك وأنف. وجاءه أحد أقارب الملك مع جماعة موفدين من الملك مطالبين بالمال، فثارت به الحمية فقتل هو قريب الملك، وأمر أعيان خوارزم أن يقتل كل واحد منهم رجلاً من الخطا، فقتلوا جميعاً.

فلما بلغ هذا الأمر أخاه سلطان شاه هب بدوره يستفز ملك الخطا ويستنجده على أخيه علاء الدين تكش زاعماً له أن أهل خوارزم يؤيدونه.

---

(١) جَنْد: كما يقول في معجم البلدان: مدينة عظيمة في تركستان بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر قريب من نهر جيحون.

فاستجاب له ملك الخطا، وبعث معه جيشاً كثير العدد، فوصل به إلى خوارزم وحاصرها، فاستطاع علاء الدين تكش أن يحول عليهم مياه نهر جيحون حتى كاد يغرقهم، فاضطروا لفك الحصار والرحيل عن خوارزم.

وتروى روايات أخر عن هذه الوقائع، ومهما كان الأمر فالذي يهمنا معرفته، هو أن سلطان شاه قد توفي خلال هذا الصراع، وأن خوارزم شاه تكش لما بلغه خبر وفاة أخيه عاد إلى خوارزم، وكان قد خرج منها لقتاله، ثم قام صراع بينه وبين المؤيد صاحب نيسابور، لأنه حاول التعرض لطوس التي هي للمؤيد، بعد أن سيطر علىٰ مرو، وسرخس، ونساوابيور وغيرها فانتهىٰ الأمر، بأسر المؤيد ثم قتله، واستيلاء خوارزم شاه على نيسابور، وكل ما كان للمؤيد ولولده الذي خلفه ظعان شاه.

وبذلك قوي أمر خوارزم شاه علاء الدين تكش، وعظم شأنه، باستيلائه على مملكة المؤيد، ومملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه.

واستدعى ابنه علاء محمد، وكان بخوارزم فولاه نيسابور، وولى ابنه الأكبر ملك شاه (مرو).

الصدام الأول: خوارزمياً، سلجوقياً، عباسياً

سنة ٥٨٨ سار السلطان السلجوقي طُغْرُل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان فملك همذان،

وغيرها، وانهزم صاحبها قتلغ إينانج بن البهلوان وتحصن بالري، فأرسل قتلغ إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده فأنجده، ولكن عاد فندم على هذا الاستنجاد، وخاف على نفسه، فمضى متباعداً عن خوارزم شاه، وتحصن في قلعة له، ووصل خوارزم شاه إلى الري، وملكها وملك قلعة طبرك.

وفي سنة ٥٩٠ اغار السلطان طغرل، على من بالري من أصحاب خوارزم شاه، وفر قتلغ إينانج بن البهلوان، فيمن فرّ من طغرل، وأرسل إلى خوارزم شاه، يعتذر، ويسأل إنجاده مرة ثانية.

وكان الخليفة العباسي الناصر لدين الله، قد بدأ بالأعداد للتخلص من السلاجقة، وكانت قد سبقت لجنده وقعة مع طغرل سنة ٥٨٤، حين أرسل الجند بقيادة وزيره جلال الدين عبيدالله بن يونس، لمساعدة أحد المتمردين على طغرل، فالتقوا بالقرب من همذان، وانهزم عسكر الخليفة.

أما اليوم فقد وصل رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل، ويطلب منه مهاجمة بلاده، ومعه منشور بإقطاعه البلاد. فسار خوارزم شاه من نيسابور إلى الري، فتلقاه قتلغ إينانج، وانضم إليه وسارا معاً. فالتقوا بطغرل بالقرب من الري فدارت الدائرة على طغرل وقتل في المعركة، فأرسل خوارزم شاه رأسه إلى بغداد.

وسار خوارزم شاه إلى همذان وضم تلك المناطق إلى

مملكته، وسلمها إلى قتلغ إينانج، وأقطع كثيراً منها لمماليكه وعاد إلى خوارزم.

صدام المتحالفين

وإذا كانت قد تمت سيطرة الخوارزميين على ما سيطروا عليه وانتهى أمر السلاجقة، واستراح الخليفة العباسي الناصر منهم بمعونة الخوارزميين، فلم يكن لتخفى عليه تطلعات هؤلاء إلى الحلول محل السلاجقة في بغداد، والعودة بالخلافة إلى الخضوع للمسيطرين لذلك كان حذراً من الخوارزميين كل الحذر.

فعندما أرسل إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده واقطعه البلاد وانتهى الأمر بقتل طغرل بك ـ كما مر ـ كان الناصر قد أرسل نجدة لخوارزم شاه تعينه في مقاتلة طغرل، وبعث إليه بالخلع مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب، فنزل الوزير على فرسخ من همذان.

ورأى الوزير نفسه ممثل الخليفة وأن خوارزم شاه مهما كان شأنه يظل تابعاً من اتباع الخليفة. لذلك رفض طلب خوارزم شاه بأن يحضر إليه، وأجابه: ينبغي أن تحضر أنت وتلبس الخلعة في خيمتي.

وترددت الرسل بينهما في ذلك، واستراب كل واحد منهما بالآخر.

لذلك صمم خوارزم شاه على قصد الوزير مؤيد الدين

ليعتقله وسار إليه، ولكن الوزير أسرع في الابتعاد عنه واللجوء إلى الجبال والاحتماء بها، فرجع خوارزم شاه إلى همذان.

وهكذا فإن الصدام بين الخوارزميين والناصر قد وقع منذ اليوم الأول الذي انتصرا به معاً على السلاجقة. ثم أخذ الناصر سنة ٥٩١ يتوسع في سيطرته فأرسل نائب الوزارة مؤيد الدين محمد بن علي المعروف بابن القصاب إلى خوزستان فملك مدينة تستر وغيرها من البلاد، وسيطر على القلاع والحصون. ثم اتجه من تستر إلى ميسان.

وهنا برز من جديد قتلغ إينانج بن البهلوان هذا الذي كان لا يستقر على ولاء بل يتقلب حسب الأهواء، ومرت بنا أحواله من قبل، ونراه هنا مقبلاً على الوزير ابن القصاب فأكرمه الوزير، وكان سبب قدومه أنه كان قد انقلب على خوارزم شاه وجرت بين جيشيهما معركة عند زنجان انهزم فيها قتلغ إينانج وعسكره، فالتجأ هذا إلى وزير الخليفة فأعطاه الوزير الخيل والخيام وكل ما يحتاج إليه واتجها إلى كرمنشاه.

ثم تركاها إلى همذان، وكان فيها أولاد خوارزم شاه مع عساكرهم، فلما دنا عسكر الخليفة منها جلا عنها الخوارزميون وتوجهوا إلى الري.

وبعد استيلاء الوزير على همذان رحل عنها وخلفه فيها قتلغ إينانج، فاستولى الوزير على كل ما مر به من بلاد منها: خرقان ومزدغان وساوة وآوة، ومضى إلى الري، فجلا عنها الخوارزميون

إلى (خُوار الري) فسيّر الوزير خلفهم عسكراً يطاردهم، فتركوها إلى دامغان وبسطام وجُرجان، فعاد عسكر الخليفة إلى الري وأقاموا بها.

وعاد قتلغ إينانج إلى طبيعته، فلما رأى رحيل الخوارزميين طمع بالتغلب على الوزير فدخل الري محارباً، ولكن الوزير سارع وحصره فيها فاضطر قتلغ إيناج إلى مفارقتها فدخلها فكانت عرضة للنهب.

ومضى قتلغ إينانج ومن معه من الأمراء إلى مدينة آوه فحال بينهم وبينها عامل الوزير فتركوها - والوزير يطاردهم - نحو همذان، ثم التقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم قتلغ إينانج ونجا بنفسه، وتقدم الوزير إلى همذان ونزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر. فوصله رسول خوارزم شاه منكراً أخذه البلاد ويطلب إعادتها، فأعرض الوزير عن ذلك، فسار خوارزم شاه مجداً إلى همذان.

وكان الوزير قد توفي، فالتقى خوارزم شاه بعسكر الخليفة فانهزم عسكر الخليفة وملك خوارزم شاه همذان، فكان أول ما فعله أن نبش قبر الوزير وقطع رأسه وأرسله إلى خوارزم وأظهر أنه قتله في المعركة. ثم عاد إلى خراسان.

وأرسل الخليفة الناصر جيشاً إلى أصفهان، وكان فيها عسكر لخوارزم شاه مع ولده، وكان أهل أصفهان يكرهونهم، فنزل عسكر الخليفة بظاهر البلد، فترك الخوارزميون البلد عائدين إلى

خراسان، فدخله عسكر الخليفة.

عود إلى الخطا

سنة ٥٩٤ هـ جاهر خوارزم شاه تكش بالحلول محل السلاجقة في بغداد بأن يكون سلطاناً يخطب باسمه على منابرها، وذلك بعد أن سيطر على الري وهمذان وأصفهان وما بينها من بلاد ثم عاد إلى خوارزم، فطلب الخليفة الناصر إلى غياث الدين ملك الغُور وغزنة (أفغانستان اليوم) أن يهاجم خوارزم شاه في بلاده لإشغاله عن التوجه إلى بغداد، فبادر غياث الدين إلى مراسلة خوارزم شاه مؤنباً متوعداً مهدداً بغزوة في عقر داره والاستيلاء على بلاده.

فالتجأ خوارزم شاه إلى الخطا منذراً لهم بأن غياث الدين إذا انتصر عليه فسيستولي بعد ذلك على بلخ ويتجه إليهم في بلادهم فلا يستطيعون مدافعته ورده عن بلاد ما وراء النهر. فاقتنع ملك الخطا بهذا القول وأرسل جيشاً كثيفاً عبر نهر جيحون مفاجئاً غياث الدين الذي كان مريضاً بالنقرس، وكان أخوه شهاب الدين قد سار بالعساكر الغورية إلى الهند فلم يكن لغياث الدين المريض من القوة العسكريّة ما يعتد به، وواصل الخطا زحفهم في بلاد الغور فاستولوا على مناطق فيها وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيراً لا يحصى.

فالتجأ الناس إلى غياث الدين مستنجدين فلم يكن لديه من

الجند ما يمكن أن يقاتل به، واشتد الحال على المسلمين، فتحرك أحد الأمراء الغوريين الأمير حروّش وكاتب غيره من الأمراء فاجتمعوا جميعاً واتجهوا إلى الخطا فبيتوهم ليلاً مفاجئين لهم وأكثروا القتل فيهم ولم يكن لهم سبيل إلى الفرار، فالغوريون وراءهم ونهر جيحون أمامهم فعظم القتل فيهم.

ولكنهم عادوا في الصباح فتجمعوا أو ثبتوا وثبت المسلمون فدارت الدائرة على الخطا فمن ثبت منهم قتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق.

كانت الصدمة مروعة لملك الخطا واعتبر خوارزم شاه مسؤولاً عما جرى لجنده فأرسل إليه يطالبه عن كل قتيل بعشرة آلاف دينار، وكان عدد القتلى اثني عشر ألف قتيل.

فعاد خوارزم شاه إلى غياث الدين يستعطفه، فرد عليه غياث الدين بلزوم طاعة الخليفة. ومن جهة ثانية فقد رد على ملك الخطا بأنك في الحقيقة لم ترسل جيشك مناصرة لي وإنما أرسلته للفتح ودخول بلخ، ولستُ أنا الذي أمرت الجيش بعبور النهر لأكون مسؤولاً عن هزيمته. وأنا الآن في صلح وحسن حال مع الغوريين وطاعة لهم.

فأغضب هذا الجواب ملك الخطا وصمم على قتال خوارزم شاه وأرسل جيشاً للاستيلاء على خوارزم فحصرها الجيش فكانت تدور مناوشات بينه وبين من يخرجهم خوارزم شاه لقتاله، وتطوع كثير من المسلمين لنصرة خوارزم شاه فاستطاع رد جيش الخطا عن

خوارزم، ولم يكتف بذلك بل سار وراءهم إلى بخارى فحصرها فقاتله أهلها المسلمون مع الخطا وامتنعوا عليه، ولكنه تغلب على بخارى فلم يسىء معاملة أهلها وتجاوز عما فعلوه في قتاله.

وفي سنة ٥٩٦ توفي خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان في بلدة (شهرستانه) بين نيسابور وخوارزم وكان في طريقه من خوارزم إلى خراسان، فتولى بعده ابنه قطب الدين محمد الذي لم يلبث أن ترك لقبه (قطب الدين) واتخذ لقب أبيه (علاء الدين).

وبعد صراعات طويلة مع الغوريين والخطا وغيرهم استقر ملكه واتسع. وكان الخطا قد تمكنوا من تركستان وما وراء النهر وطالت أيامهم بها وثقلت وطأتهم على أهلها ما حمل سلطان بخارى وسمرقند سنة ٦٠٤ على مراسلة خوارزم شاه في وجوب التحالف للتخلص من الخطا وشدتهم على المسلمين، ووعده بأن يذكر اسمه في الخطبة وعلى النقود، وأن يحمل إليه ما يحمل إليهم.

فلم يطمئن خوارزم شاه إلى الوفاء بوعود السلطان، فسير إليه السلطان وفداً من البخاريين والسمرقنديين يطمئنه، فعزم على المسير إلى الخطا بعد أن دبر أمور بلاده وأوكلها إلى من يحفظها. ومضى بجيشه عابراً نهر جيحون والتقى بسلطان سمرقند فثبّتا حلفهما.

فحشد له الخطا جيشاً كبيراً سنة ٦٠٦ فالتقى الجيشان في حروب طاحنة انتهت بهزيمة الخطا هزيمة منكرة قتل فيها منهم

وأسر العدد الكثير. ومضى خوارزم شاه متوغلاً في بلاد ما وراء النهر يفتحها مدينة مدينة ومنطقة منطقة، وعين فيها نواباً له وعاد إلى خوارزم ومعه سلطان سمرقند، فزوجه خوارزم شاه ابنته ورده إلى سمرقند، ومعه ممثل له وهو ما اصطلح على تسميته (شحنة)[1].

وظل الأمر هادئاً قاراً حوالي سنة، ويبدو جلياً أن الخوارزميين خلال هذه السنة قد أساءوا السيرة في سمرقند وتصرفوا تصرف السادة الحاكمين، وعاملوا السمرقنديين معاملة أغضبت صاحب سمرقند، ما عبر عنه ابن الأثير بقوله[2]: «رأى من سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ما ندم معه على مفارقة الخطا» اهـ ولا شك أنه قد ناله هو نفسه الشيء الكثير من سوء السيرة وقبح المعاملة، ويتراءى لنا أن (الشحنة) الذي أرسله خوارزم شاه إلى سمرقند ممثلاً سلطته فيها قد تصرف تصرف السيد المطلق متجاوزاً صاحب سمرقند الذي يعتبر نفسه صاحب الكلمة العليا فيها مما أحنق السيد السمرقندي ربّ السلطة الشرعية الحاكمة.

لذلك رأينا ابن الأثير يقول «أنه على مفارقة الخطا. . .».

وندمه هذا لم يبق مجرد ندم نفسي مكتوم، بل تحول إلى فعل عنيف بلغ الغاية في نقمته وشراسته وفظاعته!

---

(١) الشحنة في الأصل: هو ما يعرف اليوم بالشرطة (البوليس).

(٢) ج١٢، ص ٢٦٨.

فأول ما فعله أنه أرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه ويعود إلى طاعته[1] فهو بهذا يتنازل عن استقلال بلاده ويسلمها إلى الأجنبي! . .

ونحن ندرك أنه من أجل أن يصل الأمر بصاحب سمرقند إلى هذا الحد، يجب أن تكون أفعال الخوارزميين في سمرقند قد وصلت إلى شرحد! .

ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نستسيغ تسليم سمرقند إلى الخطا.

لقد كان الداعي لصاحب سمرقند إلى طلب تدخل خوارزم شاه هو النقمة على ما أصاب المسلمين فيما وراء النهر وغيره من طغيان الخطا، والغيرة على المسلمين هي التي دفعت صاحب سمرقند إلى الاستنجاد بخوارزم شاه على الخطا.

وابن الأثير[2] يصف الوضع بهذه الجمل: «. . . فاتفق أن سلطان سمرقند وبخارىٰ، ويلقب بخان خانان، يعني سلطان السلاطين، وهو من أولاد الخانية، عريق النسب في الإسلام والملك، أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك، وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين

---

(١) ابن الأثير: ج١٢، ص٢٦٨.
(٢) ابن الأثير: ج١٢، ص٢٥٩.

وبلادهم من أيدي الكفار، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل إليك ما نحمله إليهم. ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة».

ونحن لنا أن نستنتج من هذا القول:

١ ـ إن صاحب سمرقند مسلم عريق في الإسلام، سليل مسلمين عريقين كذلك في الإسلام.

٢ ـ بالرغم من قول ابن الأثير من أنه أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين، فإننا نستنتج مما جاء في آخر كلام ابن الأثير أن هذا الضجر كان من تحكم هؤلاء به هو نفسه إذ كان خاضعاً لسيطرتهم.

وهذا لا يمنع من أنفه وضجره من تحكم الخطا بعموم المسلمين.

٣ ـ كان يحسب أن إرضاء خوارزم يكفي فيه أن يحمل إليه المال وأن يخطب باسمه في بلاده ويذكره على السكة، وبذلك يتخلص من نفوذ الخطا المتحكم به وبأمواله ويعود مستقلاً كامل الاستقلال. ولكن آماله خابت فبعد أن كانت سيطرة الخطا على بلاده سيطرة غير مباشرة عادت سيطرة الخوارزميين سيطرة مباشرة.
ولكي يستدعي هذا (الخان خانان) المسلم العريق في الإسلام سليل المسلمين العريقين في الإسلام ـ من أجل أن يستدعي الخطا الكفار لتسلم بلاده الإسلامية، يجب أن تكون سيرة الخوارزميين

في بلاده قد بلغت الغاية في الظلم والتعسف والقهر والإذلال.

ولم يكتف صاحب سمرقند باستدعاء الخطا لتسليمهم البلاد، بل عمد إلى الانتقام من الخوارزميين الموجودين في سمرقند انتقاماً بلغ أقصى الوحشية.

وكان قد سكن سمرقند الكثيرون بعد التحالف الخوارزمي السمرقندي، كما كان يسكنها غيرهم من قبل، فأمر صاحب سمرقند بقتل الجميع قتلاً عاماً، أما من كانوا منهم منتسبين شخصياً إلى خوارزم شاه فكان يقطع الواحد منهم قطعتين ويعلقهم في الأسواق «كما يعلق القصاب اللحم».

وبلغ حقده حتى إلى زوجته الخوارزمية ابنة خوارزم شاه، فمضى إليها ليقتلها، فأغلقت الأبواب، ووقفت بجواريها تمنعه، وأرسلت إليه تقول له: أنا امرأة وقتل مثلي قبيح، ولم يكن مني إليك ما استوجب به هذا منك، ولعل تركي أحمد عاقبة، فاتق الله في..

فتركها ووكل بها من يمنعها من التحرك بحرية.

ووصلت أخبار ما جرى إلى خوارزم شاه فأقامته ولم تقعده وكان رد فعله يكاد يكون أفظع من فعل صاحب سمرقند، فإذا كان هذا قد قتل الخوارزميين وحدهم، فإن خوارزم شاه صمم على قتل كل من في خوارزم من الغرباء!.. ولكن أمه حالت بينه وبين ذلك، وقالت له: إن هذا البلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض،

ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل. فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى.

وانصرف إلى إعداد جيش لإرساله إلى ما وراء النهر، فكلما أعد جماعة سيرها فعبرت جيحون، وتتابع التسيير حتى عبرت جموع غفيرة، ثم عبر هو وراءهم زاحفاً بهم إلى سمرقند، فلما وصلها بعث إلى صاحبها قائلاً: قد فعلت ما لم يفعله مسلم، واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر. وقد عفا الله عما سلف فأخرج من البلاد وامض حيث شئت..

ولكن صاحب سمرقند رفض ذلك وبعث إليه: لا أخرج وأفعل ما بدا لك.

ويبدو لي أن رفضه هذا ـ مع علمه بكثافة القوى التي يقودها خوارزم شاه ـ كان اعتماداً على قوى الخطا التي كان يأمل أن تأتي لإنجاده بعد أن استنهض ملكها لهذه المهمة، وأنه كان يحسب أنه يستطيع بقواه الذاتية مصاولة خوارزم شاه إلى أن تصل قوى الخطا.

ولكن خوارزم شاه عاجل سمرقند وأمر بالزحف إليها. وهنا بدرت من بعض أصحابه بادرة إنسانية كريمة استجاب لها خوارزم شاه. فقد كان التجار الغرباء يسكنون درباً خاصاً بهم، فطلب إليه صاحبه أن يأمر بعض الأمراء إذا فتحوا البلد أن يقصدوا الدرب الذي يقيم فيه هؤلاء التجار فيمنع من نهبه والإساءة إليهم، فإنهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل، فأمر بعض الأمراء بذلك.

ونادى بالهجوم العام فكان أن نصبت السلالم على السور

وصعد عليها المقاتلون وبادروا سمرقند من كل ناحية، فلم يكن أسرع من أن اقتحموها، فأُبيحت ثلاثة أيام نهباً وقتلاً، ويقول ابن الأثير[1] أنه يقال أنهم قتلوا مئتي ألف إنسان.

وسلم ذلك الدرب بأهله وأموالهم.

وهنا نتساءل عن شيئين اثنين: عن صاحب سمرقند أين هو في هذا المعمغان الدموي، ثم عن الخطا الذين كان اعتماد صاحب سمرقند عليهم؟.. أما صاحب سمرقند الذي هو وحده المسؤول عن كل ما جرى، منذ استدعائه خوارزم شاه، إلى رفضه طلب خوارزم شاه الرحيل عن البلاد.

أما صاحب سمرقند وصاحب هذه المسؤولية الكبرى فإننا نفتش عليه في قيادة معركة الدفاع عن عاصمته سمرقند فلا نجده، ونفتش عليه في كل ما جرى بعد رفضه الرحيل، ورفضه أن يكون ثمن رحيله سلامة الناس والبلاد، ورده على خوارزم شاه: لا أخرج وافعل ما بدا لك!..

ومن يردّ هذا الرد ويقول هذا القول كنا سنجده حيث نفتش عليه على رأس قيادة الجموع المدافعة عن سمرقند، لأن خوارزم شاه قد فعل ما بدا له وهو الهجوم على سمرقند، في مقابل رفضه هو الخروج وترك البلاد!.

---

(١) ابن الأثير، ج١٢، ص٢٦٩.

لم يكن صاحب هذا الرد الاستفزازي العنيف لا على رأس القيادة، ولا حتى على ذيلها!..

إن اسمه يختفي نهائياً... لم يكن في القيادة، ولم يكن في القتلى ولا الجرحى ولا الأسرى!..

يروي ابن الأثير قائلاً في متابعة الأحداث: ثم أمر (خوارزم شاه) بالكف عن النهب والقتل، ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبة وخوفاً فأرسل بطلب الأمان، فقال: لا أمان لك عندي، فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزم شاه، فقبل الأرض وطلب العفو، فلم يعف عنه وأمر بقتله، فقتل صبراً، وقتل معه جماعة من أقاربه، ولم يترك أحداً ممن ينسب إلى الخانية.

ورتب فيها وفي سائر البلاد نوابه، ولم يبق لأحد معه في البلاد حكم.

من يقصد ابن الأثير بصاحب القلعة؟ إنه لم يشر إليه من قبل أبداً، مع أن ذكره هنا بالشكل الذي ذكره يوهم بأنه معروف من القارىء، وما من أحد معروف من القارىء في هذه الأحداث إلا صاحب سمرقند، فهل يقصد ابن الأثير بصاحب القلعة صاحب سمرقند، وسماه هنا صاحب القلعة لالتجائه إلى القلعة بعد سقوط المدينة؟.

قد يكون هذا مستبعداً... على أنه قد يقربه قول ابن الأثير

في آخر الكلام: وقتل معه جماعة من أقاربه، ولم يترك أحداً ينسب إلى الخانية.

فالمفروض أن من ينسبون إلى الخانية هم أقرباء (خان خانان) صاحب سمرقند..

إنَّ كلام ابن الأثير المتشابك الموجز تركنا نجهل حقيقة مصير مثير هذه الحرب الفظيعة بما جرى فيها. هذا عن صاحب سمرقند فماذا عن الخطا الذين استنجد بهم صاحب سمرقند وكان اعتماده عليهم في رده الحاسم على عرض خوارزم شاه؟

لا يذكر عنهم ابن الأثير خلال حديثه عن المعركة شيئاً، ولكنه يعود فيقول وهو يتحدث عما بعد المعركة «لما فعل خوارزم شاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم إلى ملكهم فإنه لم يحضر الحرب فاجتمعوا عنده».

في حين أنه لم يذكر شيئاً عما فعله خوارزم شاه بالخطا، ولم يشر أدنى إشارة إلى جماعة الخطا في الدفاع عن سمرقند، وما ذكره عن المذابح فيها، كانت عبارته صريحة، بأن هذه المذابح نالت السمرقنديين وحدهم، فهو يقول عن خوارزم شاه: «وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند، فنُهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام فيقال إنهم قتلوا منهم مئتي ألف إنسان».

الذي يلوح لنا أن ملك الخطا اكتفى بأن أرسل إلى سمرقند نجدة ساهمت بالدفاع القصير الأمد عن سمرقند فأصيبت بما أصيب به أهل سمرقند.

التتر والمغول

مؤرخو العرب القدامى يعتبرون التتر والمغول اسمين لمسمى واحد، فهم يعبرون ـ مثلاً ـ عن جنكيز خان وقومه بالمغول تارة وبالتتر تارة أخرى.

وابن الأثير يقول عن أحداث خوارزم شاه والخطا والتتر والمغول: إن التتر بقيادة ملكهم كشلي كانوا أعداء الخطا. ثم لا يلبث أن يقول ما نصه: «ثم اتفق خروج التتر الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكيز خان النهرجي على كشلي خان التتري الأول».

فهم كلهم عنده تتر، وللتمييز بينهم يصنفهم: بالأول والآخر.

وفيما نرى: أن التتر في الأصل فرع من المغول خرجوا منهم، ثم انفصلوا عنهم مع الزمن انفصالاً تاماً جعلهم شعباً مستقلاً لا تربطه بالمغول إلا رابطة الأصل الواحد البعيد، وإن ظل يجمعه به تشابه الملامح وتقارب بعض الخصائص. وبذلك يكون كشلي ملك التتر. ولا حاجة لابن الأثير لأن يعبر عنه بقوله: «التتر الأول»، ويعبر عن قوم جنكيز خان: «بالتتر الآخر». فكما أن كشلي ملك التتر، فإن جنكيز خان ملك المغول.

التتر يتحركون

التتر الذين كان قد نزح فريق كبير منهم إلى تركستان واستقروا فيها كان بينهم وبين الخطا عداء متأصل وحروب متتابعة، فانتهزوا فرصة التقاتل بين خوارزم شاه والخطا، والهزيمة التي مني بها الخطا في سمرقند، فمشى ملكهم كشلي للانقضاض على الخطا في حالة ضعف.

وعرف ملك الخطا عجزه عن صد التتر المتدفقين عليه كالسيول، فأغض عما بينه وبين خوارزم شاه من الشحناء، وعما أنزله خوارزم شاه بجيشه، فأرسل إليه يعرض التحالف معه على التتر الذين يشكلونِ خطراً عليهما معاً، قائلاً: «أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفونا عنه. وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به، وأنهم إن انتصروا علينا وملكونا، فلا دافع لهم عنك. والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم، ونحن نحلف لك إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من بلاد ونقنع بما في أيدينا»[1].

وإذا كان ملك الخطا قد رأى نفسه بحاجة إلى خوارزم شاه في الخطر المحدق به مما أدى به إلى أن يطلب نصرته في حال هي في حقيقتها توسل، فإن كشلي ملك التتر لم يكن بغافل عما يمكن أن يتأثر به موقف أحد الفريقين في حالة انضمام خوارزم شاه إلى

---

(١) ابن الأثير: ج١٢، ص ٢٧٠.

الفريق الآخر، لذلك سارع هو الآخر إلى خطب ود خوارزم شاه طالباً إليه التحالف معه على الخطا قائلاً: «إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا، فساعدنا عليهم، ونحلف لك إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك، ونقنع بالمواضع التي ينزلونها»[1].

هكذا وجد خوارزم شاه نفسه موضع تجاذب عدوين شرسين، يسعى كل منهما إلى كسب رضاه واستعطافه، فرأى أن يرضيهما ويمنيهما معاً، فأجاب كلاً منهما: إنني معك ومعاضدك على خصمك!..

ومضى بجيشه فنزل قريباً من مكان تواجههما، بحيث يظن كل فريق أنه جاء لمناصرته، ووقعت المعركة فكانت هزيمة الخطا هزيمة كاسحة، فأسرع خوارزم شاه عند ذلك إليهم وجعل يقتل فيهم ويأسر وينهب، قاطعاً عليهم بجيشه الكبير طريق الهروب فأوقع فيهم مذبحة مروعة بحيث لم يكد ينجو منهم أحد إلا عدد قليل مضوا مع ملكهم إلى بعض الجبال المنيعة، كما انضم إلى جيش خوارزم شاه منهم جماعة...

وراح خوارزم شاه يمنن على كشلي بما فعل، قائلاً أنه قدم لمساعدته ولولاه لما انتصر على الخطا، فلم ينكر كشلي عليه ذلك واعترف به. ولكن خوارزم شاه عاد بعد حين يطلب ثمن ما فعل، وكان ثمناً باهظاً، إذ طلب من كشلي أن يتقاسما بلاد الخطا.

---

(١) م.ن.

فرد كشلي عليه رد عنيفاً قائلاً: ليس لك عندي إلا السيف، وأنت وقومك لستم أمنع من الخطا، فإن سَكَتَّ، وإلا كان مصيركم مصيرهم.

واتبع قوله بالعمل وتقدم بجيشه حتى كان قريباً منهم، فراغ منه خوارزم شاه لأنه كان يعلم أنه لا يستطيع لقاءه بجيشه وجهاً لوجه، فراح يحاربه حرب العصابات، وكذلك أرغم أهل الشاش وفرغانة وغيرها من مثيلاتها وما جاورها أن ينزحوا عنها ويلتحقوا بالبلاد الإسلامية الأخرى، وكانت بلاداً زاهرة زاهية فراح يخربها لئلا يستولي عليها التتر، حتى عمها الخراب.

وشاءت الأقدار أن تكون في صف خوارزم شاه، فإذا بالمغول يتجهون إلى غزو بلاد التتر، فأصبح النصر على الخوارزميين لا يعني لكشلي شيئاً، فاتجه بقوته لمجابهة المغول، وعاد خوارزم شاه إلى الاستقرار.

ثم يمضي حوالي سبع سنوات لا يبرز لنا فيها شيء من أخبار خوارزم شاه حتى تكون سنة ٦١١ هـ فإذا بأخباره تتابع ممتداً سلطانه امتداداً واسعاً، مسيراً جيشه لفتح كرمان[١] ثم

---

(١) كرمان: كما يقول في معجم البلدان: ناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ومن مدنها المشهورة: جيرفت وموقان وخبيص وقم والسيرجان ونرماسير وبردسير. وقد كانت في أيام السلجوقية والملوك القارونية من أعمر البلدان وأطيبها. وكرمان أيضاً: مدينة بين غزنة وبلاد الهند وهي من أعمال غزنة.

مكران[1] واصلا سلطانه إلى السند من حدود كابل. وخطب له في هرمز وقلهات[2] وبعض عُمان.

وفي سنة ٦١٢ يكون قد استولى على خراسان كلها ومَلَك باميان. وفي سنة ٦١٤ مَلَك بلاد الجبل[3]، ويصف ابن الأثير جيشه في تلك الفترة قائلاً: «فسار مجداً في عساكر تطبق الأرض»، وبعد ما ملكه: ساوة، وقزوين، وزنجان، وأبهر، وهمذان، وأصفهان، وقم، وقاشان. ويقول: واستوعب ملك جميع البلاد، واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان

---

(١) مكران: عن معجم البلدان: ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى، وهي بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها.

(٢) قلهات: مدينة بعمان على ساحل البحر.

(٣) بلاد الجبل أو بلاد الجبال: اسم يطلق على منطقة واسعة هي على ما يقول في معجم البلدان: ما بين أصفهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين (كرمنشاه) والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة. وقد يطلق على هذه المنطقة اسم (عراق العجم).
ونقول: عراق العجم أو العراق العجمي: اسم أطلقه السلاجقة على ما كان يعرف في عهد البويهيين باسم (بلاد الجبل). ويقول حمد الله المستوفي (٢٨١ ـ ١٣٤٩ م) في كتابه (نزهة القلوب) عن العراق العجمي أن حدوده: آذربيجان، كردستان، خوزستان، فارس، المغازة الكبرى، قومس، كيلان، وأن أشهر مدنه: أصفهان، همذان، قم، الري، السلطانية، قزوين، ساوه، الطالقان، كاشان، نهاوند، جرباذقان، يزود رغيرها، ونزهة القلوب كتاب في الجغرافيا طبع في الهند سنة ١٣١١ وطبع منه قم في ليدن سنة ١٣٣١ (١٩١٣ م).

صاحب آذربيجان وأرّان بأن يخطب له أوزبك في بلاده ويدخل في طاعته.

هذه السطوة التي بلغها خوارزم شاه، وهذا الملك العريض الذي صار إليه، أطمعه بأن يسيطر على الخلافة في بغداد وأن يحل فيها محل السلاجقة ومن قبلهم البويهيين، وأن يخطب له فيها ويلقب بالسلطان. ولكن خلافة بغداد كانت معرضة عنه محاذرة منه لا تريد لأحد أن يعود فيحد من سلطتها ويجعلها رهينة قصرها. وكما يقول ابن الأثير: «كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولاً، وكان سبيله إذا ورد إلى بغداد أن يقدّم غيره عليه، ولعل في عسكره مئة مثل الذي يقدم سبيله عليه، فكان إذا سمع ذلك يغضبه».

وإذا كان قد استطاع حتى الآن أن يكبت غضبه في نفسه وأن لا يجاهد الخلافة بالعداء، فقد رأى الآن أن يضع لصبره حداً وأن يفرض نفسه على الخليفة الناصر بحد السيف.

فأعدّ جيشاً ليسير به إلى بغداد فاتحاً، وقدّم طليعة لهذا الجيش مؤلفة من خمسة عشر ألف فارس يقودها أحد كبار أمرائه فمضى بها الأمير متجهاً صوب العراق حتى بلغ حلوان على حدود العراق، ثم اتبعها بقطعة أخرى من الجيش واصلة سيرها حتى همذان، فلما تجاوزتها فاجأتها العواصف الثلجية التي يقل مثيلها، فهلك الكثير من الجنود والكثير من الدواب، وقضى على من سلم بنو برجم الأتواك وبنو هكّار الأكراد ولم يصل إلى خوارزم منهم إلا أقل من القليل.

كانت الصدمة شديدة على خوارزم شاه فهدت عزيمته، وصمم على الرجوع إلى خراسان خوفاً من التتر، فقد كان يحسب أنه يستطيع إنهاء أمر السيطرة على بغداد بسرعة، ثم يتفرغ للتتر فلما حل بجيشه ما حل يئس وقرر إلغاء مشروع احتلال بغداد، وعاد إلى خراسان، ومن مَرْو توجه إلى ما وراء النهر، فلما وصل إلى نيسابور في يوم جمعة جلس عند المنبر وأمر الخطيب بأن لا يخطب للخليفة الناصر. وكذلك فعل ببلخ وبخارى وسرخس.

ومن سنة ٦١٤ حتى سنة ٦١٦ تختفي أخبار خوارزم شاه حتى كانت هذه السنة، وهي السنة التي زحف بها المغول بقيادة جنكيزخان على العالم الإسلامي قاصدين أول ما قصدوا خوارزم شاه الذي كان من أمره معهم ما ليس هنا مكان تفصيله، وقد كنا فصلناه في كتابنا: (المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام) وطوي أمر خوارزم شاه..

دولة بني عمار في طرابلس

بنو عمَّار أسرة تعود أصولها إلى قبيلة كتامة المغربية الإفريقية[1]. وعند قيام الدَّولة الفاطمية كان شيوخ هذه القبيلة ممَّن

---

(١) يقول المؤرِّخ المغربي، الدكتور موسى لقبال في ما يقول عن قبيلة كتامة: يحمل تاريخ قبيلة كتامة وعلاقتهم بالحركة الفاطمية، منذ القرن الثالث للهجرة، عدة معان ودلالات منها: إن عملهم يعبر عن فترة حاسمة في نهضة الفروسية الإسلامية في بلاد المغرب، وهو يمثل أيضاً دوراً إيجابياً للإسلام الشيعي..

... وبفضل عمل كتامة سرى تيار الوحدة، وأصبحت أصداؤه هي المسموعة في أرجاء المغرب والمشرق أيضاً... وأهملهم المؤرخون وغطوا محاسنهم تأثراً بالسياسة وبالمذهبية...

ومحبة آل البيت وتأييدهم ودعم قضية الشيعة الفاطميين كانت بارزة في مجموعهم وارتبطت بالعصبية القومية وبالشرف...

ويبدو أن السبب في اختفاء بقايا كتامة في تونس هو السبب في اختفاء اسمها الأصلي القديم من بيئتها الأولى، أي يرتبط بحرص رجال المالكية على طمس كل ما يتصل بهذه القبيلة المبتدعة في نظرهم!..

وكانت مصر بالنسبة لقادة كتامة مركز الجذب ونقطة الارتكاز لكل من أراد الظهور والمجد في ميادين السياسة والجندية... =

= وفي مجال البحث عن بذور حركة التشيع، وعن كيفية تسرب الدعوة الفاطمية إلى بلاد المغرب نشير إلى ما تمتعت به شخصية علي بن أبي طالب عند جميع المسلمين في المغرب من محبة وتقدير، كمجتهد في الرأي وكولي من أولياء الله وفارس مظفر حتى إن جهوده أثناء حركة نشر الإسلام ضد قريش وضد اليهود في خيبر وغيرها من واحات شبه الجزيرة، يتغنى بها عامة المسلمين في هذه البلاد.

جاء حادث قتله غيلة وظلماً ليرفعه إلى مقام رفيع وهو مقام الشهداء. وجمهور العامة في هذا الوقت، يروون عن «سيد علي، أو علال» كثيراً من الخوارق، كما يخلعون عليه لقب «حيدر» وهو من ألقاب علي، وهذا اللقب شائع في بلاد المغرب. ويسمون فرسه باسم السرحان الذي يعتقدون أنه لا يغلب، وأن مصدر نبات النرجس من لعابه. وصورته وحده أو مع ابنيه الحسن والحسين، ثم وهو راكب على جواده تنتشر في الأسواق، ويتبرك الناس بتعليقها على جدران البيوت.

ويعتقد كثير من الناس أن علامة الخمسة، وهي صورة الكف التي ترمز في ما يبدو إلى آل البيت، أو أصحب الكساء مفيدة في الوقاية من شر العين والحسد.

وجل قصائد القصاص الشعبيين في الأسواق تدور حول بطولات علي بن أبي طالب الذي غدا الصورة النموذجية لكل الفرسان والأبطال.

ويشير ابن أبي الضياف إلى مدى ما يكنه مسلمو المغرب جميعاً من محبة لعلي وآله جبلة في طباعهم في قوله: «وأهل أفريقيا (المقصود بأفريقيا هنا: تونس بالذات) يدينون بحب علي وآله، ويستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم جبلة في طباعهم». وبعد أن يؤيد ذلك بأن النساء الحوامل في أفريقيا والمغرب ينادين عند الوضع: يا محمد، يا علي، لتسهل الولادة، وبأن أبا الحسن الشاذلي الإمام المتصوف وصاحب الطريقة الشاذلية كان يوصي أصحابه ومريديه بقوله: «إذا اشتد عليكم كرب فقولوا: يا محمد يا علي».

لهم الصدارة في مؤسَّساتها الإدارية والعسكرية، نذكر منهم الحسن بن عمار الذي كان من أبرز رجال الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

ثم كان بنو عمار قضاة طرابلس، ثم أصبحوا أمراءها فمنهم أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، المتوفى سنة ٤٦٤ هـ.، ثم جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار المتوفى سنة ٤٩٢ هـ.، ثم فخر الملك عمار بن محمد بن عمار المتوفى حوالى سنة ٥١٤ هـ.، وأبو المناقب شمس الملوك أبو الفرج محمد بن عمار المتوفى سنة ٥٠١ هـ..

كان استقلال بني عمار بطرابلس سنة ٤٦٢ هـ. (١٠٧٠ م). وكانت إمارتهم تمتد حتى تخوم بيروت من جهة وحتى أرباض أنطاكية من جهة ثانية. وتمتدّ من نواحي جبلة في سوريا إلى قلعة صافيتا وحصن الأكراد والبقيعة. وفي لبنان حتى الهرمل والضنية وجبة بشري وبلاد العاقورة شرقي بلاد جبيل.

وكانت جونية من أعمال طرابلس في عصر الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ. والذي زار طرابلس سنة ٣٦٢ هـ.

= ويرى الدكتور لقبال، بعد هذا القول، أن هذا ليس ناشئاً من تأثير قيام الدولة الفاطمية في تلك البلاد فقط، بل لا يستبعد أن يكون لمذهب مالك بن أنس الذي يأخذ به كافة مسلمي المغرب، عدا الخوارج، أثر في ذلك بسبب صلة مالك بجعفر الصادق(ع) الذي أخذ عنه وتأثر به.

وقد نمت إمارتهم نمواً عظيماً حتى أصبحت طرابلس، في القرن الحادي عشر، أعظم مدينة على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وكانت أساطيلها تنتقل في أنحاء هذا البحر، فهي المنفذ البحري الرئيسي لبلاد الشام، عن طريقه يتم التصدير والاستيراد، وتنقل منتجات الشام والمشرق إلى أوروبا، وإليه تفد من الخارج لتحمل منه إلى سائر بلاد الشام. وكان بنو عمار، وهم مثقلون برد الهجمات الصليبية عليهم من البر والبحر يسيّرون أسطولهم التجاري إلى ثغور البحر المتوسط[١]. وظلت طرابلس، ومعها دمشق، تموِّنان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك[٢] وكان التاجر الأوروبي القادم من البندقية أو جنوى يعود إلى بلاده وهو يحمل سلال السكر وأكياسه من طرابلس[٣]. وجمع بنو عمار زراعة قصب السكر الذي كان ينمو بغزارة على ضفاف نهر «أبو علي» وفي بساتين طرابلس. وأقاموا المصانع داخل المدينة لعصره وتجفيفه وتصنيعه، بشكل رقائق أو ناعم أو بشكل حلوى، وكان من حسن سياسة بني عمار وصلاح حكمهم أن أثرت المدينة وكانت على أحسن حال اقتصادي حتى خلال الحصار الصليبي لها براً وبحراً إذ ظلت

---

(١) الحياة الثقافية في طرابلس، ص ١٥.

(٢) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ط ١٩٥٩، ص ٤١٤.

(٣) سيفريو هونكه، فضل العرب على أوروبا، القاهرة، ص ٢٨.

صامدة تقاتلهم عشر سنين مستعينة بثروتها الداخلية وحسن إدارة اقتصادها.

وعندما أوفد القائد الصليبي ريموند خلال الحصار، وفداً لمفاوضة فخر الملك، ومرَّ الوفد بأسواق طرابلس أدهشه ما رأى من تنوع البضائع ورواج التجارة وعظيم الثروة والرخاء الذي تنعم به المدينة[1]. وقد دفع فخر الملك أثناء الحصار الصليبي إلى جميع المدافعين عن المدينة من الأجناد براً وبحراً رواتب ستة أشهر مقدماً، كما كان أثرياء المدينة يشاركون بأموالهم في مقاومة الحصار الاقتصادي الذي فرضه الصليبيون على المدينة[2].

وكان فخر الملك عمار بن عمار يلقب بملك الساحل.

وإذا كنا نعلم أن الحسن بن عمار هو الذي أرسل، في عهد العزيز بالله، أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي إلى دمشق، وأنَّ أبا تميم هذا أرسل أخاه علي بن جعفر بن فلاح والياً على طرابلس سنة ٣٨٦ هـ. ، إذا كنا نعلم ذلك، فإننا لا نعلم شيئاً عن عوامل وصول بني عمار إلى طرابلس: قضاة ثم حكاماً، فليس في المصادر التاريخية التي في أيدينا ما يدل على بدء قيامهم فيها. فبعد وفاة جد الأسرة الحسن بن عمار سنة ٣٨٦ هـ. ، لا نرى أمامنا شيئاً من أخبارها، ويمتد ذلك حوالى ثلاثة أرباع القرن حتى

---

(١) حسن حبشي، الحروب الصليبية، القاهرة، ص ٦٥.

(٢) ابن الأثير، ج١٠، ص ٤٥٢.

يبرز لنا اسم أبي الكتائب عمار صاحب أبي الفتح الكراجكي[1]، المتوفى سنة ٤٤٩ هـ والذي ألف له الكراجكي كتاب «عدّة البصير في حج يوم الغدير».

أما أول من استقل بطرابلس من بني عمار فهو أبو طالب الحسن بن عمار المشهور بأمين الدولة، وقد ظل يعدّ نفسه تابعاً للدولة الفاطمية حتى سنة ٤٦٢ هـ. (١٠٧٠ م)؛ حيث استقل بطرابلس فقامت بذلك إمارة بني عمار.

---

(١) من تلاميذ الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي. كان نزيل الرملة (فلسطين) وأخذ عن بعض المشايخ في حلب والقاهرة ومكة وبغداد وغيرها من البلدان، وتوفي في صور (لبنان) سنة ٤٤٩ هـ. له مؤلفات كثيرة بلغت السبعين. منها: كنز الفوائد، والاستطراف في ذكر ما ورد من الفقه في الانصاف، والاستنصار في النص على الأئمة الأطهار، والاعلام بحقيقة إيمان أمير المؤمنين وأولاده الكرام، والبيان عن جمل اعتقاد أهل الإيمان، وتهذيب المسترشدين، وشرح جمل العلم للمرتضى، ومعارضة الاضداد باتفاق الاعداد، ومعدن الجواهر ورياضة الخواطر.
والكراجكي: بفتح الكاف نسبة إلى الكراجك عمل الخيم، ولهذا وصفه بعضهم بالخيمي. وضبطه بعضهم بضم الجيم نسبة إلى الكراجك: قرية على باب واسط ذكرها ياقوت في معجم البلدان. ويقول في «أعيان الشيعة»: إن هذا ليس بصحيح. وكان الكراجكي نحوياً لغوياً فلكياً متكلماً فقيهاً محدثاً، وكان إلى ذلك طبيباً.
ويقول السيد بحر العلوم في رجاله عن كتابه كنز الفوائد: يدل على فضله وبلوغه الغاية القصوى في التحقيق والتدقيق والاطلاع على المذاهب والأخبار، مع حسن الطريقة وعذوبة الألفاظ.

ومات أمين الدولة سنة ٤٦٤ هـ. (١٠٧٢ م). فتولى بعده ابن أخيه علي بن محمد بن عمار المعروف بجلال الدولة الذي استمر حكمه حتى سنة ٤٩٢ هـ. وتولى بعده أخوه عمار بن محمد بن عمار ذو السعدين المعروف بفخر الملك وبقي حتى سنة ٥٠١ هـ.، حيث ذهب إلى بغداد مستنجداً بالسلاجقة على الصليبيين. وفي سنة ٥٠٢ هـ. (١١٠٩ م). احتل الصليبيون طرابلس بعد نضال طويل.

منقبة مؤسس الإمارة: أمين الدَّولة الحسن بن عمار

كان أمين الدولة كبير العقل سديد الرأي، عالماً، فقيهاً، كاتباً مجيداً، ألَّف كثيراً من الكتب النفيسة. أما منقبته الكبرى فهي تأسيسه «دار العلم» التي جمع فيها أول الأمر أكثر من مئة ألف كتاب. وكان يبعث، في التفتيش عن الكتب، إلى جميع الأقطار ويبذل في شرائها باهظ الأثمان، ويجلب لها الكتب النادرة. واستمر الأمر بعده في عهد خلفائه، هذا فضلاً عن عنايته بالعلم وطلابه فيها وتشجيعهم على الوصول إلى طرابلس لمتابعة الدراسة.

وإلى جانب دار العلم قامت «دار الحكمة» التي قدم إليها العدد الكثير من طلاب العلم، حتى لقد أصبحت طرابلس كعبة علم ومركزاً من أعظم المراكز العلمية في العصر الوسيط يفد إليها

طلاب العلوم والفنون من فقه وحديث ولغة وأدب وفلسفة وهندسة وطب.

وعدا طلاب العلم فقد كان يفد إليها العلماء لمراجعة المؤلفات لأشهر المؤلفين في العلوم والمعارف. كما كانت تعقد حلقات علمية لكبار العلماء ينضم إليها العلماء الوافدون إلى طرابلس للاستزادة من العلم. وقد جدد «دار العلم» التي أنشأها أمين الدولة ابن أخيه وخليفته جلال الدولة سنة ٤٧٢ هـ. (١٠٨٢ م)؛ إذ كانت الظروف مؤاتية لجلال الدولة أكثر مما كانت مؤاتية لعمه وسلفه أمين الدولة.

ففي عهد الأول كانت الامارة في دور التأسيس، كما أن عمر حكمه كان قصيراً. أما جلال الدولة فقد استمر في الحكم زهاء ثمانية وعشرين عاماً اتسعت فيها أطراف الامارة وعظم شأنها ونشطت تجارتها.

دار العلم في طرابلس

وقد عني جلال الدولة بدار العلم عناية فائقة، وجعل لطلّاب العلم فيها رواتب، وفرّق على أهلها ذهباً، وجعل لها نظاراً يتولون القيام بذلك.

وكان شعراء الشام يفدون لمدح أمراء بني عمار ونيل جوائزهم فيلقون الترحيب والتكريم. وكثرت حلقات التدريس وازدحمت المدينة بأشهر الاعلام، من أدباء وفقهاء وشعراء

ولغويين، من الذين يفدون إليها من كل مكان، وقصدها الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم كما كان يفد إليها التجار والرحالة وطلبة العلم والعلماء من كل البلاد[1]. كما ازدهرت فيها ترجمة العلوم والآداب عن اللاتينية والفارسية وغيرهما إلى اللغة العربية، ومنها إلى اللغات الأخرى، ولدينا شهادة بذلك من المستشرق «دي لاسي اوليري»، في كتابه: «علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب»، وساوت في ذلك كبريات الحواضر العربية، فكثر فيها المترجمون والنساخون والكتّاب والخطاطون.

ويقول «ستيفن نسيمان» في كتاب «تاريخ الحروب الصليبية»[2] عن المكتبة: إنها أصبحت أروع مكتبة في العالم.

وعندما سقطت طليطلة، في الأندلس، في أيدي القشتاليين، سنة ٤٧٨ هـ. (١٠٨٥ م.) يبدو أنه هاجر فريق من علمائها إلى طرابلس، وكان منهم: أحمد بن محمد أبو عبدالله الطيلطلي، فاحتضنه بنو عمار وجعلوه متولياً لدار العلم. إذ كانوا يختارون للنظر في أمورها كبار رجال العلم، من أمثال: الحسين بن بشر بن علي بن بشر وأسعد بن أبي روح[3] ....

(١) الحياة الثقافية في طرابلس، الشام، ص ١٤.

(٢) ترجمة د. العريني، ج٢، ص ١١٣، بيروت ١٩٣٩.

(٣) كان ابن بشر خطيباً، وقد جرت بينه وبين الخطيب البغدادي، صاحب «تاريخ بغداد» مناظرة في الخطابة، وقد ذكر هذه المناظرة الكراجكي في رحلته، =

وغيرهما من أمثالهما.

وكان في المكتبة مئة وثمانون ناسخاً عملهم الوحيد نسخ الكتب غير الموجود منها نسخ في المكتبة وإضافتها إلى الكتب الموجودة فيها. ولم يقتصر الأمر على الكتب العربية، بل ضمت المكتبة الكثير من كتب اليونان والرومان والفرس، وبين الكتب العربية عدد كبير منها بخطوط مؤلفيها. ومكتبة كهذه تحتاج إلى الانفاق الكثير عليها لما تضمّه من عاملين فيها ومشرفين عليها ونساخين وخطاطين ومترجمين ومجلدين ووراقين وباعة يحملون إليها نوادر الكتب مهما غلا ثمنها.

أما عدد الكتب التي احتوتها مكتبة بني عمار فقد تعددت الأقوال في شأنه:

= وقال إنه حكم لابن بشر على الخطيب البغدادي بالتقدم بالعلم. وأما أسعد بن روح فقد كان قاضياً لطرابلس في عهد جلال الملك، وكان متعبداً زاهداً، وقد أخذ القضاء عن عبد العزيز بن البراج المتوفى سنة ٤٨١ هـ. ويقول ابن أبي طي: أسعد بن أحمد بن أبي روح عقدت له حلقة الاقراء وانفرد بالشام وطرابلس وفلسطين بعد ابن البراج.

وقيل إنه كانت له دار كتب خاصة جمع فيها أزيد من أربعة آلاف مجلدة وأنه اتخذها في حيفا عند تحوله إليها، وقيل إنه قتل فيها عندما احتلها الصليبيون، وقيل أنه قتل في صيدا، وقيل إنه انتقل إلى دمشق ومات بها قبل سنة ٥٢٠ هـ.، وله عدة مؤلفات منها: عيون الأدلة في معرفة الله، وكتاب التبصرة في معرفة المذهبين الشافعية والإمامية، وكتاب المقتبس في الخلاف مع مالك بن أنس، وكتاب النور في عبادة الأيام والشهور، وكتاب البيان عن حقيقة الإنسان، وكتاب الفرائض، وكتاب البراهين وغير ذلك.

فابن أبي طيّ يقول: إن العدد كان ثلاثة ملايين كتاب، ويؤيد ذلك ابن الفرات. وعلى هذا القول كثيرون من المؤرخين العرب والمستشرقين منهم: أرنولد وغروهمان وغيبون وشوشتري الذي يقول، في كتابه «مختصر تاريخ الثقافة الإسلامية»: إن مكتبة طرابلس كانت تحتوي أكبر عدد من الكتب عرف أن مكتبة ما حوته حتى ذلك الزمن، ألا وهو ثلاثة ملايين كتاب. والمستشرق الفرنسي كاترمير لم يخالجه شك في تقدير العدد بثلاثة ملايين كتاب.

ويبدو أن المكتبة بدأت، في عهد منشئها الأول، أمين الدولة بمئة ألف كتاب، وأن العدد ارتفع في عهد خليفته جلال الملك إلى المليون، ثم ارتفع في عهد فخر الملك إلى ثلاثة ملايين.

وكان في المكتبة، قاعة خاصة للنسّاخ والخطاطين مزوّدة بكل ما يحتاجونه من الأوراق والمحابر والأقلام، كما كان فيها قاعات للمطالعين الذين يفدون إليها. وهؤلاء الوافدون لم يكونوا من أبناء طرابلس فقط، فقد كان العلماء وطلاب العلم يفدون إليها من كل مكان للإفادة مما تحويه في كل فن من فنون العلم. فاكتظت طرابلس بالعلماء والأدباء والشعراء والمحدثين والفقهاء وبالطلاب الآخذين عنهم. حتى صارت مدينة طرابلس تسمى دار العلم، قد وردت هذه التسمية في عدة مصادر تاريخية. وفي ذلك

يقول الشاعر شهاب الدين محمود: «وهي أيضاً بدار علم تسمّى»[1]

وأسهم عدم بعد طرابلس عن دمشق في ازدهار الثقافة في طرابلس؛ إذ كان ينتقل إليها، في كل عام، زائرون من دمشق ليشاركوها الحياة العلمية ثم يعودوا إلى بلدهم.

وعندما حاصر «أتسز الخوارزمي» دمشق سنة ٤٦٨ هـ. واعتقل عدداً من رجالها وغلت الأسعار وضاق أمر الناس، قامت

---

(١) يقول مؤرخ عن مكتبة بني عمار ما يلي:
نحني هاماتنا أمام القضاة الأمراء من بني عمار الذين اتصفوا ـ بحسب شهادة مؤرخ الحروب الصليبية ستيفن رنسيمان ـ بأنهم كانوا يتمتعون بروح علمية مثل تمتعهم بالصفات الحربية، بل أكثر.
ولنا أن نطيل الصمت بخشوع وأن نحبس أنفاسنا ونحن نجول بين قاعات المكتبة وردهاتها التي حوت أكبر عدد من الكتب عرف أن مكتبة ما حوته في الدنيا حتى ذلك الوقت، ألا وهو ثلاثة ملايين كتاب بحسب عبارة شوشتري، ويؤيده فيها كبار المؤرخين والمستشرقين: ادوار جيبون، وأرنولد، وغروهمان، وكاترمير، وبروتز، وديرنبورغ. ناهيك بالمؤرخين والباحثين العرب مثل جرجي زيدان وغيره من ثقات المؤرخين الذين لم يخالجهم أدنى شك في تقدير ذلك العدد الذي نص عليه النويري ونقله ابن الفرات في تاريخه. ولا غرو فمكتبة مؤسس إمارة بني عمار القاضي أمين الدولة بن عمار كانت النواة الأولى وهي تضم مئة ألف كتاب. وقد كانت مكتبات أوروبا تقيد القليل من الكتب الذي قد لا يتجاوز العشرة من السلاسل لندرتها وخوفاً عليها من السرقة. وفي القرن الثاني عشر كانت مكتبة ـ كلوبي ـ تعتبر أكبر مكتبة في أوروبا ولا تحتوي سوى خمسمئة وسبعين كتاباً.

هجرة جماعية لوجوه دمشق إلى طرابلس، وممن هاجر الشاعر ابن الخياط صاحب الديوان المطبوع في دمشق، سنة ١٩٥٨.

ومن المقرر، عند جميع من كتبوا عن تاريخ الحضارة الإسلامية ووصولها إلى أوروبا، أن من عوامل هذا الوصول كان عامل الاتصالات التجارية بقوافلها المتنقلة بين الشرق والغرب. وقد كان لطرابلس بني عمار الأثر الفعال في ذلك، فإليها كانت تفد القوافل التجارية البرية من بلاد الشام، ثم ينقلها إلى مرافىء أوروبا أسطول بني عمار التجاري الذي أعدوه أحسن إعداد، ناقلاً معها جذور الحضارة الإسلامية العربية.

وليس كالعلائق التجارية بين الأمم ما يدانى في التقدم الحضاري.

وقال ناصر خسرو (القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي) عن طرابلس: «وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة».

وقد ذكر المؤرخ «السلامي»، في كتابه، أن مدينة طرابلس كانت مملوءة بالعلماء حين دهمها الصليبيون[1]، وأن من يتصفح كتب التاريخ والتراجم ليقف على هذه الحقيقة، وسيجد أن طلاب

---

(١) الحياة الثقافية في طرابلس، ص ٢٦، عن مختصر التواريخ لشهاب الدين أحمد السلامي، ص ٢٧٧، نسخة مخطوطة بدار الكتب في القاهرة رقم ٩٠٥١ رمز.

العلم ورجالاته جاءوا إلى طرابلس من الأندلس وبلاد المغرب ومصر والحجاز والعراق وبلاد فارس وأنحاء بلاد الشام وآسيا الصغرى وغيرها. ونذكر هنا نماذج من أسماء الوافدين إليها، فمنهم الشاعر الشهير «ابن حيّوس» وسديد الملك بن منقذ، الأمير الشاعر، وابن السَّراج العالم المؤلف المقرىء، وابن النقار القاضي الذي درس بطرابلس وتولى الخطابة بجبلة ثم تولى كتابة الديوان بدمشق، وله ديوان شعر، وشاعر الشام ابن القيسراني، إلى عشرات من أمثال هؤلاء.

ومن أشهر الوافدين على طرابلس للإفادة من «دار العلم» أبو العلاء المعري. وقد شكك المؤرخ ابن العديم بذلك وتابعه آخرون. قال ابن العديم: «... وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء المعري رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها، واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد. ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن أحمد بن عمار في اثنتين وأربعمائة. وكان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك سنة تسع وأربعين وأربعمائة»[1].

على أن الدكتور مصطفى جواد قد فند هذا القول قائلاً:

ومن الحق أن في النفس ما فيها من قول ابن العديم: «وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك» فالتجديد عند أهل

---

(١) الانصاف والتحري، ص ٥٠.

العربية: إعادة شيء عتيق إلى حالة حسنة مستأنفة فليس هو بتأسيس ولا بناء. ولو كان هذا العالم الكبير متثبتاً في قوله لقال: «وإنما أنشأ دار العلم» أو «إنما أسس دار العلم» فهو محجوج مفلوج على دعواه بذكره التجديد دون التأسيس والإنشاء، وبذلك تسقط دعوى من أنكر دراسة أبي العلاء المعري بدار علم طرابلس، لأن التجديد يدل على أن دار العلم كانت منشأة قبل ذلك فأصابها تلف أو حريق استوجب تجديدها.

ثم يذكر الدكتور مصطفى جواد إنشاء أمين الدولة الحسن بن عمار، المعاصر لأبي العلاء المعري، لدار العلم، ولا يتعارض هو وقول ابن العديم من تجديد جلال الملك لها.

وممن نبغ، من الطرابلسيين، في عهد بني عمار، نذكر أمثال: ابن خرسان الأديب الشاعر المتوفى سنة ٤٩٧ هـ.، وابن زريق المهندس العالم الفلكي المتوفى سنة ٥١٦ هـ.، نذكرهما مثالين لنشير إلى تنوع الثقافات التي لم تنحصر في علوم اللغة وعلوم الدين.

ومن الحلقات العلمية، في عهد بني عمار في طرابلس، حلقة أبي عبدالله الطليطلي الذي مر ذكره، وكانت حلقته تخرج الأدباء والشعراء واللغويين والنحويين، ومنها تخرَّج الشاعر الفارس أسامة بن منقذ والشاعر ابن الخياط.

وعدا الحلقات العلمية فقد كانت هناك لقاءات شعبية تقوم أحياناً في حوانيت صغار الباعة وكبارهم، ومنها لقاءات العطار أبي

المفضل ولقاءات المنتزهات والأسواق وينابيع المياه خارج طرابلس؛ حيث يتطارح الملتقون الأشعار، ونذكر مثالاً على ذلك أن أحمد بن محمد، أبا عبدالله المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي، خرج مع بعض خلانه إلى ضفاف غدير في ظاهر طرابلس فقال ابن الخياط:

أومـــا تـــرى هـــذا الغـــديـــر كـــأنـــه
يبـــدو لعينـــك منـــه حلـــي منـــاطـــق

متـــرقـــرق لعـــب الشعـــاع بمـــائـــه
فـــارتـــج يخفـــق مثـــل قلـــب العـــاشـــق

فـــإذا نظـــرت إليـــه راعـــك لمعـــه
وعللـــت طـــرفـــك مـــن ســـراب صـــادق

فقال أحد رفاقه:

قـــد كنـــت آمـــل أن أجـــيء مصليـــاً
حتـــى رأيتـــك ســـابقـــاً للســـابـــق

وسبب مجيء ابن الخياط إلى طرابلس يدلك على الشهرة التي كانت لبني عمار في حماية الأدب والأدباء وتشجيعهم، فقد خرج هذا الشاعر من دمشق، في الحقبة الممتدّة ما بين سنة ٤٦٣ و٤٦٩ هـ، إذ كانت دمشق تعاني خلالها فترة عصيبة من الفتن والجوع والفاقة، وهو لا يزال في صباه، فقصد حماة واتصل هناك بالأمير أبي الفوارس محمد بن مالك. ثم ذهب إلى حلب فالتقى

بالشاعر ابن حيّوس فشكا له حاله وأنشده هذين البيتين يصف الحالة التي وصل إليها:

لــــم يبــق عنـــدي مـــا يبـــاع بـــدرهـــم
وكفـــاك منـــي منظـــر عـــن مخبـــر

إلا صبـــابـــة مـــاء وجـــه صنتهـــا
عـــن أن تبـــاع وأيـــن، أيـــن المشتـــري؟

فقال ابن حيّوس: لو قلت: «وأنت نعم المشتري». لكان أحسن ثم قال: كرمت عندي ونعيت إليّ نفسي، فإن الشام لا يخلو من شاعر مجيد، فأنت وارثي، فاقصد بني عمار بطرابلس، فإنهم يحبون هذا الفن. وبحدود سنة ٤٧٦ هـ. جاء ابن الخياط طرابلس وهو ابن ٢٦ سنة. وكان صاحب طرابلس يومها جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار فاتصل به ومدحه، كما مدح فخر الملك وغيره من بني عمار. كما كان يتردد على دار العلم ويحضر الدروس فيها، وتدفع له الجرايات التي كان بنو عمار يصرفونها للطلبة في الدار.

وتقدر المدة التي عاشها في طرابلس بعشر سنوات.

وفي قصور بني عمار كانت تقام حلقات المناظرة بين الفقهاء والشعراء، وكان بنو عمار يقيمون مسابقات للشعراء يتبارى فيها هؤلاء بنظم القصائد[١].

---

(١) الحياة الثقافية في طرابلس، ص ٣١ ـ ٣٦.

أمراء الدَّولة علماء مؤلّفون

ومن الكتب التي صدرت، يومذاك، نذكر هذه النماذج. شرح الإيضاح، وشرح ديوان الحماسة لزيد بن علي الفارسي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ.

وكتاب «جراب الدولة» لأبي طالب أمين الدولة الحسن ابن عمار. وقد وقع بعض المؤلِّفين في خطأ كبير، حين قالوا إن اسم الكتاب هو: (ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح المنعوت بجراب الدولة)، ونسبوه إلى أمين الدولة الحسن بن عمار.

وقد علَّق الدكتور مصطفى جواد على هذه النسبة التي أخطأ فيها «ابن الفرات»، وتابعه غيره من المؤلفين على هذا الخطأ. علق الدكتور مصطفى جواد بما نأخذه هنا لأهميته في التاريخ الفكري الثقافي لتلك الحقبة:

لقد وجدنا من الغريب قول المؤلف المصري، ناصر الدين بن الفرات، في ذكر أمين الدولة أبي طالب الحسن بن عمار: «وهو الذي صنف كتاب ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح المنعوت بجراب الدولة».

أما أولاً: فلأن كتاب «ترويح الأرواح» من كتب الفكاهة والهزل والباطل، وهذا قاضٍ وأمير ذو ديانة متينة.

وأما ثانياً: فلأن «جراب الدولة»، عند المطلعين على

التاريخ الإسلامي، جاء في حالتين: أولاهما كونه لقباً للإنسان الذي ألف «ترويح الأرواح» والأخرى كونه اسماً لكتاب ألفه ابن عمار المذكور في اقتصاديات الدولة الإسلامية وشؤونها الأخرى. وقد أخذ ابن الفرات المصري اسم الكتاب الهزلي ولقب مؤلفه فجعلهما اسماً لكتاب ابن عمار، وهذا من أشنع الغلط وأفظعه، وجل من لا يسهو ولا يغلط.

قال ياقوت الحموي في ترجمة الهازل الملقب «جراب الدولة»:

«أحمد بن محمد جراب الدولة: هو أحمد بن محمد بن علوية من أهل سجستان ويكنى أبا العباس، وكان طنبورياً، أحد الظرفاء والطياب. كان في أيام المقتدر وأدرك دولة بني بويه فلذلك سمّى نفسه بجراب الدولة، لأنهم كانوا يفتخرون بالتسمية في الدولة وكان يلقب بالريح[1] وله أيضاً كتاب «ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح» لم يصنف في فنه مثله اشتمالاً على فنون الهزل والمضاحك».

أما «جراب الدولة» الذي ألّفه أبو طالب الحسن بن عمار فهو من أجل الكتب وأجزلها فوائد وأشرفها موضعاً، قال القاضي ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون في فصل: «إن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها». «وكذلك وجد بخط أحمد محمد بن عبد

---

(١) لعله يكنى بأبي الريح لأن الجراب أبو الريح، «معجم الأدباء ج٢».

الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي، نقلته من جراب الدولة: غلات السواد... كسكر.. كورد جلة... حلوان... الأهواز... فارس». وذكر الارتفاع أي الواردات لمملكة المأمون بأسرها.

فأين موضوع هذا الكتاب من موضوع الكتاب الباطل العاطل؟ (انتهى).

وهكذا نرى أمراء بني عمار كانوا في الوقت نفسه علماء مؤلفين، يؤلفون في ما يسمّى اليوم بالاقتصاد السياسي. ومن المؤلفات التي صدرت في ظل حكم بني عمار، مؤلفات أسعد بن أحمد بن أبي روح التي مر ذكر بعضها.

وديوان ابن خرسان المتوفى سنة ٤٩٧ هـ.، وديوان أحمد بن منير المتوفى سنة ٥٤٨ هـ.، وروضة النفس لابن البراج المتوفى سنة ٤٨١ هـ.، وديوان لابن النقار المتوفى سنة ٥٦٧ هـ.، وديوان لابن هبة الله العلوي الحسيني المتوفى بعد سنة ٥١٥ هـ.، والتصريح في شرح قصيدة كثير، وابن ذريح للراشدي بن بركات المتوفى سنة ٥٤٠ هـ.، وغير ذلك.

حركة شعريَّة ناشطة

وكان بنو عمار من المقصودين بالمدح من شعراء عصرهم، فمن الشعراء الذين مدحوهم: ابن الخياط، وابن النقار، وأبو المواهب المعري، وابن العلاني المعري، وأبو الفتيان بن حيوس.

فمن مدائح أبي المواهب المعري قوله، في ذي السعدين، فخر الملك عمار بن محمد بن عمار من قصيدة جاء فيها:

أأحبابنا جرتم مع البين فاعدلوا
وجزتم مدى هجرانكم فترفّقوا

ورب فلاة جبتها، وهو مؤنسي[1]
وخيفانة تجري مراراً وتعنق

وظلت أخطيها البلاد ودونها
طرابلس حيث الأماني وجلق

ورجحت ما بين الملوك فما بي
رجاء بذي السعد بن أوفى وأوفق

مليك به الآمال ألقت عصا النوى
فقرت وفي أوصافه المدح يصدق

وعرض لي غيث على الشيم مرعد
من الشام نجاح السحائب مغدق

هو البحر إلا أنه غير مالح
هو البدر إلا أنه ليس بمحق

حمى الثغر من رشف المواضي فقد
كفى تأشب ما يحميه سور وخندق

لكم آل عمار على الجود مسحة
سحاب الندى فيها من التبر مغدق

---

(١) يقصد سيفه.

وفيــك أطــاعتنــي القــوافــي كــأنهــا
لمــدحــك تهــوى أو لنظمــي تعشــق
وقــد كســدت هــذي البضــاعــة بــرهــة
ولــم تــك إلا فــي زمــانــك تنفــق

ويقول فيه من قصيدة أخرى:
عــزت طــرابلــس فيــا لــك بلــدة
طــالــت بمــالكهــا علــى البلــدان
مــوج بظــاهــرهــا ومــوج بــاطــن
سبحــان محــرزهــا مــن الطــوفــان
يفــديــك قــوم ضــاع شعــري فيهــم
وغــدوت جــارهــم فضــاع زمــانــي
أنســت طــرابلــس بمــا أوليــت
للمملــوك طيــب معــرة النعمــان

وفي أحد المجالس الشعرية التي كان يلتقي فيها الشعراء بفخر الملك اقترح عليهم أن يعارضوا قصيدة محمد بن هانىء الأندلسي الرائية الشهيرة التي مطلعها:

فتقــت لكــم ريــح الجــلاد بعنبــر
وأمــدكــم فلــق الصبــاح المسفــر

بأن ينظم كل واحد منهم قصيدة على وزنها وقافيتها،

فسبقهم في ذلك أبو الحسن علي بن ابراهيم، المعروف بابن العلاني، بقصيدة أعجبت فخر الملك فأجازه عليها واستغنى بها عن قصائد بقية الشعراء.

وكان فخر الملك يقود، يومذاك، الكفاح الإسلامي على الصليبيين، ويتحمل حصارهم لمدينته ويدافعهم عن وطنه، وإلى ذلك يشير الشاعر في بعض أبيات القصيدة، كما أشار أبو المواهب المعري في قصيدته المتقدِّمة بقوله:

حمى الثغر من رشف المواضي فقد
كفى تأشب ما يحميه سور وخندق

قال ابن العلاني في بعض ما قال:

يا ناصر الدين الذي لو لم تطل
منه مقارعة العدى لم ينصر
والمجد صعب المرتقى إلاّ على
يقظان في ذات الإله مشمر
إن العلى ما بين كف برة
منه ووجه بالطلاقة مسفر
أيظن جند الشرك عزمك مغفلاً
حز الطلى منهم وقطع الأبهر
فلتنسفنهم سطاك بعاصف
يجتث أصل المشركين بصرصر
وليجلبن ذوي القسي أعدها
للشرك كل مباسل متنمر

تقضـــي فـــروض الصـــوم أكـــرم صـــائـم
وأهـــل عيـــد الفطـــر أكـــرم مفطـــر
لا تعـــدم الأعيـــاد إن ألبستهـــا
ببقـــائـــك الممـــدود أحســـن منظـــر

وقال الشاعر ابن الخياط يمدح علي بن محمد بن عمار، أبو الحسن جلال الملك، من قصيدة:

أحـــب مكـــارم الأخـــلاق منـــه
وأعشـــق دولـــة الملـــك الجـــواد
رجـــوت فمـــا تجـــاوزه رجـــائـــي
وكـــان المـــاء غـــايـــة كـــل صـــاد
صحبنـــا عنـــده الأيـــام بيضـــاً
وقـــد عـــم الـــزمـــان مـــن الســـواد
وأدركنـــا بعـــدل مـــن علـــي
صـــلاح العيـــش فـــي دهـــر الفســـاد
أبـــوك تـــدارك الإســـلام لمـــا
وهـــى أو كـــاد يـــؤذن بـــانهـــداد
سخـــا بـــالنفـــس شمـــاً بـــالمعـــالـــي
وجـــاهـــد بـــالطـــريـــف وبـــالتـــلاد
كيـــومـــك إذ دم الاعـــلاج بحـــر
يـــريـــك البحـــر فـــي حلـــل وراد
رعـــى منـــك الـــرعيـــة خيـــر راع
كـــريـــم الـــذب عنهـــم والـــذيـــاد

وعندما ترك ابن الخياط طرابلس إلى دمشق كتب إليه، منها قصيدة، في مدحه، قال فيها:

لئـــن عـــدانـــي دهـــر عـــن لقـــائكـــم
لمـــا عـــدانـــي عـــن تـــذكـــار مـــا سلفـــا

مـــا وجـــد مـــن فـــارق القـــوم الألـــى ظعنـــوا
كـــوجـــد مـــن فـــارق العليـــاء والشـــرفـــا

أعـــديتـــم يـــا بنـــي عمـــار كـــل يـــد
بـــالجـــود حتـــى كـــأن البخـــل مـــا عـــرفـــا

مـــا كـــان يعـــرف كيـــف العـــدل قبلكـــم
حتـــى ملكتـــم فســـرتـــم سيـــرة الخلفـــا

محـــامـــد ليـــس يبلـــي الـــدهـــر جـــدتهـــا
وكيـــف تبلـــى وقـــد أودعتهـــا الصحفـــا

وبلـــدة قـــد حمـــاهـــا منـــك رب وغـــى
لا تستقيـــل الـــردى منـــه إذا دلفـــا

إن أقلـــق الخطـــب كـــانـــت معقـــلاً حـــرمـــاً
أو أطبـــق المحـــل كـــانـــت روضـــة أنفـــا

وقال من قصيدة في مدحه:

نـــرجـــي الحيـــا مـــن راحـــة ابـــن محمـــد
وأي سمـــاء لا تشـــام بـــروقهـــا

وقـــى الله فيـــك الـــديـــن والبـــأس والنـــدى
عيـــون العـــدى مـــا جـــاور العيـــن مـــوقهـــا

خشـــوع وإيمـــان وعـــدل ورأفـــة

فقـــد حـــق بـــالنعمـــاء منـــك حقيقهـــا
ويغنيـــك عـــن حفـــر الخنـــادق مثلهـــا
مـــن الضـــرب إمـــا قـــام للحـــرب سـوقهـــا
وقفـــت القـــوافـــي فـــي ذراك فلـــم يكـــن
ســـواك مـــن الأمـــلاك ملـــك يـــروقهـــا
معطلـــة إلا لـــديـــك حيـــاضهـــا
ومهجـــورة إلا إليـــك طـــريقهـــا

وقال، من قصيدة في عمار بن محمد بن عمار، فخر الملك:

إلـــى ربـــع عمـــار بـــن عمـــار الـــذي
تكفـــل أرزاق العبـــاد بجـــدواه
فتـــى لـــم نمـــل يـــومـــاً بـــركـــن سمـــاحـــه
علـــى حـــدثـــان الـــدهـــر إلا هـــدمنـــاه

وقال فيه من قصيدة:

إذا آل عمـــار أظلـــك عـــزهـــم
فغيـــرك مـــن يخشـــى يـــد الحـــدثـــان
هـــم القـــوم إلا أن بيـــن بيـــوتهـــم
يهـــان القـــرى والجـــار غيـــر مهـــان
إذا رمـــت شعـــري فـــي عـــلاك أطـــاعنـــي
وإن رضـــت فكـــري فـــي ســـواك عصـــانـــي

هذه نماذج من الشعر الذي مدح به أمراء بني عمار ورجال

دولتهم، هؤلاء الأمراء الذين كانوا في معظمهم أدباء أو علماء، وكانوا في جمهورهم ذواقين للشعر، مستعذبين مجالسه مكرمين رجاله، وكانوا، في صفات من الخير والعدل وجهاد العدو والفروسية والكرم، ما يبعث الشعر أصيلاً صادقاً على لسان الشعراء.

ولرواج سوق الشعر، يومذاك، أولع متداولوه باستكتاب الخطاطين للقصائد بخطوطهم الجميلة، فيدفع أحدهم للخطاط أكثر من سبعة دنانير لكتابة القصيدة الواحدة. ولقد قبض الشاعر أحمد بن حمزة، المعروف بابن الخيشي الحلبي، نحو مئتي دينار في شهر رمضان لكتابته سبعاً وعشرين قصيدة لجماعة من الطرابلسيين[(١)].

بنو عمار من الكتاب إلى السَّيف

عندما وصل القائد الصليبي «صنجيل» (ريموند دي سان جيل) إلى مشارف الشام كان أول من أدرك الخطر الصليبي فخر الملك بن عمار، فصمم على الإعداد لهذا الخطر قبل أن يتغلغل في البلاد الشامية، وذلك بالدعوة إلى حلف إسلامي يقف في وجهه، فراسل الأمير «ياخز» في حمص والملك «دقاق بن تتش» في دمشق يقول لهما على ما يروي ابن الأثير[(٢)]: من الصواب أن

---

(١) الحياة الثقافية، ص ٢٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٣٤٤.

يعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة.

فاستجابا له، فخرج الأمير «ياخز» بنفسه وسيَّر «دقاق» ألفي مقاتل، وخرجت الإمدادات الطرابلسية فاجتمعوا على باب طرابلس وصافّوا «صنجيل» هناك.

يقول ابن الأثير: فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين، وتبعهم عسكر دمشق، وحمل «صنجيل» بمن معه فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونازل «صنجيل» طرابلس وحصرها.

إلى هنا، والأمر طبيعي، فالحروب سجال: ينتصر هذا الفريق وينهزم ذاك الفريق... ولكن غير الطبيعي والذي يجعلنا نكثر من التساؤل والاستغراب هو المقدمة الذي قدم بها ابن الأثير لهذه الحرب وهزائمها، فهو يقول عن أحداث سنة ٤٩٥ هـ.، بعد أن يتحدث عن هزيمة «صنجيل» أمام «قلج أرسلان»: ومضى «صنجيل» مهزوماً في ثلاث مئة فوصل إلى الشام فأرسل فخر الملك بن عمار إلى الأمير ياخز وإلى الملك دقاق... إلى آخر القول الذي تقدم... ثم يقول: فاخرج «صنجيل» مئة من عسكره إلى أهل طرابلس ومئة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص، وبقي هو في خمسين. فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين وتبعهم عسكر دمشق.

وأما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المئة الذين قاتلوهم، فلما شاهد ذلك «صنجيل» حمل في المئتين الباقيتين، فكسروا أهل

طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونازل «صنجيل» طرابلس وحصرها.

يستطيع الإنسان أن يقول: إن في كلام ابن الأثير هذا تخليطاً لا نعرف عوامله!...

والذي يهمنا الآن هو أن حصار الصليبيين لطرابلس براً وبحراً قد بدأ وأنه سيستمر عشر سنوات أصبح خلالها شعار بني عمار: السيف، بعد أن كان شعارهم الكتاب، وإن ظل للكتاب عندهم مكانه الرفيع ومنزلته الكبرى.

يقول المؤرِّخون[1]: اجتمع على منازلة طرابلس كل من «برتران» الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، ودوليم غوردان، ابن أخت ريموند المذكور، و«تانكريد» أمير أنطاكية واللاذقية و «بلدوين» ملك بيت المقدس، و«بلدوين» كونت الرها و «غوسلين» أمير قلعة تل باشر.

وكانت القوى المهاجمة للمدينة تتألف من ٤٠٠٠ فارس بروفنسي قدموا مع برتران، وعدد كبير من الجنوية جاءوا بعشرين سفينة، إلى جانب سفن برتران وعددها أربعون، و٥٠٠ فارس أتى بهم بلدوين ملك القدس إلى جانب عدد كبير من الرجالة و٧٠٠ فارس من خيرة فرسان تانكريد، بالإضافة إلى بلدوين كونت

(١) تاريخ الحروب الصليبية. ج٢. ص ١١١.

الرها، وجوسلين وحرسيهما، ثم جموع المردة ومن أتى من جبل لبنان.

كان هذا الجمع قد تجمع على طرابلس بعد أن كلّت قواها بعد عشر سنوات من الحصار المضروب والقتال الدائم، وكان هو الذي دخل طرابلس.

يقول ابن الأثير، في أحداث سنة ٥٩٦ هـ. وكان صنجيل يحاصر مدينة طرابلس الشام، والمواد تأتيها، وبها فخر الملك بن عمار، وكان يرسل أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا. ويقصد بذلك أن يخلو السواد ممن يزرع لتقل المواد من الفرنج فيرحلوا عنه.

سنة كاملة مرت على الحصار كانت مهمة فخر الملك فيها مزدوجة ذات شقين: شق دفاعي وشق هجومي، فهو يقف في وجه اقتحام الصليبيين لمدينته فيقاتلهم دفاعاً عنها، ثم هو ينفذ بمراكبه من بين سفن الصليبيين المحاصرة له، فيهاجم الصليبيين في ما يحتلونه من بقاع.

كان فخر الملك هنا بطل الدفاع والهجوم معاً، وكان «العمّاريون» أهله يشدون من أزره، وشعبه الطرابلسي بصبر ويصابر معه. وتأتي سنة ٥٩٧ هـ. فيقول ابن الأثير: في هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية فيها التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك، واستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس، فحصروها معه براً وبحراً وضايقوها

وقاتلوها أياماً، فلم يروا فيها مطمعاً فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل...

سنتان مرتا وفخر الملك محصور في مدينته، وهو صامد يدافع عنها دفاع الأبطال، ويستعين الأعداء بقوى جديدة فلا ينالون من صموده منالاً...

وفي سنة ٤٩٩ هـ. يقول ابن الأثير: كان صنجيل قد ملك مدينة جبلة، وأقام على طرابلس يحصرها فحيث لم يقدر أن يملكها، بنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ربضاً، وأقام مُراصداً لها ومنتظراً وجود فرصة فيها، فخرج فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، فأحرق ربضه ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان فانخسف بهم، فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات، وحمل إلى القدس فدفن فيها.

ثم إن ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس فحملوها في البحر، فأخرج إليها فخر الملك بن عمار أسطولاً فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد فظفر المسلمون بقطعة من الروم فأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا.

ويتابع ابن الأثير كلامه:

ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت، فعدمت الأقوات به، وخاف أهله على نفوسهم

وأولادهم وحُرَمهم، فجلا الفقراء، وافتقر الأغنياء، وظهر من ابن عمار صبر عظيم، وشجاعة، ورأي سديد. (انتهى) هذا الكلام الذي نأخذه بنصه عن ابن الأثير يغني عن كل تعليق[1].

ويواصل ابن الأثير قائلاً:

وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضّعفى، فلما قلّت الأموال عنده شرع يقسّط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالاً مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم، وذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من «عرقة» والجبل. فجعل الفرنج جمعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد.

فأرسل ابن عمار وبذل للفرنج مالاً كثيراً ليسلموا الرجلين إليه فلم يفعلوا. فوضع عليهما من قتلهما غيلة. لم يكن ابن عماراً بطلاً شجاعاً فقط، بل كان إلى ذلك حازماً بعيد النظر محكم التدبير جلداً أمام الأهوال.. في كل شعوب الأرض يوجد ضعاف النفوس خوارو العزائم، ويوجد حريصون على المال لا يبالون في هذا الحرص أن يخونوا أوطانهم.

فلا يضير الشعب الطرابلسي أن يوجد في صفوفه مثل هذين الخائنين الذين لا نشك في أنهما جمعا مالهما من الحرام ومن كل

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٤١٢.

مصدر غير شريف، لأن من يقدم على ما أقدما عليه يكون قد أقدم على كل رذيلة في جمع المال!.

كان ابن عمار ـ كما قلنا ـ حازماً بعيد النظر محكم التدبير جلداً أمام الأهوال، فلم يشغله ما هو فيه عن التفكير في أمر هذين الخائنين. إن تركهما سليمين يشجع أمثالهما على الخيانة فأحكم تدبير أمر اغتيالهما، واستطاع اختراق صفوف أعدائه والوصول إلى اغتيالهما، وفي هذا ما فيه من قوة العزم وسداد الرأي وإحكام الأمر..

ابن عمار والسلاجقة

وفي أحداث سنة ٥٠١ هـ. يقول ابن الأثير: ورد فخر الملك أبو علي بن عمار، إلى بغداد قاصداً باب السلطان محمد(السلجوقي)، مستنفراً على الفرنج، طالباً تسيير العساكر لإزاحتهم، والذي حثه على ذلك أنه لما طال حصر الفرنج لمدينة طرابلس، ضاقت عليه الأقوات وقلّت، واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد.

ويتابع القول: فلما بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسلطان محمد وزوال كل مخالف رأى لنفسه وللمسلمين قصده والانتصار به اهـ[1].

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ٤٥٢.

لقد استقبل فخر الملك في بغداد من السلطان ومن الخليفة بحفاوة بالغة، فطالب بالنجدة وتعهد أنه إذا أجيب استنجاده وأرسلت معه العساكر يوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. قال ذلك للخليفة وللسلطان، فلم ينل غير الوعود، فعاد إلى دمشق خائباً!..

وقد حدثت في غيابه مؤامرات عليه ساهم فيها نائبه، ما أخرج الأمر من يده وحيل بينه وبين العودة إلى طرابلس. وفي سنة ٥٠٣ هـ. كان الصليبيون يدخلون طرابلس. ويوجز ابن الأثير ذلك بهذه الجمل:

ومد الفرنج القتال عليها من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوة وقهراً ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد ولا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر بلاد الله أموالاً وتجارة. وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات وأخذت دفائنهم وذخائرهم في مكامنهم.
وكانت المكتبة الكبرى من ضحاياهم إذ أحرقوها بكل ما فيها.

بنو عمار والعمران

لم يغفل بنو عمار النواحي العمرانية في إمارتهم، فمن أهم ما عنوا به المشاريع المائية، فأمّنوا لطرابلس رياً منظماً من النهر الذي عرف بعد ذلك باسم نهر «أبو علي»، ولا يزال حتى اليوم

يعرف بهذا الإسم، فقد كان نهر قاديشا يفيض فيحدث أضراراً ولا ينتفع منه، فوضع فخر الملك أبو علي ابن عمار خطة إنمائية تنظم أمور النهر وتمنع فيضانه، وتجريه في أقنية للري، فعاد على المدينة ومنطقتها بالخير العميم، ونمت المزروعات والبساتين والحدائق، وتشكل من ذلك ثروة زراعية ساعدت على رقي المجتمع، وازدهرت الحقول والأرضين المحيطة بالمدينة بوفرة مزروعاتها وتنوعها وفاضت عن حاجاتها فاحتفظت بأموالها واستدرت أموالاً من الخارج ما كان عاملاً في نهوض الحركة الصناعية والاقتصادية والثقافية.

وعرفت طرابلس، في كتب المؤخين والرحالين، بكثرة ما تنتجه من الفواكه والثمار، حتى لقد قالوا: «إن فيها ما لا يوجد في سائر الأقاليم أصلاً، إذ لا يكاد يوجد دار بغير شجر لكثرة تخرق أرضها بالمياه، فهي تجمع بين ثمار الشام ومصر».

والفرنج عرفوا قصب السكر، لأول مرة، في بساتين طرابلس، فنقلوا غروسه إلى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا.

ومن إنجازات بني عمار إنشاء مصانع للورق، فقد كان الورق السمرقندي هو المشهور في العالم الإسلامي بجودته، فإذا بالورق الطرابلسي يفوقه جودة.

وقد كان لوجود مصانع الورق أثر كبير في رواج العلم والتدوين والتأليف في طرابلس وساعد على نهضتها الثقافية العلمية الأدبية، فكثر الوراقون، ونشأت للتجليد صناعة فنية على الطريقة

الصينية من زخرفة وتوشيح بالخطوط الملونة. ومن الصناعات التي نهضت في طرابلس صناعة الحرير التي امتدت مصانعها على ضفاف النهر، بما فيها من ألوف الأنوال والمغازل ما أدهش الفرنج وأثار عجبهم.

وقد عني بنو عمار بالملاحة البحرية فانشأوا أساطيل تجارية كانت تجوب البحر حاملة من طرابلس أو ناقلة إليها حاجات الناس هنا وهناك ما أشرنا إلى بعضه فيما تقدم من القول، هذا عدا عن أسطولهم الحربي الذي تولى قتال أساطيل الصليبيين طوال عشر سنوات.

ومن طرابلس عرف الأوروبيون «البوصلة» وكيفية استعمالها، عرفوا ذلك من البحارة الطرابلسيين.

وقد امتدت آثار بني عمار إلى خارج امارتهم، فهم الذين بنوا الجهة الشرقية من الجامع الكبير في مدينة حلب، كما يثبت ذلك المؤرخ ابن الشحنة الحلبي في كتابه «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»[1]. كما كانوا يبعثون القضاة والخطباء إلى المدن الشامية، ومن ذلك ما ذكره «ابن تغري بردي» في كتابه «النجوم الزاهرة» عن ابن تلتمش أنه عندما فتح حصن انطرطوس من الروم

(١) ابن الشحنة الحلبي، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩، ص٦٣.

سنة ٤٧٥ هـ. ، بعث إلى صاحب طرابلس جلال الملك يطلب منه قاضياً وخطيباً ليقيم بها[١] .

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ج٥، ص ١١٥.

ملاحـــق

ملحق رقم(١)

بعد كتابة ما تقدم رأينا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور يقول في كتابه (مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)[١]:

«إن منطقة الشرق الأدنى شهدت أواخر العصر الفاطمي تحولاً خطيراً نتيجة لنجاح الصليبيين في الاستقرار في قلب تلك المنطقة وقد سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الفاطمية كانت في خريف عمرها عندما ظهر الخطر الصليبي، وكيف أنها عجزت عن فهم طبيعة ذلك الخطر في الوقت المناسب، بل فشلت في صد هذا الخطر وفي حماية نفسها منه.

ومعنى هذا أنه صار عليها أن تتنحى، وتفسح المجال لقوة أخرى فتية تحل محلها وتستطيع أن تنهض بأمانة الجهاد» (انتهى).

ونقول رداً على هذا الكلام ما أن سبق إن قلناه: وهو أن الدولة الفاطمية كانت قد انتهت سلطتها، قبل وصول الصليبيين

(١) ص ٩، بدون تاريخ.

بربع قرن، وأن الذي أنهى سلطتها وحل محلها هم الجماليون الذين قامت بهم الدولة الجمالية التي صارت هي صاحبة الأمر والنهي، والتي حجرت على الخلفاء الفاطميين في بيوتهم ومنعتهم من أي تصرف في شؤون الدولة. وإنما أبقتهم لأن رجالها لا يستطيعون أن يتلقبوا بلقب الخلافة، وفي بقاء الخلفاء الفاطميين يضفون على حكمهم مظاهر الشرعية.

وإن صح ما قاله الدكتور عاشور من أن الحكم في مصر قد عجز عن فهم طبيعة الخطر الصليبي في الوقت المناسب وفشل في صد هذا الخطر وفي حماية نفسه منه.

نقول: إن صح هذا القول ـ وهو ليس بصحيح ـ فإن الذي عجز عن فهم ذلك، وفشل في الصد، ليست الدولة الفاطمية التي لم يكن لها وجود، بل الدولة الجمالية.

وقولنا: هو ليس بصحيح، لأن بدراً الجمالي قد فهم طبيعة الخطر لأول وهلة وحاول دفعه سلماً، فلما لم يستطع أعد لصده حرباً كل ما يستطيع إعداده من كان في مثل ظروفه، وقاتله ببسالة وثبات.

وإذا كان قد فشل في صده فلأن القدر كان أقوى منه، ولأن الجيوش المتدفقة عليه كانت أشد من أن يقف في وجهها أكثر مما وقف.

والدكتور عاشور يعني بقوله: (أنه صار على الدولة الفاطمية أن تتنحى وتفسح المجال لقوة أخرى فتية تحل محلها وتستطيع أن

تنهض بأمانة الجهاد) ـ يعني بقوله هذا: القوة الأيوبية.

وقد بينا في كتابنا (صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين) ـ بينا بأن القوة التي يعنيها الدكتور عاشور قد خانت أمانة الجهاد. . .

إن الدكتور عاشور نفسه يعترف بأنه لم تكن هناك خلافة فاطمية فاعلة مسيطرة عند الغزو الصليبي. أنه هو نفسه يقول:[1]

«كانت الدولة الفاطمية في ذلك الوقت تقاسي آلام الموت البطيء، بعد أن انحلت الخلافة، وفقدت هيبتها، واختلت أحوال مصر الداخلية. ولا أدل على انحلال الدولة الفاطمية عندئذ من نهاية كثير من الخلفاء بالقتل فضلاً عن تحكم الوزراء العظام في شؤون الدولة والخلافة جميعاً».

ملحق رقم(٢)

يقول الدكتور عاشور فيما يقول:[2]

«ولكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي حمل الأمانة واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ (١١٥٤ م) ومن ثم أخذ يتطلع إلى مصر لتمتد الجبهة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل» إلى آخر ما قال. . .

(١) م.ن. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٣.

(٢) م.ن. ص ١٠ ـ ١١.

ثم يقول[1]: «وسرعان ما اتضح أن نجاح حركة الجهاد الإسلامية لا يتحقق إلا في ظل جبهة إسلامية متحدة، توحد بين القوى الإسلامية المبعثرة بين النيل والفرات، وتجعل من هذه القوى بنياناً مرصوصاً يستطيع الصمود في وجه الخطر الصليبي. وكانت هذه الفكرة ـ فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة ـ هي المحرك الأول الذي جعل نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٩٤ (١١٥٤ م) وأصبح يسيطر على المدن الكبرى في الشام مثل حلب ودمشق» إلى آخر ما قال...

ثم يقول: «والواقع أن الصليبيين لم يقلوا طمعاً في ملك مصر عن نور الدين»، ثم يقول:[2] ومنذ ذلك الوقت لم يتخل الصليبيون عن فكرة الاستيلاء على مصر، حتى كان منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) عندما رأى نور الدين محمود أن الجبهة الإسلامية المتحدة لا تستدير حلقتها وتكتمل إلا بالاستيلاء على مصر بالذات، الأمر الذي جعل من مصر ميداناً رئيسياً في الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين».

ثم يقول[3]: ولا يخفى علينا أن هناك سبباً قوياً ربما حرك

---

(١) م.ن. ص ١٢.
(٢) م.ن. ص ١٣.
(٣) م.ن. ص ١٦.

عند نور الدين الرغبة في غزو مصر، وأعني بذلك العامل المذهبي. ذلك أن الخلافة الفاطمية في مصر كانت مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي لأنها جعلت ولاء المسلمين في الشرق الأدنى تتقاسمه خلافتان ومذهبان، إحداهما الخلافة العباسية السنية في بغداد، والأخرى الخلافة الشيعية في القاهرة. لذلك كان من الطبيعي أن يتجه نور الدين ـ وهو الحاكم السني الحريص على تدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات ـ إلى التفكير في القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة.

وكان أن أتيحت الفرصة مرة أخرى لنور الدين محمود عندما أرسل إليه الخليفة العاضد الفاطمي يشكو من استبداد شاور وظلمه» إلى آخر ما قال. . .

ثم يتابع كلامه قائلاً: لذلك بادر نور الدين بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) وكان بصحبة شيركوه في تلك المرة أيضاً ابن أخيه صلاح الدين.

نقول: من المؤسف أن يوغل رجل مثل الدكتور عاشور في الخيال فيجعله مصدراً لكتابة التاريخ، فما ذكره في أول الكلام الذي نقلناه من حديثه هو خيال في خيال، فنور الدين محمود لم يكن في ذهنه تشكيل جبهة إسلامية متحدة تمتد من الفرات إلى النيل، ولم يتطلع إلى مثل هذا التطلع، وكان دواعي إرساله من أرسلهم من الجنود إلى مصر أول مرة أن نزاعاً على السلطة قام بين

(شاور) وبين (ضرغام) فتغلب ضرغام على شاور.

يقول ابن الأثير[1]: «فهرب شاور منه إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين ومستجيراً به فأكرم مثواه وأحسن إليه وأنعم عليه، وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العسكر، ويكون شيركوه مقيماً بعساكره في مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين واختياره».

إذن ـ بنص ابن الأثير ـ لم يكن في ذهن نور الدين تطلع إلى تحديد الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل، ولم تكن هذه الفكرة ـ فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة ـ هي المحرك الأول الذي جعل نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر. بل المحرك له على ذلك هو أمر شخصي بحت حيث ينتصر لمستنجديه على منافسة لقاء مكاسب شخصية هي الاستحواذ على ثلث دخل البلاد.

وما كرره بعد ذلك في الموضوع نفسه من القول: «رأى نور الدين محمود أن الجبهة الإسلامية المتحدة لا تستدير حلقتها، وتكتمل إلا بالاستيلاء على مصر بالذات، الأمر الذي جعل من مصر ميداناً رئيساً، في الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين».

إن هذا الذي كرره هنا، وأضاف إليه ما أضاف، هو خيال في

(١) ج١١، ص٢٩٨.

خيال لا حقيقة له، فمصر لم تصبح ميداناً رئيسياً في الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين.

وكل ما جرى أن ثلث دخل مصر أغرى نور الدين، بإرسال عسكر إلى مصر لنصر شاور على ضرغام، بقيادة أسد الدين شيركوه، وإذا كان هذا العسكر قد استطاع إعادة شاور إلى السلطة، فإنه لم يستطع التغلب على غدر شاور، ورجوعه عما قرره لنور الدين واستنجاده بالصليبيين، على أسد شيركوه الذي آثر السلامة فرجع إلى الشام.

فأين هو هذا الميدان الرئيسي الذي صيرته مصر في الصراع بين نور الدين والصليبيين؟!

أما نسبة العصبية المذهبية العمياء لنور الدين فصحيحة، وما فعله في حلب من شرور وآثام، هو بعض مظاهر هذه العصبية.

أما القول بأن الخلافة الفاطمية في مصر كانت مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، فقول كنا نجل مؤرخاً في مستوى الدكتور عاشور أن يفوه به، ونحن ننزهه عن العصبية المذهبية، ولكنها رواسب في النفس تظل تفعل فعلها.

إن الخلافة الفاطمية كانت مصدراً من أكبر مصادر التجميع لا التفريق: لقد كان نشؤوها ضرورة من ضرورات العالم الإسلامي في ذلك الحين الذي تمزقت فيه قوى المسلمين وتفرقت كلمتهم وتلاشت دولتهم وأصبحوا يتطلعون إلى الحمى الذي يمكن أن يلجؤوا إليه من الخطر الداهم المهدد لوجودهم بتزايد قوى الروم

وإصرارهم على غزو الإسلام في دياره واسترداد ما أخذه منهم والثأر للماضي البعيد، حتى إن نقفور فوقاس لم يكن يخفي مطامعه الهوجاء في الزحف إلى الحجاز نفسه والوصول إلى مكة والمدينة.

في هذا البحران الرهيب كان المنقذ نشوء دولة فتية وزعامة قوية تجمع حولها ما تشتت من القوى وتوحد ما تفرق من البلاد، فكانت الدولة الفاطمية هي المنقذ فجمعت الشمال الإفريقي في كيان واحد وقيادة واحدة وقضت على التجزئة وأحلت محلها وحدة متماسكة جعلته دولة واحدة بعدما كان عدة دول متطاحنة متقاتلة[1] ولم تقتصر الوحدة على الشمال الإفريقي بل امتدت فشملت مصر والشام والحجاز واليمن وصقلية وقوصرة. وقلورية..

يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة: «اتجهت سياسة الفاطميين بعد أن امتد نفوذهم إلى مصر في عهد المعزل لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) إلى استعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام».

ويقول الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية)

---

(١) كان شمال أفريقيا مقسماً بين: الأغالبة والرستميين وبني مدرار وبقايا الأدارسة.

وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام: «وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥ م (٣٦٥ هـ) على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك، وأراق الإفتكين صاحب دمشق ماء وجهه إبقاء على ولايته».

إلى أن يقول الدكتور حبشي في الحديث عن الفتح البيزنطي:

«على أن موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والإمارات الإسلامية لم تلبث أن توقفت منذ أواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين الذين أمدوا الإسلام بدم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح..».

والأشد أسفاً في أقوال الدكتور عاشور هو مروره ذاك المرور العابر برسالة الخليفة الفاطمي (العاضد) إلى نور الدين وزعمه أن موضوعها كان شكاية العاضد من استبداد شاور وظلمه.

هذه الرسالة التي كان يجب على الدكتور عاشور وعلى غير الدكتور عاشور أن يقف أمامها طويلاً ويتحدث عنها كثيراً، مر بها هذا المرور السريع وحولها عن الغاية التي كتبت من أجلها.

إن رسالة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين الذي استطاع أن يملك بعض الحرية لبعض الوقت، استغل هذه الحرية العابرة للإقدام على تضحية فريدة لم نعرف أحداً من الحكام أقدم على مثلها!..

إن العاضد يعرف حق المعرفة ما يضمره نور الدين له

ولدولته ولمذهبه من الشر، ويعرف كذلك حق المعرفة ما فعله نور الدين في حلب . .

ومع ذلك فإنه لما رأى الصليبيين يهددون مصر، ورأى أنه ربما لا يستطيع دفعهم عنها، آثر أن يسلمها لمن يضمرون له الشر من المسلمين على أن تكون فريسة للصليبيين، فأرسل إلى نور الدين يستدعيه إلى احتلال مصر مستنجداً به على الصليبيين، وأرسل مع كتب الاستنجاد شعور النساء قائلاً له في رسالته إليه: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج»[1].

ولم يكتف بذلك، بل بذلك له ثلث بلاد مصر وأن يكون قائد النجدة مقيماً عنده في عسكره وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين[2].

فعند ذلك قرر نور الدين تلبية الطلب، فأرسل حملة مؤلفة من ثمانية آلاف فارس بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين.

---

(١) كتاب الروضتين (الجزء الأول ـ القسم الثاني) الصفحة ٣٩١ من طبعة ١٩٦٢، وصاحب هذا الكتاب مملوء لؤماً وتعصباً على الفاطميين ولكنه لم يستطع إنكار هذه الحقيقة. وذكر ذلك ابن الأثير وغيره.

(٢) م. ن.

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة